ربيع عاصف

دار خيال للنشر والترجمة ©
تجزئة 53 قطعة. رقم 27. بليمور
برج بوعريريج – الجزائر-
0668779826
Khayaleditions@gmail.com
ردمك :978-9931-06-567-8
الإيداع القانوني : نوفمبر 2021.

شيماء بن شنوف

ربيع عاصف

رواية

إهداء

إلى من علماني أبجدية الوجود، أبجدية الحب، أبجدية الطموح، سند روحي بالحياة ..أبي و أمي. لولاها لما حَلّقَ شغفي بالكتابة عاليا..

نريمان

إلى كل الأشياء الحلوة التي عشتها رُفْقتهم، وكل الضحكات التي رافقت لمَّة جميلة إلى أُخواتٍ كُنَّ دومًا نبضا لقلبي، إلى أجمل هدية أهداني الله إياها..

إلى عائلتي الجميلة

"ماذا لو تَجَرّعَتْ الحياةُ سائلا مُضادًا للحرب! هل كان العالم لِيَكون مُسالما!..ماذا لو أخذنا كلّنا جُرْعةً زائدة من هذا السائل! هل كانت لِتَموت فينا روح الوطنية! هل كُنَّا لِنستغني عمّا سميناه بالوطن وهرعنا إلى حيث السلام يأخذ الحيز الأكبر من العالم!. لكن في وطني، في عالمي، يكون الهروب هو الحل الأسمى للشعب، شيءٌ من الجبن أخذ يتغلغل في أعماقهم، ربما خوف ربما رغبة في حياة أسهل، أن تحيا أجسادهم في مكان غير أوطانهم فقط ليتخلصوا مما يسمى " حكم الدولة" لكنهم ينسون غالبا أنّ الذّل الأكبر يكمن في هروبهم من أوطانهم..يكمن في تقبّل إهانة أشكال الجنسية الأخرى لهم ..لا أظنهم يُفلحون في إعطاء الوطنية تعريفًا صحيحا ولا في كونهم يقفون بِشماخةٍ خلف كلمة وطني ..وإنما هو تدنيس ..تدنيس بحق الوطن."

في عالم لا تقدر فيه القلوب انتهت رواية حب جميلة قبل أن تبدأ حتى..
في عالم مثل هذا انتهت رواية حبي لك قبل أن أبداها حتى...
أنت هو الحب المفقود في الحكاية كلها..

***

للحب دوما مخبأ سري أينما نضع به كل مشاعرنا المجهولة...
هكذا، مكان عميق ندفن فيه أوجاعا من الحب، أحاسيس مكتومة ...
كلمات لم تفلح في أن تهرب من بئر الجبن هذا ..
أينما تُرمى كُل الذكريات والمواقف والأحاديث..
مجرد خزانة تلم حبنا المهترىء...

***

في البداية كل شيء كان مجرد صدفة ....
الحياة صدفة ...
قدرنا غالبا ما يكون صدفة وليس مدبرا ...
الحب صدفة ولقائي بك كان صدفة ...
لم أتعمد اللقاء بك ولم تقصد الولوج لحياتي، في الواقع كان الأمر أسوأ مما كنت أتخيل لكني لم أتخيلك أبدا...
عجزت، بل خفت من فقدانك...
لكني في الأخير فقدتك، فقدتك من شدة خوفي ..
منذ اللحظة التي ضيعت فيها كلماتي عنك علمت أننا لن نكون واحد...
دربانا اختلفا والقدر رسم كل شيء...
بعدي عنك كان مدبرا لا صدفة ..
تطلب مني ذلك الكثير من الوقت لأستوعبه لكن في النهاية أنا حية والأجمل قلبي حي.

إذا ما كان للحب يوما..
نية صادقة..
وصافية في قلب كِلاَ الحبيبين..
سيلتقيان.
حتما سيجتمعان.
في الأخير سيكونان لبعضهما ولو تطلب ذلك من العمر دهرا.

"كانت الحياة لتكون عادية لولا الحرب...مصطلح يثير الرعب في قلوب الأبرياء ويشعل نار الحقد داخل الظالم..لولا الحرب لم يكن ليكون هناك مفقودين ولا موتى ولا أمهات تبكي بحرقة على فلذات أكبادهن ولا أباء قد زين الحزن ملامح وجوههم وعجل في شيخوختهم ولا أطفال أبرياء قد ضاع منهم الحق في الطفولة.. فلسطين، سوريا،دول نالت منهم الحرب وأسقطت ميزان العدل فيهم.. إن ذكرنا فلسطين سنذكر غزة والعدو الإسرائيلي،ينام سكانها على ضوء القمر ويستيقظون على أصوات النحيب، صواريخ،وطائرات حربية، تفجيرات، وان قلنا سوريا، أصبحت الآن وردة ذابلة.."

١٠ /تشرين الأول /٢٠١٢ / سوريا / حلب

يوم آخر، من أيام الحرب الأهلية، لكنه يظل صباحا جميلا بنكهة الخريف ... الجو بارد،غيوم تكتسي السماء مصحوبة بقطرات مطر خفيفة تهطل على أرض الوطن، ترابه، تُبلل أوراق الشجر الذابلة، وكأن كل زهرة ترتوي من تلك المطر الحلوة تغدو أكثر إشراقا، تأتي خفيفة، تداعب روح الأرض بخفة، بهدوء وكأنها تَعد بخريف جميل هذه السنة ...

هناك، حيث كانت جالسة بجانب المدفأة، تعلوها نافذة،كانت قد فتحت جهة واحدة منها حتى تستنشق عطر التربة وهي تعانق قطرات المطر لعل ذلك يلهمها في أن تكمل رسمتها تلك،كانت قد بدأت برسمها قبلا والآن تريد أن تنهيها لكي تضيفها وأخيرا لمجموعة لوحاتها الأخرى. "حرب بائسة". غمغمت .. أو ربما وطن مريض .. لا،ذلك مبتذل قليلا،.وردة ذابلة،.لما لا يكون هذا؟. وفي منتصف تركيزها المكثف ذلك ومحاولاتها البائسة في إيجاد اسم للوحة الرسم تلك انتشلها صوته من كل ذلك... بدا كصوت رجولي خشن تتخلله بَحَّة خفيفة .

سألها مشيرا بنظره إليها : عفوا هل يمكنني الجلوس هنا ..

ثم أشاح بنظره و أكمل قائلا : أو الوقوف،لا فرق عندي طالما هناك مدفأة..

بدا مشوشا قليلا ..ربما لأنه ظنّ أن سؤاله ساذج بعض الشيء ..

لكنها أجابته دون أن ترفع رأسها من على الرسمة وكأنها تحاول أن لا تشتت تركيزها به :

- أجل تفضل ..

بدا ذلك جيدا ..لِمَ عليه أن يكون مترددا لهذه الدرجة، قام بالاتكاء على تلك المدفأة واضعا يديه في جيوب سترته يتأمل بصمت ما تفعله هناك .. استطاع طبعا أن يفهم من طريقة جلوسها وتسمُّر عيناها على تلك الرسمة فقط وهي تضيف اللمسات الأخيرة لها أن تركيزها عالٍ ولا ينبغي تشتيتها بأية وسيلة. خطر على باله أنها طالبة فنون وهذا واجبها التطبيقي الذي يجب عليها أن تنجزه بامتياز لكنه لم يستطع تمييز ما ترسمه فقد كان يقف قبالتها تماما واللوحة في اتجاه معاكس له ..كل ما استطاع أن يلمحه هو ذلك اللون الرمادي الطاغي على الرسمة، ودون أن تنتبه أنها ليست الوحيدة الموجودة في ذلك القسم وأنه يوجد

شخص قد سمحت له قبل قليل بأن يجلس بجانبها قالت بصوت مبتهج : انتهيت أخيرا وعلى وجهها ابتسامة نصر ..

ابتسم هو الآخر لحركتها تلك وقال :

- هنيئا لك ...

حدقت فيه لثوان وعلامات التشويش بادية على وجهها إلى حين تذكرت ما حدث قبل قليلا ،

- أردفت : شكرا.

على وشك أن تدس ما رسمته للتو في حقيبتها لكنه قام بسؤالها :

- هل لي برؤية ذلك

نظرت إليه وأجابت:

- بالطبع،تفضل..

لم ترى أحدا من زملائها مهتما قبلا بما ترسمه فلما يفعل هو، لكنها خمنت ربما ذلك جيد ..فحتمًا تحتاج لرأي آخر غير عائلتها . أعطته إياها وجلست تنتظر ما سيقوله عنها ...بدا كأنه يتفرس الرسمة بعقله لا بعيونه..تأمل فيها طويلا دون إصدار أي صوت ..اِستمر ذلك للحظات لكن بدا لها وكأنها ساعة كاملة .. فكّرت - أيعقل أنها لم تعجبه أو ربما لم يستطع فهم معناها ؟.ماذا إن كانت تبدو جافة الكلمات بالنسبة له؟،لن يهمها فهي واثقة مما ترسمه ولا تظن أبدا أنها ترسم هكذا فقط دون أي مغزًى...

قاطع صوته مجددا حبل أفكارها :

- جميلة

وناولها إياها : - تفضلي ..

أخذتها من يده مبتسمة :

- شكرا..

لكنها لا تعرف ما إن كانت إبتسامة لطف وحسب أم أنها فقط إبتسمت لتغطي حجم التشويش داخل نفسها ... "جميلة! أهذا كل ما استطاع أن يصبو به.؟.كل هذا الوقت من التأمل ثم يخبرها أنها جميلة، عديم ذوق،"خمنّت .

أردف بصوت مستاء قليلا :

- الشتاء سيحِّل ولا يوجد سوى مدفأة واحدة تعمل في هذا القسم.. وراح ينفخ في كف يديه ثم يضعهما على المدفأة..

ثم غمغم :

- أي جامعة هذه وأي دولة ..

برَّرت قائلة :

- لقد انقطع الغاز، حصل ذلك مرتين أو ثلاث على التوالي لكن الأستاذ اِشتكى وطمئنوه أنهم سيصلحون العطل في أقرب وقت .

سخر قائلا :

- جيد ..ربما يكون الشتاء قد انتهى حينها.. ضحكت وهي تنظر خارج النافذة:

- لا بأس..سننتظر..هذا ما نستطيع فعله أصلا ..

- ما عنوان رسمتك !

أشاحت بنظرها إليه : - لم أجد عنوانا بعد ..

سألها : - صعب قليلا أليس كذلك !

- بل مشوش قليلا وليس صعب، فالتشويش دوما ما ينتابنا في النهاية .

أضاف : - وهل يوجد أي إقتراحات كنت قد تشوشت فيما بينها !!

- في الحقيقة،بعد عدة أسماء جالت رأسي أظنني سألتزم بربيع عاصف كعنوان لها ..

- ذلك جيد، لكن هل لي أن أعرف سبب اختيارك !

- حسنا، "هي رسمة تُوثِّق الحرب بكل صفحاته، سماء صافية وشمس تسطع، هنا الربيع .. لكن انظر للناس وهم يفرُّون هلعا مما هو آت، تستطيع أن تلمح نظرة الرعب في ملامح وجوههم..أناس بزي عسكري لا تدري ان كانوا سيهربون منهم أم يلجؤون إليهم.. جرحى و موتى،أطفال أبرياء يبحثون عن طفولتهم..لا أظن انه سيبقى للرّبيع طعم حينها وحتى وان كانت درجة الحرارة تُدْفِء المكان ستظل أجسادهم تتجمد من الخوف وقلوبهم تبرد من قسوة الحرب" ..

أردف قائلا: - جوابك لا بأس به .

- ماذا ! سألت بصوت ساخر، أ لديك تبرير آخر؟ هيا أخبرنا به ..

أثار غضبها فهو لم يعلق لحد الآن بأكثر من كلمة على رسمتها ..

- أتظنين أن الحرب شيء نستطيع سرده في رسمة .. أنتِ تستخفين بهكذا حَدَثْ ..

أجابته : - إن كنا نستطيع سرده في كتاب أو ربما مقالة أو ربما حتى جزء من قصة ما، فلما لا نستطيع رسمه!، هل استصعبت ذلك!

- نستطيع أن نكتبه اجل، فبالكلمات نخبر المشاعر والأفكار..تفاصيل قد عاشها أشخاص ..ليس بالصعب تدوينها بل ونستطيع حتى إيصال الأحاسيس للقُرّاء حينها. ببساطة إنه التاريخ.. تستطيعين جعل الإنسان يسافر لحدث ما فقط بمجرد كتابته، طبعا إن توفر كلٌ من الأسلوب الصحيح والطريقة المثلى لذلك .

- هل تقصد بذلك أن الرسم غير كافٍ لتوثيق كل هذا !

- يكون ناقصا، ربما،هذا ما أظنه .

- لا أظنك على حق، ربما أنت محق فيما يتعلق بسرد التفاصيل والأحاسيس لكنك مخطئ في حق الرسم، تظن أن الحرب شيء أكبر من أن يُرسم أليس كذلك ! لكنك لا تعلم أنك تختصر على نفسك آلاف الحروف بمجرد رسمة واحدة فقط بالإضافة إلى أن الرسم سيخلق الكثير من وجهات النظر المختلفة ..ينير عقلك يُحيل بك الى التعمق مَليًا في المعنى وهذا بالضبط ما يؤدي إلى فلسفة النقد، ثم أكملت ساخرة :

- فكيف برأيك ولدت الفلسفة والنقد، تأتي الصور قبل الكلمات..حقيقة حتمية أراهنك على ذلك .

لكنه لم يحاول معاكستها في رأيها بل كان يصغي إليها وحسب، ربما لأنها إستطاعت إقناعه وإستحقت أكثر من كلمة لا بأس به أو ربما قد أُعجب بطريقة تفكيرها و ثقتها بأنها على حق، أردف ضاحكا :

- للحظة ظننتك طالبة فلسفة ..أنتِ بارعة في المناقشة..

إبتسمت : - طالبة تاريخ ..

- تمزحين!! وأنا أيضا، بالمناسبة أدعى أمجد.

إبتسمت: - وأنا ياسمين، تشرفت بمعرفتك .

- الشرف لي .

لحظات صمت سادت الجو فيما بينهما بعد لحظة التعارف..هي تسند خدها بيدها وتتأمل الجو خارج تلك النافذة. تفكر، حال البلاد يشغل بالها، بدأ الوضع يزداد سوءا وهي تمقت ذلك. لطالما كرهت السياسة والثرثرة عنها لكن والدها لا يكاد يتوقف عن ذلك يشاهد الأخبار مليون مرة في اليوم وما إن يجلس و أخيها سويا حتى يتجادلا عن كل ما يخص السياسة، وكلاهما يحاول إقناع الآخر بوجهة نظره لكنها دوما ما تحاول تجاهل ذلك ..تظن أنها لو امتنعت عن الحديث عن هكذا موضوع لن يسوء الأمر،مجرد نوع من المواساة لكنها تعرف جيدا أن ذلك لن يغير شيئا ما دام الجزء الأكبر من الشعب متطرفا، ستكون النهاية مجهولة ومأسوية ...و كلمة مأسوية هي أكثر ما تخشاه ...

- أ تحبين المطر!

اِنتشلها سؤاله من نهر أفكارها،أشاحت بنظرها إليه :- أجل، أحبه .

وعادت بنفسها لما كانت عليه، بينما هو راح يخمن ؛" سؤال سخيف". ربما كان عليه أن يخلق موضوعا آخر ليتناقشا فيه لكنه اختار المطر، ما الذي يستطيع قوله عن شيء كهذا..ربما ظن أنها ستسأله بالمقابل عما إذا كان هو الآخر يحب المطر أم لا لكنها لم تفعل بل أجابت قدر السؤال وحسب ثم عادت لشرودها مجددا.. فجأة يريد أن يقتحم أفكارها ليرى ما الذي يشغل بالها الآن لعله يناقشها فيه لكن لما هو مصمم لهذه الدرجة،لأول مرة يراها ولأول مرة يتكلم معها فما الذي يجعله مستاءا هكذا لأنه لم يجذب انتباهها. حسم الأمر،.سيسألها عن سبب شرودها لربما ينجح هذه المرة في خلق حديث.

أطرف : فيما أنتِ شاردة هكذا ؟

وكأنه أيقضها من غفوة عقلها،

- ماذا ؟ سألت بتردد .

أعاد صياغة السؤال :

- ما الذي يشغل بالك ؟

أجابت :

- في الحقيقة لا أحب التحدث عن ذلك .

اِعتذر فورا ..ظن أنه ليس من شأنه أن يسأل..لكنها علمت من ردة فعله انه أخطأ الفهم. فقالت بتوضيح أكثر:

- لم أكن أقصد ذلك، وإنما ما يشغل تفكيري هو أوضاع البلاد،هذه الحرب الأهلية اللعينة ..لكنني أكره الحديث عنها ..أتكلم عنها في سري فقط .

- لما تكرهين ذلك ؟

- لا أعلم، ربما لأنني أخاف،أحاول إقناع نفسي أن كل شيء سيكون بخير لكنني أتجاهل الجزء الأسوأ.. كأنني أعلم مسبقا أن هذا لن ينتهي على خير لكني فقط أحاول تجاهل الأمر ..ربما لأنني لا أريده أن يكون حقيقة ..

- مما تخافين ؟ هل من الموت ؟

- لا أدري، من كل شيء..أتعلم ما تعني الحرب! تعني الخسارة،الفقدان، الموت،ضحايا،براءة تُهدّم، لن يكون هناك سلام مادام هناك حرب .

أضاف :

- معك حق، لكن من منهما يأتي أولا برأيك، هل الحرب أم السلام؟

يبدو أنه ظفر وأخيرا بموضوع جيد .

أجابت :

- السلام طبعا.

سألها :

- أمتأكدة؟

- أجل..

- لكن لماذا ؟

أجابت :

- ألا ترى أننا كنا نعيش في سلام قبل الآن،قبل سنتين من الآن، لم يكن هناك ما يدعى بالأزمة السورية أو إسقاط الحكم، كنا في سلام لكن انظر إلى أين نحن الآن،في الحرب،.

لم يبدو عليه أنه قد اقتنع بإجابتها،إستطرد قائلا :

- معك حق،كنا نعيش في سلام، لكن جوابك بغاية السطحية،كما أنه لم يكن عليك التعمق أكثر..

سألت غير مستوعبة : - لم أفهم !

- حسنا، قلتِ لي قبل قليل أن الفلسفة وليدة الصور،هل تقولين لي الآن أن الحرب وليد السلام ؟ هز بكتفيه في رفض تام، لا أظن ذلك،لا تأخذي مثالا واحدا على أنه الإجابة للأطروحة كلها..

إستطردت :

- إشرح لي أكثر...

- هما مترابطان بشكل ما أولا، لا يمكن أن يكون هناك سلام بدون حرب، بغض النظر عما تخلفه الحرب..

قاطعته :

- لكن سيكون هناك فائز و خاسر..

أجاب :

- أجل...لكن سيكون هناك شيء مشترك يربحه كلا الطرفين .. السلام،لن يعيشوا مزيدا من الخلافات أو النزاعات، سينشغل كلاهما بترميم خسارتهما وفي الوقت نفسه يحصل التراضي،أي أن كلاهما سيرضى بما ألت إليه الحرب كون ذلك حدث بسببهما،ثم يأتي برهانكِ كسببٍ ثانٍ . باختصار ..الحرب والسلام لا يمكن الفصل بينهما.. كلاهما يكَمّلان بعضهما

أومأت برأسها إيجابا :

- أي أنها علاقة تكامل، إن لم يحدث الأول لن يحدث الآخر والعكس صحيح ..

- أصبتِ، إنها علاقة تكاملية . لاحظ أنها تبتسم دون أن تنظر إليه، أطرف :

- ماذا ؟ هل هناك شيء يدعو للإبتسام ؟

- لا شيء فقط يبدو وكأننا نتسابق هنا ..

ضحك هو الآخر وقال :

- إذًا أظن أننا متعادلين إلى غاية الآن .

- أجل، انتهت المباراة والنتيجة تعادل .

همّت بالقيام من على الكرسيّ، سألها:

- إلى أين أنت ذاهبة ؟

ردّت :

- إلى البيت .

سأل :

- أليس لديك محاضرة هذا المساء ؟

أجابت :

- لا، الأستاذ غائب... بالمناسبة هل نحن زملاء ! أقصد في نفس الفئة..لأنني لم أرك من قبل .

إبتسم :

- لا، أنا من الفئة الثانية وأنت؟ ..

- من الفئة الثالثة . حسنا إذن. تشرفت بلقائك يا أمجد والآن يجب عليّ الذهاب، إلى اللقاء .

- وأنا أيضا سأغادر . قال في تردد : لنمشي سويا إلى مخرج الجامعة إذا أردتي.

إبتسمت :

- حسنا، لا بأس بذلك.

في تلك الأثناء كان الطلاب قد خطوا نحو مسارهم من التظاهر،لافتات تندد برحيل النظام، وأخرى بإسم الحرية، علم الوطن يرفرف في يد كل شخص منهم،تعالت الأصوات واتحدت المطالب وامتلأت الجامعة بأكملها بأصوات النخبة،قاطع ذلك الحدث صمتهما المفرط وأخذ كلاهما يسرعان خارج الكلية ليروا مصدر تلك الأصوات وفي طريقهما للخارج كان هناك شخص يركض باتجاههما توقف أمامهما وأخذ يلتقط أنفاسه بصعوبة.سأله أمجد : - ما الذي يحدث هناك يا سامي ؟

- التظاهر الطلابي مجددا.. كنتُ أبحث عنك حتى تأتي معنا..أين كنت ؟ ثم نظر باتجاه ياسمين مستغربا.

لاحظ أمجد نظراته المريبة تلك، فأطرف حتى لا يفهم بشكل خاطئ :

- لم تتعرفا..سامي هذه ياسمين زميله لي، ندرس نفس التخصص، تعرفت إليها قبل قليل ..

- مرحبا ياسمين تشرفت بمعرفتك ..

أجابته :

- وأنا أيضا ..

ثم سألهما:

- إذن هل ستأتيان؟

أجاب أمجد:

- بالطبع سآتي..متى فوّتُ لي حدثًا كهذا..

أردفت هي :

- حسنا إذن بالتوفيق لكما أما أنا سأغادر الآن.

إستطرد سامي :

- ألا تودين المشاركة ! يوجد طالبات في الخارج .لا تقلقي لن تكوني الوحيدة ...

أجابته في هدوء مبتسمة:

- لا .شكرا على الدعوة لكني أُفضِّل الذهاب للبيت ..أنتما قوما بذلك..

أردف أمجد:

- ربما سيكون ذلك أفضل لك ... هيا لأوصلك إذن، ثم أومأ لصديقه بأن يذهب ..

- حسنا إذن سأوافيك عند المدخل يا أمجد.
- حسنا ذلك جيد.
- قالت في تردد :
- لا داعي لذلك سأذهب لوحدي، أنت إذهب مع صديقك .

أردف :

- لكن..

قاطعته فورا :

- حقا لا داعي لذلك.. ابتسمت له وودعته ثم رحلت.

لاحت على وجهه علامات حيرة.. هل كان ساذجا يا ترى حين طلب منها ذلك..علاوة على ذلك لما أراد أن يوصلها، ربما كانت مجرد حجة إختلقها عقله حتى يحظى بحديث آخر معها ..لكن لا بأس لقد غادرت الآن..سيفكر في هذا لاحقا، أما الآن فعليه أن يلتحق بمجموعة الطلبة خارجا...

غادرا سويا بعدها وذهبت ياسمين بمفردها،بدت له متخوفة من أمر المظاهرات لذلك لم يشأ الضغط عليها أكثر،كانت هذه المرة الأولى التي يراها بها.

فكّر؛"تبدو شخصا هادئا أكثر من اللزوم،لكن أظن أنها تستحق العناء.. "

قطع صوت سامي أفكاره قائلا بينما يمشيان في الرواق:

- لدينا عرض رائع..أتعلم..!

قال متسائلا:

- أي عرض هذا الذي تتحدث عنه..!

أجاب بحزم:

- هناك منظمة معارضة للنظام ..

نظر إليه ثم أطرف:

- وماذا في ذلك..!.

أجابه:

- ما الذي تقصده بماذا في ذلك..! إنها من أكبر الأحزاب المعارضة في البلاد، ألا تريد الإنضمام..!

قال متسائلا:

- هل أنت واثق من الأمر، آخر مرة انضممنا فيها لإحدى المنظمات،تمت مداهمتنا و أُخِذنا إلى السجن..

قال نافيا:

- هذه المرة ليست كالمرات السابقات،إنها آمنة،لقد تحققت من الأمر. كما أنني حدثتهم عنك واريتهم بعضا من مقالاتك وقد أعجبوا بذلك..

إقتربوا من الزحام بعد أن خرجوا إلى أحد الممرات. ألوف من الطلاب،فتيان وفتيات يسيرون محتشدين..

قال :

- إذن أنت تقول لندخل بالأمر..!

صاح في حماس وقد علت أصوات المتظاهرين وهتافاتهم:

- إنها "نعم" كبيرة مني، ماذا عنك يا صديقي..!

إبتسم وقد نظر إلى الحشد وقال بصوت عالٍ:

- ومتى خالفتك يا صديقي..!

ثم إنطلق كلاهما وسط الحشد وأخذوا يهتفون معهم في حماس كبير،كان جميع الطلاب يتحركون في مجموعات مشكلين صفوفا عريضة،أصواتهم تصدح بالوطن وهتافاتهم تعم الجامعة بأكملها..

ما كان ذلك؟ ربما شيء جديد غير ذلك الروتين اليومي الذي كانت تعيشه كل يوم، لم تعرف ما إن كان يجب عليها أن تكون بمزاج جيد أم أنه سيتعكر كما كل مرة لحظة وصولها البيت، ربما ستقضي وقتها بالتفكير ولو قليلا فيما قد حدث قبل قليل، لم يَشُدها شيء سوى إعجابها بذلك الحوار الذي دار بينهما،فكرت : راقني كيف أنه يخلق المشكلة هكذا من الظاهرة، أهو كذلك بطبعه أم أنه فقط جزء من التباهي ؟ لم يبدو كشخص مغرور ولا حتى بمتكبر لكنه يمتلك كلاهما. هو فقط يخفي ذلك بطريقة جيدة، كان الأمر مُحَمِّسا بالنسبة لها كونها وأخيرا فتحت نقاشا مع شخص آخر غير أمها وأختها، هل كان يجدر بها أن تبتسم لذلك، ربما أحبت فكرة أن يكون لديها أصدقاء كونها لم تفلح أبدا في تكوين ذلك، في الحقيقة كل ما كانته كان نفسها وحسب،لم تهتم كثيرا بغير ذلك. لطالما كانت لديها تلك العادة الغريبة بأن تكون نفسها طوال الوقت لهذا لم تكن محطّ أنظار الجميع ....

وصلت البيت أخيرا..أحست ولأول مرة أن الطريق كان قصيرا، ربما لأنها إلتهت بالتفكير طوال الوقت...

الساعة الثانية مساءا ..دقة واحدة على جرس البيت كما في كل مرة ..ليفتح أخوها لها وهو في منتصف نقاش سياسي مع والده..كانت قد إنتشلته منه ..لم يأبه حتى بدخولها..فقط قام بفتح الباب ثم عاد بسرعة للصالون لإكمال حديثه السياسي.. تجاوزت أخاها ووالدها مباشرة لغرفتها تضع أشياءها ثم سرعان ما نادت عليها والدتها حتى تغسل يديها وتأتي لتناول الطعام..

- مساء الخير أمي ..بعدما طبعت قبلة على خدها..

- مساء النور يا عزيزتي..رفقة ابتسامة دافئة كالعادة.. هيا اجلسي وتناولي غداءك، لقد أعددت الطبق الذي تحبينه..

جلستا كلاهما على الطاولة.. بعدما قامت بغسل يديها، ثم راحت تأكل طعامها بنهم ....ثم إستطردت في استهزاء:

- ألا يَمَلَّان من نفس الحديث كل يوم..

ضحكت :

- على حالهما ..كما تعلمين . لم يتوقفا عن ذلك منذ الغداء..

سألت في تردد:

- هل من جديد ..حول الوطن يعني؟

أجابت والدتها.. لا شيء يُذكر.. فقط التظاهرات الطلابية وقمع الأمن لهم كما تعلمين.. رأينا في الأخبار أن طلاب جامعة دمشق أقاموا مسيرة طلابية اليوم ...مجددا.

قالت في استياء بعدما تناولت لقمة أخرى من الطعام... والطلاب في جامعتي أقاموا مسيرة أيضا ..آمل أن لا تكون هناك إصابات أو معتقلين ...

ردّت أمّها :

- هذا أسوأ ما في الأمر..سيكون الأمر كما كل مرة.. إعتقالات و مصابين ... ذعر الأهل لا ينتهي الأحوال تتدهور يوما بعد يوم ... بدت على ياسمين نظرات خوف واستياء ..لاحظت أمّها ذلك فغيرت مسار الحديث .

سألتها :

- ألم يكن لديك محاضرات هذا اليوم إذن ؟

- "بلى.. الحصص الصباحية فقط..ثم بعدها لم أدرس فقد كان الأستاذ غائبا..أكملت تلك الرسمة التي كنت أعمل عليها منذ وقت، ثم غادرت." قالت باختصار قصد تجنب التفكير مجددا في ما قد حدث .

أطرفت أمّها بنبرة مشجعة:

- أنهيتها إذن ! ذلك جيد .. متاكدة أنها جميلة وذات مغزى كاللوحات التي رسمتها قبلا..

- وما الجيد في ذلك غير أني سأضمها لباقي اللوحات فقط ..غمغمت في استياء : سوف يهترئون

– لا تقولي ذلك يا إبنتي..يوما ما سيكون لك معرضك الخاص..لا تعبسي هكذا.. فقط تحلّي بالصبر.. أنت تعلمين أن والدك جل اهتماماته هو السياسة وأوضاع الوطن .. لتمر هذه الأزمة على خير ثم لكل حادث حديث..

ابتسمت وقد أنهت كل ما بطبقها من أكل.. وقالت :

- إن شاء الله..سيكون كل شيء على ما يرام..

- حسنا إذن يا صغيرتي.. سأذهب لأنام قليلا، ثم همّت بالمغادرة من المطبخ.

بينما قامت هي بلملمة الطاولة..ثم راحت تفكر بينما تغسل صحنها.. أحقا سيكون لي معرضي الخاص يوما ما !

تمتمت في تفاءل :

- لا شك في ذلك ..فحتما لن تضيع كل تلك الرسمات سدًى..

فجأة إقتحم تفكيرها هو، حتما في المظاهرات الآن..ستحدث إشتباكات الآن بينهم وبين الأمن..

فكرت بصوت عالٍ :

- يا إلهي هل سيكونون بخير! تقصد بذلك أمجد وصديقه ..

لا شك في أنهم سيكونون على ما يرام فقد بدا لها من حديثهم ذاك أنهم متعودين على المشاركة في تلك التظاهرات..

وبّخت نفسها قائلة :

- ولماذا عساني أهتم بذلك.. خمنت :

- فليكن.. هم أيضا مواطنين مثلي يريدون السلام فقط..آمل أن يكون الكل بخير.. هذا كل ما يهم...

***

بالكلية... " بالكلية طلعنا بالكلية.. سلمية ودولة مدنية..صرخنا بالعالي يا حرية..."

كانت مظاهرات الطلبة الجامعيين بمثابة قوة دافعة للاحتجاجات بسوريا ....

ذُكر في إحدى الصحف الإلكترونية تحت اسم دنيا الوطن.. انه بالرغم من محاولات النظام السوري البائسة في محاصرة وقمع الحراك الاحتجاجي داخل الجامعات ..إلا أن ذلك لم يمنع الطلاب من خروجهم في مظاهرات عدّة، سواء كان ذلك في الجامعات الحكومية أو بالجامعات الخاصة .. ولم يتوان طلاب جامعات دمشق وحلب و حمص عن الخروج في التظاهرات التي عمت معظم المدن السورية منذ 15 مارس /آذار الماضي.

التقت "العربية نت" بعضا من الطلاب الذين كانوا جزءا من تلك التظاهرات الطلابية، حيث أن احد طلبة قسم اللغة الانجليزية الذي كان شاهد عيان على غزو /اجتياح مليشيات الشبيحة والأمن للمدينة الجامعية بدمشق، قد أكد أن انطلاقة الثورة السورية قد شد معظم الطلبة، وذلك لأن النخبة الجامعية تعتبر أكثر طرف متضرر من فساد النظام، لا سيما أنه يعاني منذ سنوات من سياسة الإقصاء والحرمان من الحصول على الوظائف، لذا كانت هذه الانتفاضة بمثابة فرصة للتخلص من رواسب الظلم والفساد. كما أنه قد أوضح بأن الطلبة في

بداية الانتفاضة لم يكونوا آبهين بطغيان أجهزة الأمن والشرطة علاوة على ذلك تم تنظيم عدة تظاهرات ليلية في المدينة الجامعية بدمشق بشكل يومي تندد بوحشية النظام ضد إخوانهم في سوريا، ورافق ذلك تغطية إعلامية مقبولة أكدت خروج الطلبة في وسط العاصمة دمشق، لكن رد النظام جاء وحشيا كالمعتاد، حيث قام بتجنيد الطلاب الموالين له من جماعة اتحاد الطلبة، وبمساندة من عناصر الأمن والشبيحة اقتحموا حرمة السكن الجامعي بشكل عشوائي بحثا عن الطلبة الذين يشاركون في المظاهرات الليلة بالمدينة". وأضاف بأن عملية اقتحام المدينة قد تزامنت مع قطع التيار الكهربائي، ومن ثم إطلاق النار عشوائياً، وبعدها تم الدخول إلى الغرف وتحطيم الأبواب واعتقال مئات من الطلبة، فضلاً عن تعمدهم سرقة الكثير من المعدات والأغراض وتهشيم الكمبيوترات المحمولة ومصادرة الأجهزة الخلوية، بالإضافة إلى الضرب المبرح دون رحمة وشفقة وبشكل منهجي بحق الطلاب، وعلى إثر هذه الحادثة فقدت مجموعة كبيرة من الطلاب حقوقها في التمتع بالسكن الجامعي، ومنذ ذلك الحين تملك الرعب والخوف قلوب الطلبة نتيجة الحصار الخانق المفروض عليهم من قبل اتحاد الطلبة وأجهزة الأمن" و قد وصل الأمر إلى تأليف الطلبة عددا من الأغاني تتناول الوضع العام في البلد، وخاصة حالة مقاومة ظاهرة الشبيحة، وبمبادرات فردية نظمتها مجموعة أطلقت على نفسها اسم (أيام الحرية)، ظهرت أغنية ثورية خاصة بطلاب الجامعات بعنوان «بالكلية» تقول كلماتها: «بالكلية طلعنا بالكلية.. سلمية ودولة مدنية.. صرخنا بالعالي يا حرية». ثم تتحدث الأغنية بداية عن توصيف رد فعل الموالين للنظام من الشبيحة و الرافضين لسياسة التظاهرات الذين يتخلفون عن المحاضرات ليصبح شغلهم الشاغل مراقبة أي تحركات طلابية معارضة، وتضيف الأغنية التي تغنيها فتاة :"«كنا خمسة ستة عم نهتف.. لحشوا كاس المتّة وهجموا ألوف.. وعينك ما بتشوف إلا سفق كفوف.. فرمونا الشبيحة عالطبلية». لكن الاغنية لا تقف عند الشكوى فقط، بل تنتقل إلى تحدي الشبيحة في الجامعات عندما تقول «والعالم بالصوت ما منهاب الموت.. رح يخلص زمن العبودية». "

وفي هذا الصدد صرّح احد الطلبة المتظاهرين والذي تم القبض عليه ومن ثم أُفرج عنه بعد كتابة التعهد الخاص بعدم التظاهر مرة ثانية،بأن "الانتفاضة السورية ليست محصورة بشريحة معينة في سوريا كما يدعي البعض بل جذبت منذ انطلاقتها معظم الطبقات الاجتماعية وعلى رأسهم الطلبة الجامعية، لا سيما بأن الطلاب لديهم قناعة راسخة أن الثورة لا يمكن أن ترسم ملامحها بشكل حقيقي ما لم يضع الطلبة بصمته عليها، ومن هذا المنطلق كان لا بد من الخروج ببعض التظاهرات للتنديد بالنظام والتبيان له بأن الطلبة الجامعية يساندون الانتفاضة ويطالبون بالتغيير الديمقراطي ويرفضون بشدة سقوط الضحايا اليومية على أيدي قوات الأمن والشبيحة في مدن سورية".

وأضاف بحسرة شديدة بأن المؤسف في الأمر انه قد تم انتهاك قدسية الحرم الجامعي تحت أقدام عصابات مجرمة لا تعي ولو مثقال ذرة قيمة العلم والحرم الجامعي ليصل بهم الأمر إلى استخدام الذخيرة الحية في تفريق الطلبة المتظاهرين، بل وبعد اعتقال العشرات من الطلاب حاولت الأجهزة الأمنية الضغط على رئاسة جامعة دمشق فأصدرت مجموعة من القرارات المجحفة التي تتضمن فصل عشرات الطلاب الذين شاركوا في التظاهرات، وأحالت آخرين إلى 'لجنة الانضباط ومنع تجمع الطلبة بالذرائع الواهية".

كما أنه بعد اتخاذ هذه الإجراءات وانتشار ظاهرة التجسس على أيدي ما يسمى باتحاد الطلبة،أدرك الطلاب مدى خطورة الدوام في الجامعة وخاصة أن النظام استنفر كل قواه وجبروته لكبت أنفاس الطلبة وتحويل الجامعة إلى ثكنة عسكرية وأمنية تتجول فيها الشبيحة والطلبة الموالية لمراقبة كل شاردة وواردة والتحرش بكل شخص دون توفير أدنى أسباب واضحة حيث وصلنا إلى حد نحسب ألف حساب قبل أن نخطو أي خطوة لأن الشبيحة لنا بالمرصاد، والأسوأ من كل ذلك أصبح اللقاء مع مجموعة من الأصدقاء تسوقه الاتهام بالتحريض على التظاهرات"..

فيما تروي طالبة في السنة الثانية بكلية الاقتصاد إحدى القصص حول اعتصام طلاب كلية الطب وكيفية تعامل أجهزة الأمن معهم، حيث قالت "بأن الاعتصام انطلق بشكل حضاري وسلمي مطالبين بالإفراج عن زملائهم المعتقلين حيث كان عدد المعتصمين حوالي مائة شخص ولكن ما هي إلا دقائق معدودة حتى

قامت مجموعة من حوالي مائتي شخص يرتدون الزي المدني ويحملون السلاح بتطويق الاعتصام بشكل وحشي واعتقال الطلاب ومصادرة جميع الأجهزة الهاتفية من أيدي الطلبة أمام أعين الجميع في منتصف الكلية، وحين تدخل أحد الدكاترة هجموا عليه وأهانوه أمام طلابه وهددوا باعتقاله ما لم يلزم الصمت"

وقد أكد احد المقيمين في السكن الجامعي بمدينة حلب، "أن السبب الرئيسي الذي أدى إلى قلة وتيرة مشاركة الطلبة بالتظاهرات هو انتشار كثيف لأجهزة الأمن والشبيحة وطلاب إتحاد الطلبة الذي يفوق عددهم في بعض الأحيان عدد طلاب الجامعة، هذا عدا عن أن الجامعة لديها وضع خاص حيث تقع في وسط المدينة سواء بدمشق وحلب وباقي مدن سورية الأخرى فضلاً عن إحاطة الجامعة بأسوار ضيقة ينعدم فيها فرصة الهرب أو التحرك والاختفاء عن أعين الشبيحة لدى قيامهم بالتظاهرات، وبناء عليه فإنه ينتظرهم مصير مؤكد من الاعتقال والضرب المبرح وربما التعرض إلى القتل كما جرى في السكن الجامعي بمدينة حمص ..... وأضاف بأن السبب وراء امتناع بعض الطلبة من الخروج في المظاهرات هو أن معظم الذين يرتدون الجامعة في هذه الفترة هم من الأغلبية الصامتة والمترددة حيث يعتري رؤيتهم ضبابية واضحة حول مفاهيم الثورة ربما ينتظرون فرصة مناسبة للتعبير عن آرائهم، و أن بعض الطلاب يراقبون مشهد المظاهرات عن بعد دون التدخل أو المشاركة، أما الذين خرجوا في المظاهرات بجامعة دمشق وحمص وحلب فإن معظمهم قاطعوا الجامعة وعادوا إلى مناطقهم للمشاركة في الحراك الجماهيري. وأكد طالب آخر في كلية الحقوق بجامعة "حمص" بأن تشديد النظام لقبضته الأمنية على قداسة الحرم الجامعي وإقدامه على اعتقال وقتل الطلبة لن يمنعه من السقوط والانهيار، وذلك لأن الشباب ابتكروا طرق جديدة للتعبير عن سخطهم وصمودهم أمام همجية النظام من خلال مقاطعتهم الجامعة وانخراطهم بشكل ميداني مع كافة شرائح المجتمع بالخروج في التظاهرات خارج أسوار الجامعة، حتى أن البعض منهم قاموا بتأسيس صفحة على مواقع التواصل الاجتماعي بعنوان" إنتفاضة الطلبة الجامعية" والغرض منه كان كسر جدار الصمت والخوف بقلوب زملائهم المترددين و بأنه لا يمكن إخماد صوت الشبيبة الحرة التي تتوق إلى الحرية والكرامة.

"الشبيحة" : و مصطلح دارج في سوريا. كان في البداية يُطلق على العصابات والأفراد الخارجة عن القانون والتي كانت تستخدم العنف والتهديد بالسلاح لخدمة شخص نافذ وذلك من أجل ابتزاز وإرهاب الناس وممارسة نشاطاتهم خارج إطار القانون كالتهريب والتجارة بالممنوعات. والعمل الذي يقومون به يدعى" التشبيح "أي(الابتزاز والسرقة عن طريق العنف والتهديد بالسلاح). ثم توسع مدلول هذه الكلمة بعد اندلاع الثورة السورية عام 2011 م حتى أصبح يطلق على الأفراد أو الميليشيات الداعمة للنظام .

الميليشيات : الميليشيا أو التنظيم المسلح أو الجماعة المسلحة، جيش تشكله عادة قوات غير نظامية من مواطنين، يعملون عادة بأسلوب حرب العصابات، بعكس مقاتلي الجيوش النظامية الجنود المحترفين. مع بدايات القرن العشرين، ظهرت ميليشيات يمكن اعتبار أعضائها مقاتلين محترفين مع بقاء حالتهم كـ"مقاتلين وقت جزئي" أو "عند الطلب". ويمكن أن تكون في عدة إطارات، مثلا: قوات تابعة للجيش النظامي، منظمات مسلحة تابعة لأحزاب أو حركات سياسية. قوات دفاعية يقع تشكيلها من طرف سلطات أو مواطني منطقة سكنية أو جغرافية محددة في إطار جهوي أو ديني وقد تكون مدعومة أو معاقبة من السلطات.

"نادرا ما يكون الوطن ظالما والشعب مظلوم لكن أحيانا كثيرة ما يكون النظام مسؤولا عن قتل روح الوطنية" ...

من الاستحالة أن لا ينبض القلب لشيء يدعى الوطن،ربما ينتابنا قليل من الاستياء لأن الأمور تسير بشكل عكسي، يجعلنا ذلك نشعر وكأن الوطن عبء على كاهلنا لكن في الواقع العبء الحقيقي يكمن في ما نعيشه داخل أوطاننا.. ما نختبره كل يوم..ولأننا بتنا نجهل من المسؤول عن كذا حمل، نحمّل الوطن المسؤولية ..فلطالما تكلمنا عنه بصيغة إنسان.. بصيغة مسؤول.. بصيغة الظالم والمخطئ...نحن فقط أجبن من أن نبحث عن الحقيقة، نتقبل تلك الكذبة، ننعتها بالحقيقة، وأحيانا بالواقع ..رغم أننا نعلم حق المعرفة أنها مجرد كذبة..لم يخترعها أحد غيرنا..فقط أردنا إشباع عقولنا بها حتى لا نتكبد عناء التفكير بما يفوق الوعي، التفكير في أن المسؤول الحقيقي عن كل ذلك قد يكون شخصا نظنه يفعل المستحيل لأجل إرضائنا .. هذا ما يدعيه، تسنح له الفرصة في إلقاء ما يبرع فيه

من كذبات.. من دعايات مزيفة..يدعي الحنكة، حب الوطن ... والأسوأ مصلحة الشعب، في حين أن كل ما نجنيه من وراءه يكون مجرد جرعات متتالية من الخيبة فقط،غير أن لو راح كل شخص منا يفكر في مدى مصداقية كلامه لا يجد شيئا غير أن يمنحه صوته حتى يرى خطاباته واقعا، لكن بدون جدوى، فمنح الأصوات أو عدمها لا يقتصر على اختياراتنا نحن وإنما على النظام نفسه،يرشِّح المخادع الأكبر، الخائن لشعبه، الذي استغنى عن وطنيته وتنكَّر في زي المنقذ .يسخِّر له مجموعة من الوعود المزيفة التي يعهد بالعمل بها في حال تم انتخابه، تكون هذه الوعود مغرية لدرجة خلق جانب التطرف بين المواطنين حيث لأن البعض يؤمن بمستقبل مشرق، يصدق تلك الوعود فيتراءى له أن الحل الأسمى يكون بتسليم ذلك الشخص الوطن وأنه قد آن الأوان لفتح صفحة جديدة وأن الخير عساه يكون بين يديه فيما يشكك البعض الآخر في مصداقية كلامه لأنه لم يظهر من العامة بل كان وليد النظام وهذا بحد ذاته كفيل بجعله كاذبا بأعين الآخرين، في الحقيقة حتى لو كان آتيا من العامة،لن يُصدّق وسيُهمّش لأنه في نظرهم شخص غير سياسي وعديم خبرة، لكونه ظهر لأول مرة للعلن، انه تناقض وغير منطقي، تناقض الشعب في أفكاره،لأن الشعب دوما ما يدعي العقلانية، لكن تناقض الفكر هذا والعقلانية المزيفة جلب الصداع للوطن، بطريقة ما أحيانا نكون مسؤولين عن حجم الخراب الذي يحّل بنا بأسلوب التطرف هذا ونكون قد خطونا لما هو أسوأ، بينما الأطراف الباقية من الشعب لا تعرف ما إن يجب الوثوق به أو لا،بإختصار،هذه المجموعة لا تملك وجهة نظر محددة بل فقط تنساق لمن تراه الرابح الأكبر لكن لطالما كان النظام هو الرابح الوحيد، فبعد كل هذا يختار الشعب ذلك المخادع دون دراية منه انه كذلك،وهو بالأصل كان مختارا من طرف النظام وما تلك الإنتخابات إلا شكليات توثّق أن للشعب رأي في تحديد مصير وطنه وأن الشعب هو المسؤول عن إختيار حاكمه وأنه بذلك يكون مسؤولا عن العواقب التي تنتج عن كذا إختيار، وبهذا يكون النظام قد إنسلّ من القضية بأكملها وحطّ الشعب بموضع المسؤول.

في مساء ذلك اليوم،بينما الكل منهمك بشؤونه، الأب في الصالة يتابع الأخبار الإبن في غرفته، و الأم والبنتان منشغلتان بتحضير عشاء الليلة، تعالت طرقات على باب البيت ثم علا صوت من بالخارج بشكل غريب "افتحوا الباب " حيّر ذلك كل من بالمنزل، تقدم الأب بخطوات متسارعة نحو الباب، حيرته تسبقه، فتح الباب ليتفاجأ بمجموعة من الرجال في زي الشرطة، تعلوهم نظرات مليئة بالحقد، أطرف في قلق.. نعم،كيف لي أن أخدمكم؟

سأل الضابط في عجل ..هل هذا هو بيت مراد حمداوي؟

- أجل انه كذلك، قاطع مراد والده بسرعة .. نعم هذا أنا كيف لي أن أساعدكم؟

أجاب الضابط:

- لدينا مذكرة من أجل تفتيش البيت، ثم أشار لرجاله كي يدخلوا البيت .

أطرف مراد في غضب :

- أي تفتيش هذا ؟بعد ما حاول إيقاف رجال الشرطة من الدخول للمنزل لكن أبعدوه ووالده واقتحموا البيت عنوة، أخذ الرجال في تفتيش المنزل غرفة بغرفة قلبوا المكان رأسا على عقب، تجمد الدم في عروق الجميع وكان مراد أكثرهم رعبا دلفوا أخيرا إلى غرفته و ما هي إلا لحظات حتى خرج أحدهم وقال :

- سيدي، وجدنا بعضا من المناشير التي تدعو إلى عصيان النظام، كل ما فيها متعلق بمعارضة حزب البعث .

أردف الضابط: تماما كما توقعت، خذوه.

- مهلا، لا يمكنك أن تأخذه هكذا، ما أدراك بأن هذه المناشير له؟

- اسأله إن أردت، هيا يا سيد مراد أجب عن سؤال والدك. نكس مراد رأسه ونظر لوالده بعيون كلها ضعف.. كان ذلك بمثابة ألف نعم تغنيه عن الإجابة حقا، أخذه رجال الشرطة بعد ما كان للأب حيلة بالأمر.. صمت رهيب ساد المكان لدقائق، الجميع في حالة صدمة. أيعقل حدوث أمر كهذا لهم، كيف إستطاع مراد أن يخفي هذا عليهم، بالرغم من أن ميوله السياسية ومعارضته للنظام كانا واضحين بشدة إلا أنه لم يخطر ببالهم أن يكون صاحب هكذا فعل، بهت الجميع ولم يتجرأ أيُ منهم بالحديث حتى، حتى كسرت زهرة هذا السكون، سألت في إستياء:

- ماذا الآن؟ هل سيقومون بسجنه؟

أطرف الأب:

- سألحق بهم بعد أن أخذ مفاتيح سيارته وغادر، أردفت ياسمين: - زهرة اعتني بأمي، سأذهب معه .

كانت الأم في حالة ذهول لم تقل شيئا، بالأصل عيونها باحت بكل شيء.. لحقت ياسمين بوالدها إلى خارج المنزل وقبل أن يركب سيارته قالت بصوت عالٍ ..أنا آتية معك،حدّق فيها لوهلة، ظنت انه لن يدعها تذهب معه لكنه أومأ برأسه أي علامة الموافقة، فأسرعت لركوب السيارة و إنطلقوا نحو مركز الشرطة.

لو كان الوقت بيدها لكانت دخلت للغرفة قبلهم وأخفت جيدا كل ما هو موجود من أوراق حتى لا ينكشف أمر أخيها ..لكنه بيدهم الآن ولا حيلة له ..يبدو أن لعنة النظام قد حلت عليهم ..

- كيف له أن يفعل ذلك؟ وجزء من التنظيم أيضا..أطرف السيد احمد بصوت غاضب...

سالت في امتعاض:

- هل سيكون الأمر سيئا...ألن نستطيع إنقاذه؟
- لست أدري.. ربما سيعتقلونه الآن
- هل تظن أنهم سيحققون معه؟
- لا أظن ..هم فقط يسعون لسجن كل من له يد بالتحريض ضد النظام..
- حر بي أن أتركه هناك يسجن حتى يتعلم الدرس.. ما كان يجب عليه فعل شيء كهذا ..أخبرته مرارا أن يبقى بعيدا عن وسطهم، لكن عبثا. عنيد بطبعه.. لهذا كان يغيب إذن عن الشركة في الآونة الأخيرة..ليتفضل الآن وليحل مشكلته بنفسه...
- اهدأ يا أبي..ستحل المشكلة قالت قصد التخفيف من غضب أبيها ..في الحقيقة هي لا تعرف ما إن كانت ستحل أم لا ..لربما حقا سيتم سجنه كبقية المعتقلين ..لا تعرف ما إن كانت ستمر الأزمة على خير أو لا.. ستدعو فقط..هذا أقصى ما يمكنها فعله.. وصلوا وأخيرا إلى المركز..كانت الشرطة قد وصلت قبلهم

بدقائق لكن لا يهم سيرى أبوها الآن ما يمكن فعله ...ما إن دخلوا حتى رأوا مراد ..بسرعة تقدموا نحوه، أردفت ياسمين..مراد، هل أنت بخير، هل فعلوا لك شيئا؟

- أنا بخير..فقط طلبوا مني أن انتظر هنا .

استطرد والده :

- أي خير هذا وأنت موجود هنا...احتدت نبرته..ما الذي كنت تفكر به ها..أين كان عقلك حين فعلت كل ذلك ..

- لم أقم بأي شيء خاطىء..انه الحق.. أضاف في ثقة ...هل لأنني أفسد خططهم اللعينة، أنت توبخني الآن.. أمَا كان يجدر بك توبيخهم هم لا أنا..

- اصمت .ولا تدعني أصفعك الآن..هل تظن أنك بذلك ..بفعلك هذا ستنقذ الوطن.. أخطأت يا صاحب العقل الرفيع .. ستقضي بقية حياتك هنا ..هذا فقط..هل تريد أن تتعفن في السجن..هل تريد أن تقتل والدتك.. هل تظن أنني مرتاح بما يحدث للبلاد، أتظن انك الوحيد الذي يهتم للأمر ...ها؟!

ازداد الوضع تعقيدا بينهم وكلاهما اعند من الآخر، تدخلت ياسمين فورا حتى تخفف من حدة النزاع هذا قالت في هدوء وجدية وهي تباعد بينهما: - تحليا بالصمت قليلا،نحن في مركز الشرطة. إن واصلتم بشجاركم هذا سيعتقلون كلاكما، وعوض أن نخرج من هنا بالحل سننتهي بمشكل آخر.. فأرجوكما. ثم نظرت لأخيها وكأنها تحذره مما سينتهي به الأمر وطلبت منه الهدوء...

أطرف السيد أحمد :

- استمع إلي.. لا تراوغ هناك..حاول ألا تعطيهم ما يريدون...أمك في البيت تنتظرك..لا نريد أن نرجع بخفي حنين..أفهمت؟

أجاب في ثقة :

- حسنًا لا تقلق،لن أنام الليلة هنا .

قدِم الضابط ناحيتهم وطلب من مراد المجيء معه،سال الأب إن كان بإمكانه الذهاب معهم أيضا لكن الضابط رفض ذلك وأخذ مراد نحو غرفة التحقيق.. دخلا الغرفة وجلس كلاهما على تلك الطاولة و قد تم وضع كل ما يخصه من مناشير سياسية أمامه..

سأله الضابط: هل هذه لك..

- اجل إنها لي

سأل بنبرة ساخرة :

- سيد مراد، أتريد أن تدخل السجن؟

أجاب باستهزاء:

- وهل المكان مريح كفاية..

انفلتت من بين شفتيه ضحكة ساخرة ثم قال: أتظن أن الأمر مجرد لعبة؟

- أبدا..لكن إن كنت تظنه كذلك ..فهو كذلك بالنسبة لي..

- حسنا..سأعقد معك اتفاقا، إن وافقت ستخرج من هنا كالشعرة من العجين..

قاطعه : وإن رفضت،ما الذي سيحدث؟

هز بحاجبيه ثم نظر بعينيه بلؤم وقال : لذلك مخرج آخر، لكن بالتاكيد ليس كالشعرة من العجين..

سأله مراد :

- ما هو الاتفاق! وضع أمامه بضع مستندات ثم استطرد،أن توقع على هذه التعهدات والتي تنص بعدم ممارسة أي عمل سياسي أو عسكري ..وهذا يشمل عملك كجزء من تنظيم المعارضة السورية و إشرافك على تلك المناشير....

- والآن لك مطلق الحرية في الاختيار..

أجابه دون تردد:

- ..حسنا.. أنا موافق..

نظر إليه مندهشا : فعلا؟ لم يكن الأمر بتلك الصعوبة...جيد ..وفرت على نفسك الكثير.. وقد اعتلت ملامحه نظرة انتصار.

وقّع مراد مجموعة السندات تلك وغادر المكان بسرعة،اختار الحل السهل.. وفعل كما أمره والده.. رغم أنه كاد أن يخنق ذلك الشخص هناك لكنه تحكم بأعصابه وفكر بعقلانية .لم يكن لديه حل آخر.. حتما لن تكون هذه التعهدات نهايته..سيجد ثغرة ما وسيكمل ما بدأ به..

قبل لحظات...

سكون رهيب يسود صالة الإنتظار امتزج بخوف،بات الإنتظار مثيرا للقلق في ذلك المكان،لا يعلمان حتى ما يفعلانه، توتر، خوف،ذعر ..ماذا إن تهور مراد في الداخل وفعل شيئا يُتهم به بعدها.. ماذا لو جعل من غضبه ذلك مقودا لأفكاره ..هذا الرجل ليس بصبور،كما انه عصبي زيادة عن اللزوم،ورث ذلك عن والده ..دائما حين يتناقشان حول موضوع ما وتحتد المشاحنة بينهما يصبح المكان أشبه بساحة حرب ..لكن حتى هذا اليوم،ورغم كل الشجارات التي دوما ما يخوضانها حول أي شيء،لم يسبق أن حمل أحدهما ضغينة للآخر، هي هكذا علاقة الأب بابنه إن عاتبه فذلك من أجل مصلحته،لن يفهم الإبن حينها لكن حين ينضج كفاية سيتفهم الأمر ويرى أنه لولا كل ذلك التوبيخ والمعاتبة لما كان ما هو عليه الآن..فالآباء يصنعون الرجال...في الجهة الأخرى من المركز كان امجد يستعد و إيا سامي للخروج من هناك قبل أن يلمح ياسمين رفقة والدها ينتظران، تفاجأ لوجودها هناك .أطرف سامي.. أليست هذه الفتاة التي كنت رفقتها هذا الصباح؟

أجاب متفاجئا ونظراته موجهة نحوها..اجل ..إنها هي..

تساءل في حيرة : ما الذي تفعله هنا يا ترى؟

كان على السيد أحمد أن يتصل بزوجته حتى يطمئنها ويخبرها أنه لا يجب أن تقلق فكل شيء سيكون على ما يرام لذا ذهب خارجا وطلب من ابنته أن تنتظر هناك ريثما يرجع، وحين لمح امجد مغادرة والدها استغل الفرصة وتقدم ناحيتها؛

- ياسمين! ناداها بتردد، التفتت لتجده قبالتها،
- أمجد! بصوت متلعثم ...أهلا ...لم تتوقع رؤيته هناك..
- ما الذي تفعله هنا؟
- ما الذي تفعلينه أنتِ هنا؟ أنا هنا بسبب التظاهرات الطلابية لكن لما أنتِ هنا؟ ومن ذلك الرجل الذي كان معك؟
- انه والدي، ونحن هنا بسبب أخي، أضافت في إستياء؛ إنها قصة طويلة

سأل؛ هل يوجد أي شيء استطيع المساعدة به، أخ سامي يعمل هنا، هو من أخرجنا من هنا.

سألت :

- إذا ؛ تم اعتقالكم بسبب ما حدث صباحا!
- أجل.. لكن أخ سامي قام ببعض الإجراءات وجعلهم يطلقون سراحنا
- ليكن ذلك درسا لكم!
- إنه الدرس العشرون، أجاب في سخرية ؛ ودوما ما نفلح بالهروب من هنا

ابتسمت...ذلك جيد ؛ كان عليها أن تنهي لقاءهما هذا لذا أضافت...إذن لأذهب الآن، اعتني بنفسك، ثم مشت مبتعدة عنه دون حتى أن تسمح له بتوديعها ابتعد من هناك بعدما ذهبت هي وعاد بأدراجه لسامي وغادرا المكان سويا.بينما هي جلست تنتظر أخيها حتى خرج من غرفة التحقيق وعلامات الغضب بادية على وجهه ؛

- مراد.. ما الذي حدث! ماذا قالوا لك !
- لاشيء، لا تقلقي، فقط طلب مني التوقيع على بعض السندات التي تُقِرُّ بالابتعاد عن كل ما يخص التنظيمات السياسية أو التنظيمات العسكرية
- وهل وقّعْت؟
- أجل..ماذا كان بإمكاني أن أفعل غير ذلك.

لاحظت مدى استياءه من الأمر فنظرت إليه بحنان وهي تشد على يده :

- برأيي أنك فعلت الصواب لا تقلق، وأيضا ساير أبي وحسب، لا داعي لأن تتشاجرا، أرجوك..

أجابها بابتسامة دافئة: - حسنا،لن افعل يا صغيرتي، سأل، أين أبي؟

- في الخارج، يتكلم مع أمي، أراد أن يطمئنها، لنذهب نحن إليه ..

غادروا وأخيرا ذلك المكان بعد أن حدّثوا السيد احمد بما حدث في الداخل ابتهج الأب لأن ابنه لم يخيب ظنه بعدما ربت على كتفه وقال...أحسنت صنعا تفادى المشاكل أحسن لك..تنفست العائلة الصعداء بعدما كان الذعر حليفهم لكن لا يزال مراد غير مقتنع بنفسه، ليس لأنه أراد دخول السجن أو إن يتم اعتقاله، بل لأنه لم يكن يريد أن يكشف أمره لكنه خطأه فقد تمادى هذه المرة في منشوراته وصرّح بها في إحدى الجرائد دون أن يخفي إسمه، لكن حتما لن تكون هذه محطته الأخيرة، سيفعل ما بوسعه حتى يكسر يد النظام،فقط عليه أن يحرص على إخفاء الأمر جيدا عن عائلته لا سيما والده، سيكون تحت مراقبته

هذه الفترة، سيكون عليه تدبر الأمر جيدا، وتفادي والده حتى ينجز ما بعقله من مخططات.....ودع أمجد صديقه سامي قبل أن يذهب كل منهما لبيته، لكنه لا زال مشوشا بشأن ما حدث، قبل قليل،لم قد يتم اعتقال أخيها، هل لأنه كان من المتظاهرين يا ترى ؟ لكنها لم تذكر شيئا عن ذلك، ربما الأمر أكثر من كونه مجرد متظاهر فقد بدا ذلك من نبرة صوتها حين أخبرته بأنها قصة طويلة وعلامات الاستياء بادية على وجهها لكن ما الذي فعله ؟ ما السبب الذي يمكن أن يؤدي به إلى ذلك المكان، هذا ما يجب عليه معرفته وسيعرفه بالتأكيد ..

دخل البيت لتطلق والدته تنهيدة عالية:

- وأخيرا ..أين كنت يا ولدي؟ هل خرجتم للمظاهرات مجددا، اتصلت بك عدة مرات لكن لا جواب، أضافت أخته:

- على الأرجح نفذ شاحن الهاتف.

أجاب أمجد في ابتهاج :

- أجل، هذا بالضبط ما حدث أيتها الذكية،ثم تقدم نحو أمه،قبّل جبينها وكف يديها وقال أنا بخير،لا تقلقي، سأكون دائما إلى جانبكما، أيعقل أن أفرّط بعائلة جميلة مثلكما،ثم ضم كل من والدته وأخته لصدره..لا تقلقا أبدا، سنكون دوما مع بعضنا، دقائق من الصمت قبل أن تبتعد علياء في عجل وهي تقول ... هيا العشاء سيبرد، هيا تعالا...

" حين إنتهى كل شيء
أردت أن أواسيك،
ليس شفقة مني بل حبا،
أردت أن أكون لك شفاءا في صدري،
أردت أن يكون مرهم جرحك عندي لكنك كنت بعيدا، فعشت الألم أضعافا "

أمجد

الساعة الحادية عشر إلا ربع، الجو غائم كالعادة .. جالس أمام قاعة المحاضرات ..وجوه كثيرة تمر من أمامي إلا وجهها.. لم ألمحها هذا الصباح،ربما لم تأتي..هل تأزمت المشكلة لهذه الدرجة يا ترى! لم أرد أن أضغط عليها البارحة خصوصا أنها كانت برفقة والدها والوضع لا يطمئن ... لم أفهم لما قضيت الليل وأنا أفكر بلقائنا..ما شغل بالي أكثر كان رؤيتي لها مساءا، لكن الحيز الآخر كان من نصيب أول لقاء لنا..حين كانت جالسة هناك ترسم في هدوء،حين خضنا ذاك النقاش سويا وكان لكل منا وجهة نظر خاصة... راق لي كيف أنها تبدو واثقة من كل شيء تقوله ..وكأنها لا تحب من يعاندها... وأخيرا ظهرت من بين الملأ مغادرة قاعة المحاضرات تلك ..ابتسمت في سري ثم تقدمت مسرعا ناحيتها، بدت شاردة لم تنتبه لي حتى وقفت أمامها وألقيت التحية ..

- ياسمين، صباح الخير..تفاجأت لرؤيتي مجددا لكنها قالت.. أهلا أمجد، صباح الخير...
- هل يمكننا التحدث قليلا؟

أجابت في تردد..أكيد، تفضل

- لنبتعد عن الضجيج قليلا..ولنجلس بعيدا في ساحة الكلية..

وافقتني القول...حسنا، لنذهب..

مشينا ناحية ذلك المقعد الموجود في جانب الساحة..جلسنا سويا ثم أطرفتُ:

- كيف حالك؟
- بخير، و أنت؟

- حسنا،دعكِ مني، ما قصدته كان عن البارحة، قلت لي أنها قصة طويلة، ما الخطب؟ لما كنتم هناك؟ ترددت قليلا قبل أن تجيب ثم أردفت:

- في الواقع الأمر يخص أخي، داهمت الشرطة بيتنا مساء البارحة واعتقلوا أخي لأنه عضو من أعضاء تنظيم المعارضة السورية، أو بالأحرى كان ...

- وكيف علموا بذلك؟

- بسبب المناشير السياسية، كانت له وبغرفته، أظنهم كانوا يعلمون الأمر مسبقا فقد جلبوا معهم مذكرة تفتيش...

- من المؤكد أنهم كانوا يتابعون تحركاته وإلا لما كشفوا أمره بهذه السهولة.

صمتت لوهلة ثم سألت:

- وكيف انتهى الأمر إذن ؟

- بالتعهد، على أن لا يقترف أي فعل سياسيا كان أم عسكريا...

- وهل وافق؟ لما فعل ذلك؟

أجابت في غضب..كان عليه أن يوافق . بالطبع لن يقضي بقية عمره بالسجن .. لن يكون أنانيا هكذا بالتفريط بعائلته

- اهدئي، لم اقصد ذلك

قاطعتني قائلة:

- بالطبع أنت أيضا مثله، كلكم كذلك، تظنون أنكم تنقذون الوطن بأفعالكم هذه. لكنه مجرد تهور، هل إنقاذه يكون بدخولكم السجن، هل يكون ببكاء عائلتك عليك.. ستفقد حياتك هناك،ستندم كل يوم ألف مرة لأجل ذلك.. لن يخسر أحد سواك ..

- حسنا، اهدئي، لما انفعلتِ هكذا..أنا آسف..لم اقصد إثارة غضبك..

قالت بنبرة متلعثمة :

- آسفة لأني صرخت هكذا... توترت قليلا..آسفة

- لا عليك.. يمكنك مواصلة الحديث عن الأمر إن شئت، كنت اعلم أنها تريد التحدث بالأمر...أردتها أن تتخلص من غضبها هذا..

لمحت في عينيها دموعا على وشك النزول لكنها منعت ذلك بيديها وقالت:

- حين حدث كل ذلك، البارحة..خشيت فقدان أخي ..كان الأمر حقا موترا للأعصاب..أبي، أمي، رؤيتهما بتلك الحالة، مذعورين،أصابني الرعب.. وما زاد من حدة غضبي حين بدا لك مخطئا لأنه وقّع تلك السندات، ربما بالنسبة لك هي مجرد تضحية لأجل الوطن لكنها بالنسبة لأشخاص مثلي هي فقدان وخسارة..كيف لأم أن تضحي بفلذة كبدها لأجل الوطن، ستنتهي الحرب ويتم السلام، لكن ماذا عن تلك الأم، أين حقها من كل ذلك،هل سيعوض المال خسارتها لابنها ... لا اعتبرها شجاعة بل انعدام مسؤولية يا أمجد.. تنهدت عاليا قبل أن تكمل أرأيت، لهذا اكره الحرب، لأنها تسلب منك كل ما هو غالٍ لديك...

لم أستطع أن أناقشها بالرد هذه المرة..كانت محقة تماما.

- هل انتهيتِ؟

.قالت متجنبة النظر إلي:

- أجل..إنتهيت

قلتُ:

- إنه لشيء مريح..

- ماذا؟

- البوح بمكنوناتك لشخص غريب

ابتسمت وقالت:

- أجل، قرأت ذات مرة عنه ..أخبر قلبك لغريب بدلا من قريب ..كأنه يمنحك راحة من نوع آخر...

- العائلة هي كل شيء، معك حق،

قلت تلك الكلمات وداخلي يحترق، لم تقل شيئا اكتفت بالصمت وكأنها ترحب بهي الآن...فواصلتُ القول..

- مساء البارحة، حين كنت في مركز الشرطة كنت قد أغلقتُ هاتفي،حتى لا تتصل بي أمي لأنني كنت أعلم أنها ستفعل وستقلق علي كثيرا إن أخبرتها بمكان وجودي، فأول مرة أخبرتها بذلك،وبختني قائلة.."أنت عديم مسؤولية يا أمجد،" تماما كما وصفتنا أنت،لكنني لم أغضب لذلك فقد كانت محقة، من سيعتني بهم

إن غبت أنا،من سيكون رجل البيت حينها،كنت مستاءا جدا وقتها وكنت أحاول سدّ ذلك الفراغ المخيف...سألت بنبرة هادئة:

- أي فراغ؟

- موت أبي...ولأنها لم تكن تعلم بذلك،توقعت أن تكون ردة فعلها كأي شخص آخر، أن تتأسف و تدعو له بالرحمة وتسألني الصبر أو ربما تسألني عن سبب وفاته،لكنها قالت:

- هل يؤلمك؟

نظرت بعينيها بحزن واستياء و أجبت:

- كثيرا، إنه يؤلم بشدة،لم أكن انتظر ذلك،كان موته مبكرا جدا،سرقه القدر منا على عجل ودون استئذان، ذلك اليوم كان أسوأ يوم مر علي، كان هادئا لطيفا،لم يكن عليه أي علامات مرض،استيقظ مبكرا كعادته، كانت الساعة السادسة صباحا،ذهب كلانا لصلاة الفجر،كان الفصل شتاءا والجو مثلجا، وحين عدنا للبيت كانت والدتي قد جهزت الفطور،كلاهما يحب الاستيقاظ باكرا وتناول فطور الصباح سويا...جلسنا كلنا على المائدة، كانت أختي لا تزال نائمة حينها فقد كان اليوم أول أيام العطلة...صمت لوهلة بعد أن وضعت راسي بين كفي يدي ورحت أعيش ذلك اليوم مجددا داخلي بذكراه المؤلمة حتى انتشلني صوتها قائلا:

- هل أنت بخير ؟

لم تكن بذلك القرب مني لكني شعرت باهتمام كبير منها،أردت فقط أن احكي لها عما يؤلمني .. عدت لأعتدل بجلستي معها وواصلت حديثي: نحن نملك محل سمسار عقارات، تعب والدي كثيرا من أجل تأسيسه، كان يقول أنه إرث العائلة وأنه سيتولى كل أموره ريثما أنهي دراستي بالجامعة و ألتفت لذلك العمل، لكن مرّ وقت طويل،إهترىء المحل،لا أحد يأتي إلينا، أصبح المكان شبه مهجور هناك،أصلا من سيرغب بشراء منزل هنا وأوضاع الوطن سيئة، لكننا نتدبر أمورنا بشكل جيد، فأنا أعمل في إحدى الجرائد بدوام كامل..

سألتني: ألديك أخت فقط؟

- أجل، أختي و أمي، كل ما أملك، كنزي الثمين،أبي أولهم، هو لا يزال حيا داخلي، بقلبي،لم يحدث أن نسيته أو فقدت كلماته منذ أن رحل. في ذلك اليوم

بعد صلاة الظهر قال أنه سينام قليلا، لو كنت اعلم انه سيكون نومه الأخير لما تركته لينام، لكنت عانقته طويلا حتى تبقى رائحته عالقة بي، لكنت طلبت من الموت أن يأخذني أنا بدلا منه، دموع أخذت تعبر بطريقها نحو خدي، كانت تلك المرة الثانية بعد رحيله، رُحتُ أمسح عيناي في عجل،لكنها أطرفت قائلة: لا بأس يا أمجد، دع عنك دموعك، لا بأس..قاطعتها مبررا بصوت مرتعش : لم أبكي منذ وفاته، في تلك الليلة، بعد رحيل الجميع أضحى البيت كالميتم، لم أستطع أن أواجههما ؛ أمي وعلياء، هربت لمكان عمله، هربت بوجعي للمحل، أضفت بنبرة حزينة محاولا منع شهقة البكاء تلك ...أخليت لنفسي مجال البكاء كطفل صغير صرخت بأعلى صوتي و ناديته، آملت كثيرا أن يكون مجرد كابوس و أنه سيعود إلينا، سيسمع مناداتي له وسيأتي إلي، بقيت هناك الليل بطوله،لم أسمح لأمي أن تراني منهارا هكذا .. كانت تلك الليلة أول مرة تتغاضى فيها عن الإتصال بي،كان همها أكبر من أن تهتم بي حينها، لكنني حين عدت صباحا للمنزل وكلي يأس وحزن أخذتني بين أحضانها وقالت: أنا أعلم أنك أردت أن تكون لوحدك، لهذا لم أتصل بك، لكنك ولدي، وجعنا واحد وكتفي وحضني لك وقتما تشاء..

إنتبهت لدموعها وهي تسيل من على خدها، لم تكن تمنعها هذه المرة بل تركتها تنساب بحال سبيلها، بكت لتشاركني وجعي، أردفت:

- أنا فعلا آسفة، لن أستطيع الإحساس بألمك لكنني ممتنة كثيرا لأنك تشاركني إياه، لربما ترتاح قليلا .

- لم يسبق لي أن أخبرت أحدا بكل هذا ..

- لم أفهم!

- يعني أنتِ كنت أول شخص أحكي له ألمي، ولم أذرف دموعا أمام أي أحد من قبل، كنت متماسكا أمام الجميع طوال كل ذلك الوقت، كنت ضعيفا أمام نفسي فقط وعلى الأغلب أمامك...

- ليس بضعف وإنما ألم، ما كنته أمام نفسك وأمامي الآن لم يكن ضعفا بل وجعا قد فاض من قلبك، صمت كلانا قبل أن تشد على يدي وتربت على كتفي بحنان،ثم أردفت: إنه لشعور بشع، أن تفقد جزءا من نفسك،ربما في غالب الأحيان تتمنى لو كنت مكانه لكنه كان هو بدلا منك، لو كان حيا اليوم لكان فخورا بوجودك، من المؤكد أنه مرتاح بقبره لأنه يعلم أن خلفه رجل من أم

عظيمة وأب عظيم مثله، تقول أمي أن من يحبهم الله يكونون أول من يذهب إليه، موته كان سهلا لم يتعذب، وكان بعد أن قضى صلاته و شبع منكم، هو محظوظ لأنه كان أبا لكم ومختارا عند خالقه وأنت محظوظ لأنك من صلبه، لست ألغي حزنك و لا ألمك بذلك أعلم، لكن لا تتظاهر بأنه شيء عادي، ابكي، أُصرخ، بُح بألمك،دعه يخرج من قلبك،فإنه ليس ضعفا وإنما راحة..

- من الجيد أنني تحدثت إليك أتعلمين..

إبتسمتْ وقالت:

- من دواعي سروري..

بالرغم من كل ما مرّ على نفسي من ذكريات و أحاسيس وإمتزاج الحزن بالألم في تلك اللحظات إلا أنني إستطعت أن أبتسم من قلبي هذه المرة، لم يسبق لمثل تلك الكلمات أن أدفأت قلبي لهذه الدرجة،بوحي لها ضمّد كل تلك الندبات بجدرانه..لم أرد لذلك اللقاء أن ينتهي، وددت لو يكون له بداية فقط دون نهاية..فأردفتُ في عبث:

- إذن، ما حكاية الرسم تلك؟ أتحبينه!

أجابت : - أجل، أعشقه، الشيء الجميل في يومي هو الرسم..

- كم لوحة رسمتِ؟

- ما يقارب الثلاثين لوحة..

تعجبتْ.. - ذلك رائع، ربما يوما ما سيكون لك معرضك الخاص..

ابتسمت ملامحها..- ربما، آمل ذلك ..

- منذ متى وأنتِ ترسمين؟

- منذ أن كان عمري ثلاثة عشر سنة، أضافت بابتهاج...في الحقيقة،لطالما كان الرسم بمثابة طوق نجاة لي .

- لما ذلك؟

أجابت بصوت ضاحك: - كنت ألقّب بالملك الحزين آنذاك، لم أحظى يوما بما يسمى أصدقاء، كنت أعامل الجميع برسمية، وكانوا يرونني تلك الفتاة المعقدة، المغرورة، و المتكبرة، لكنني لم أكن أبالي، لم أكن أهتم بأي من كلامهم ذاك، كنت

فقط أرسم أحاسيسي، ما كنت أشعر به وما أحسسته طوال ذلك الوقت كان الرسم كفيلا بإخراجي منه، أجد راحتي هناك،هو بمثابة عالمي الآخر..

- تبدين كذلك..

- عفوا!..

- أقصد أنك لا تبدين مغرورة ولا حتى متكبرة..

ضحكت وقالت:

- لا أهتم لذلك حقا،أنا ما أنا عليه، لا يهمني ما يظنه الآخرين..

- في الواقع، تبدين هادئة،لكن لست أفهم لما تمَّ وصفك بالمعقدة...

ابتسمت في هدوء ..

- ربما لأنك تحدثت معي، فلو كنت بعيدا مثلهم لكنت حكمت علي بمثل هاته الصفات، أظن أنه كان يجب عليّ أن أكون مثلهم حتى أتخلص من كل تلك الألقاب..

- لا يجب عليكِ ذلك..كوني أنت وحسب،ذلك أجمل...

أشاحت بنظرها عني خجلا مما قلته ولم تقل شيئا، أرادت تغيير اتجاه الحديث فسألت:

- لكن لم تخبرني ماذا تحب، ما أقصده هو أن هوايتي الرسم لكن ماذا عنك،أهناك شيء معين تحب فعله، أضافت ..دعني أوضح أكثر، مثلا، كيف إستطعت أن تلملم جروحك دون أن تُبقي أي أثر لذلك؟

كان ذلك السؤال قد لامس الوتر الحساس للقصة بأكملها، يبدو أنه علي الإفصاح عن جزء آخر مني لها ..أجبت: - الكتابة، كنت أكتب..

قالت في دهشة :

- أحقا ! لهذا إذن تلك المرة كنت منحازا للكتابة كأفضل أداة للسرد بدلا من الرسم..

أجبتها ضاحكا:

- لكل شيء حقه من الجمال،إن جمعنا الكتابة والرسم سويا سيكونان قنبلة قاطعتني : أو ربما فوضى.

- ولما تظنين ذلك؟

- مثلا كأن تخطىء بالتعبير أو بالرسم،سيكون الأمر مشوشا للغاية..أطرفتُ: بل سيخلق وجهة نظر ثالثة، أليس هذا ما تظنينه !

- أجل، هو كذلك،لكن ربما سيكون الأمر بمثابة معزوفة مزعجة للأذن بعض الشيء.

سكون ساد بعدها،كسره صوت الرعد،كانت على وشك أن تمطر،وكان علي الذهاب لعملي لكنني لم أرد أن نتوقف عند ذلك الحد،أردت صداقتها،لهذا أردفت في عبث :

- أيها الملك الحزين،هزت رأسها في تعجب، هل يمكن أن نصبح أصدقاء؟

ضحكت و أجابت:

- بشرط واحد فقط؛أن لا تناديني هكذا مرة أخرى،

ابتسمت لها وقلت:

- حسنا، موافق...ثم إستأذنت لتغادر فقد كان لديها درسا عليها أن تحضره،بينما غادرت انا الجامعة متجها لمكان عملي بعدما كنا قد اتفقنا على الحديث لاحقا.

وكانت تلك البداية لكل شيء بعدها....

تحسست موضع قلبي فإذا به ينبض،هو فعلا لم يتوقف عن النبض يوما لكنني للمرة الأولى أحسست بنبضاته،لست أعلم ما كان ذلك لكنه أودع شعورا جميلا داخلي،فجأة تناهى إلى سمعي رنين هاتفي،أدخلت يدي بجيبي الأيمن من السترة وأخرجته حتى أرى من المتصل،إنه سامي،رحت أجيب على المكالمة،جاءني صوته قائلا:

- يجب أن نلتقي حتى نذهب إلى المكان الذي أخبرتك عنه البارحة..

أجبته مترددا:

- لكنني الآن ذاهب إلى الدوام..

سألته:

- هل لنا أن نلتقي بعد ما أنتهي...!

قال:

- حسنا،لا مشكلة في ذلك..

لم أكن واثقا من أنني حقا أرغب بفعل ذلك،ولم أكن متحمسا كما إعتدت بالأيام السابقة،فقد أقحمت نفسي في مشاكل كثيرة،خاصة بعد وفاة والدي.شاركت بعدة أنشطة أقيمت ضد النظام،ثم أنني انضممت لعدة منظمات كانت نهايتها الذهاب إلى السجن،كان أخ سامي دائما ما ينقذنا من المأزق مع التوعد بتركنا نبيت بالسجن إن كررنا فعلتنا مرة أخرى، لكننا لم نعقل أبدا ولم يستطع التفريط فينا، لم أحس بطيشي حينها بل فقط كنت أقوم به،لم أعبأ بشأن أي شيء إلى حين ذلك اليوم، أُلقي القبض علينا أنا وسامي بإحدى التجمعات التي تدعو إلى كسر يد النظام،كانت التهمة ثقيلة العيار،التشهير ببعض الأشخاص الموجودين بالنظام وتشويه سمعتهم إضافة إلى تحريض الشعب ضد النظام،الضابط الذي كلّف بقضيتنا اتضح فيما بعد أنه تابع للنظام،لولا أن عظمة قد ألقيت إليه لما كان فعلا كذلك،كان هناك حقد بعينيه لم يكن يُبشّر بالخير أبدًا،وخاصة بعد أن رأى ملفاتنا،لم يكن رميه لنا بالسجن صعب على الإطلاق،وقبل أن يقوم بذلك،طلب سامي الإتصال بأخيه لكنه من سوء حظنا لم يجب على الهاتف فاضطررنا للمكوث بالسجن ولم تكن ليلة فقط بل ظللنا مسجونين لمدة وجيزة،كنت قد اتصلت بأمي أخيرا وأخبرتها بالأمر بعدما ظننت أنني سأسجن لمدة أطول،لكنها وبختني قائلة:

- إنك شخص عديم مسؤولية يا أمجد..

وأغلقت الخط بوجهي،وحين اتصلت مجددا لم ترد علي.شعرت بالضيق من كلماتها تلك،وكأنها تخلت عني،البستها ذنب التخلي عن ابنها، لكن المذنب الحقيقي كان أنا،انا من تخليت عنهم،كان علي أن أقوم برعايتهم أن أقوم بحمايتهم.. لكننا وقعنا أسرى بالسجن بين جدرانه المعتمة وأرضيته المتسخة،معظم المسجونين هناك كانوا مثلنا، لم يعد هناك سرقة أو قتل، بل أصبح حب الوطن تلك الجريمة الوحيدة التي يعاقب عليها القانون..

كنت أظن أنني أُلهي نفسي عن الحزن،لكنه كان داخلي حتى وإن قمت بأشغال الدنيا كلها كنت سأتذكر ذلك اليوم،وملامح أبي الباهتة و هو مستلقي دون حراك،كنت سأتذكر نحيب أمي وأختي و صراخهما بتلك اللحظات،نظرات أمي الحزينة وصدمة أختي، كنت سأعيش كل شيء مجددا بكل تفاصيله بمجرد أن أدلف غرفتي وأدخل فراشي، بمجرد أن تُطفأ جميع الأضواء، بينما يبقى ظلام

الليل وحده يؤنس وحدتي وأحيانا كثيرة يزيد الطين بلة،يخنقني بتلك الذكريات المرة، يجلب صوت أبي وضحكاته،مشاجراته اللطيفة مع والدتي،مزاحه الظريف مع كل شخص فينا،نظراته،إبتسامته،مناداته لي،كل ذلك يوجع روحي،يحكم قبضته جيدا على قلبي ويضغط بشدة،وكأنني أعتصر ألما،واضعا رأسي بين كفي وأنا أحاول طرد كل ذلك من أفكاري،جلّ ما أردته النوم بسلام،أردت تقبل تلك الحقيقة،واقع أن والدي لم يعد موجودا،أردت أن أبتسم لأمي وعلياء،أردت أن أكف عن النهوض من على الطاولة في حنق بكل مرة نجتمع بها وأرى مقعده فارغ،كنت عاجزا عن التعايش مع كل ذلك،ملامح،ذكريات،أحاديث تقتحم رأسي وتؤلم روحي،يوم دفنه،بيتنا المليء بالناس في ذلك اليوم، إلى أن أشعل الأضواء بسرعة وفي ذعر؛يختفي كل شيء في لمح البصر،أنظر بإنكسار إلى صورته من على جانبي فوق المكتب، وكأنني أطلب منه أن يعود وينهي عذابي هذا، لكنه لن يعود..في عزائه، كان الناس يتمتمون بكلمات كثيرة،لم أكن أستوعب ذلك،كأن أعتني بعائلتي،فتلك أمانة والدي،و أن أستجمع نفسي،شيء كهذا،ولأنني شعرت بمسؤولية كهذه هربت،هكذا قالت أمي يوم عدت من السجن لكنني لم أهرب من ذلك بل هربت مما حدث،هربت لأنني لم أتخيل يوما كهذا،لم أتصور حياةً دون والدي،هربت من نفسي، من الوجع الذي بداخلي،كنت أقف بشموخ وسطهم جميعا ذلك اليوم، مُدعيًّا السكون،لكنني هربت لأنني أردت أن أكون مع نفسي، أن أحزن بمفردي،هل كان من المفترض أن أجلس وأفكر في القادم..!لم أستطع فعل ذلك،هل كان ذلك جبنًا مني..!لست أعلم،لكنني إنسان،إنسان يحس ويتألم،كيف ألغي شيئا كهذا..! لن أستطيع..

فترة السجن تأتي في المرحلة الثانية كأسوأ فترة مررت بها،بعدما أقام ذلك الضابط محضرا لنا،رمى بنا في السجن،ولم يكتفي بذلك فحسب بل قام بتعليقي أنا وسامي وبعض المعتقلين،من معصمينا لساعات،تعرضنا للضرب و تمّ صعقنا بالكهرباء،في حياتي لم أتخيل أن شيئا كهذا سيحصل لي،ما حدث من تعنيف لنا زاد حقدي تجاه الدولة وكل من عليها حاكم،في كل مرة كان يقوم بتعذيبنا بذلك الشكل أنظر بعينيه في تحدي ثم أبتسم ساخرا،وكان ذلك يحرق أعصابه ويزيد من غضبه، كان متعطشا لرؤيتنا نتوسل إليه لكننا لم نمنحه نشوة الإنتصار،كنّا صامدين..

لكنه في الأخير تمكن من أحد فينا وأجبره على كتابة إعتراف خيالي عن تخطيطه للقيام بتفجير،حيث تمّ نقله فيما بعد إلى سجن آخر، ربما قد رأى أسوأ أيام حياته هناك..ظللنا بالسجن لثلاثة أسابيع،حتى جاء أخ سامي سهيل وقام بإنقاذنا من تلك الورطة، ثلاثة أسابيع من ذلك التعذيب المُهين،كنا قد تنفسنا الصعداء حين خرجنا من هناك،لكننا لم نسلم من توبيخ سهيل لنا،فقد إضطر لتقديم رشوة لأحد الضباط من أجل إطلاق سراحنا،لقد كنا محظوظين فعلا..

***

"بقلب يُتوّجُهُ الإيمان و يعتريه الإسلام، تم القضاء على روح الشباب تحت إسم الوطنية"...

***

"حين يشتد الحصار وينفلق الشعب لأطراف، يكون الثمن غالٍ جدا،يدفعه الأبرياء، حين تَحِلُّ لعنة الحرب، لعنة الدولة على الوطن،يقف الشعب بشموخ ويردّد ؛ "للوطن الحرية، لنا الحرية" ، يبدأ الأمر بسلمية تامة لكن سرعان ما تفلح الأطراف الشاذة في تعقيد الوضع،و ينتهي به إلى القتل،العنف و التشرد،تكلّف أطراف الدولة نفسها بحماية الوطن تحت قتل الأبرياء وتعنيف حريتهم،و من يتكلم حينها يكون مجازفا و مندفعا، أما من يصمت، فذلك بسبب خوفه ومسؤوليته،ولا يُدعى أبدا بالجبان، فالكل لديه أسبابه الخاصة،ولا يَحِقّ الحكم على أي شخص بالجبن."

"حين يبلغ الألم العظم،ينتفض الشعب بسلمية عسى أن يكون لصوته مسمع لكن واحسرتاه، ستكون الدولة بالمرصاد،وبدلا من الوقوف كذرع حامٍ لشعبها تطعنه بقلبه"...

يوم ١٤/ ٤/ ٢٠١٣

أتى اليوم المنشود،كان مراد قد اِنشقّ حينها عن التنظيم الذي كان به بعد حادثة الإعتقال تلك، لكن كان عقله قد تسَمّم بما يسمى تنظيم داعش (تنظيم الدولة الإسلامية العراق والشام) و بعد محاولات والده لإقناعه بالعُزوف عن هكذا أمر، بعدم التدخّل بكل ما يخّص السياسة،ليس جبنًا منه وإنما لأنه أراد حمايته وحماية عائلته،

"لستُ جبانا يا أبي "..قال مراد بإمتعاض وسط حديثٍ كان والده قد فتحه بخصوص إعتقاله ذلك اليوم .

- ومن قال أنك شجاع بفعلك هذا ؟ أجاب والده في غضب ..

- هل تدرك حجم ما فعلت؟ ماذا لو تم سجنك فعلا، لم نكن لنسمع عنك شيئا، كبقية المعتقلين، لم تجد عائلاتهم أي أثر لهم، ستنسى الأمر يا مراد ستبتعد نهائيا عن هذه الأعمال، هل كلامي واضح...

آملت عائلته أن تكون تلك المرة هي أول و آخر مرة يخطو فيها إبنهم لكذا فعل وحقا كانت تلك آخر مره يُعتقل فيها لكنه فعل ما هو أسوأ، رحل بعدما ترك رساله لهم على طاولة الصالون، كانت المفاجأة في ذلك الصباح..

بسم الله الرحمن الرحيم ...

" أبي، أمي، أخواتي؛ ياسمين وزهره، لقد رحلت.. مما لا شك فيه،أنك يا أبي كنت سَتُوَبخّني قدر الإمكان لو كنت أمامك الآن و أنا أخبرك بأني راحل إلى حيث تُقَدّر الوطنية وحيث تكون الحرية، رحلت ليلا تجنّبًا لذلك، لا داعي للغضب فقد عرفت طريقي،ليس معك بالشركات ولا بحياة رجال الأعمال، أنا وطنيُ يا أبي ولست بجبان، إن شئت قُلْ عني أحمق و إن شئت تَبَرّأْ مني، لكنني سأتحمّل نتيجة إختياري، سأكون مسؤولا عن قراري، أعدك، لستُ أعلم إن كانت ستُسْنَحُ لي الفرصة برؤيتكم مجددا،لكنني لا أستطيع أن أعِدَكُم بأن أعود إليكم، أنا أسير نحو درب مجهول،كل ما أعلمه أن الحياة هناك ستكون بقدر ما أردت".

هذا وحسب،كانت تلك الرسالة جافة كأرضٍ قاحلة،لم تكن وداعا بل كانت بمثابة نارٍ حرقت أرواحهم كلها معًا،

أطرفت والدته في حزن :

- لست أفهم، هل رحل إلى الأبد؟ لما فعل ذلك،

و راحت تعاتب زوجها:

- الحق عليك يا أحمد، لقد ضغطت عليه، أمَا كان يجدر بك أن تحميه،لقد غادر الآن ولن نراه مجددا،ثم أضافت بنبرة باكية :

- لن أرى إبني مرة أخرى، ذهب و تركنا جميعا

لم يقل السيّد أحمد أي كلمة، خانته الكلمات، أجفلته تلك الرسالة،إستمع لمعاتبة زوجته في صمت وحسب،بينما راحت ياسمين و زهرة يبكيان رحيل أخيهما، علموا جميعا أنه قد رحل لما لا رجعة منه، لن يعلموا بمكانه و لن يسمعوا صوته مجددا، سيعيشون ما خافوه في تلك الليلة، إختفى الأمل و حل محله الرعب والحزن،أخذت الشكوك تغلب أفكارهم والخوف يغزو قلوبهم، كان الجو معتّما كالليل في بيتهم، بهُت الجميع للمرة الثانية،لكنها أسوأ، أسوأ بأضعاف عن تلك المرة ...

***

أمجد

بلقاء عابر في إحدى الأيام، داخل الكلية، على ذلك الكرسيّ الذي جلسنا عليه أول مرة،

أطرفتُ :

- إذن ما العمل الآن؟

أجابت بحزن :

- لستُ أدري، أبي يستعمل معارفه الشخصية حتى يعثر عليه قبل أن يسوء وضعه، الأمر معقّد جدا، - لست أدري ما الذي سيحدث بعد الآن، أنا خائفة.

إستطعت أن أرى كم أنها مذعورة و مستاءة لما حدث، أردت مساعدتها، أردت محو الحزن من على ملامحها،

- لا تقلقي، لربّما يستطيع والدك إيجاده، أتريدين أن أطلب من أخِ سامي المساعدة أيضا، ربما يستطيع العثور على شيء .

- أحقا ! هل بإمكانه ذلك ؟

- لا أعلم، لكن سأخبره بالقصّة، و سأرى إن كان بإمكانه المساعدة

- شكرا، أقدِّر ذلك حقا ..

لم يكن بإستطاعتي فعل شيء سوى ذلك، أردت فعلا أن أساعدها لكّن لم أرد إعطاءها ذاك الأمل عبثًا، أخبرت أخ سامي بالموضوع كلّه، تطلّب ذلك منه بعض الوقت حتى يتحرّى عن الأمر لكن ما كان بإمكانه فعل شيء،لم يستطع معرفة أيّ خبر عنه .لم أرد أن أخيّب أملها، ولم أستطِع إخبارها حين كانت تلقاني كل يوم بنظرات الأمل تلك، كانت تنتظر خبرا مُفرحًا مني،وكنت أماطل في كل مرة لكنني أجفلتُ ذلك الأمل أخيرا و أخبرتها بالحقيقة، حزنتْ جدا، راودتها الدموع لكنّها حاولت كتمها و شكرتني ثم غادرت .. تركتُها، علمت أنها تحتاج أن تبقى بمفردها لكنني لم أتحمّل ذلك، فتبِعْتُها إلى حيث ذهبت و راقبتها وهي تبكي بحرقة وكأن كل هموم الدنيا على كتفيها، لم أمنع نفسي من التقدّم نحوها، لم أجد نفسي سوى جالسًا بجانبها، توقفَتْ عن البكاء حالما رأتني و مسحت عيونها بسرعة ثم قالت بصوت متَحَشْرِج و حزين : المعذرة..

- لا بأس، يمكنك أن تبكي .

أجابت:

- أنا آسفة، تنهدت ثم قالت ؛ لست أعلم حتى لما أنا كذلك، لكنني ظننتُ أنه سيجده و سيستطيع أن يُعيدهُ إلينا، رؤيتي لوالداي بذلك الشكل الحزين كل يوم يخنقني، أردتُ المساعدة بأي طريقة، إني أدعو الله كل ليلة حتى يعود إلينا..

- هل تشتاقين إليه ؟

أردفت بنبرة باكية:

- إنه أخي، طبعا أشتاق إليه، مراد ليس من النوع البعيد عن أخواته بالعكس هو قريب منّا جدا، ليس قاسيا بل حنون، ابتسمت ثم واصلت: هو فقط عصبيّ زيادة عن اللّزوم و عنيد جدا، لكن لم نرى منه أي شر .

أطرفتُ مواساة لها :

- إن شاء الله سيعود .

تنهدت ثم أطرفت :

- هذا كل ما أتمناه..

كان الجو مُغَيّمًا، درجة الحرارة معتدلة لكنها أمطار الربيع الخفيفة،كان المنظر جميلا، كانت عيناها بلون الشمس غارقة بدموعها،كان شعرها البنيّ منسدلا من على كتفيها، هي جميلة بكل حالاتها حتى و هي تبكي، في تلك اللحظة أردت أن

أضمها إلي، أردتها أن تسند رأسها على كتفي وتبكي، أن أُربت بيدي على كتفها، وأن أعدها بأن كل شيء سيكون على ما يُرام . لكن كل ما إستطعت فعله كان الصمت فقط، أخْلَيْتُ لها المجال لهدوئها و لدموعها، لم أرد رؤيتها حزينة فلديها إبتسامة جميلة، لم يمرّ سوى سبعة أشهر على معرفتي لها، لكنها فعلا هي أول ما يخطر ببالي حين أستيقظ، تعودّتُ على وجودها و أحاديثها و الأسوأ كنتُ قد اِعتدتُ هدوئها، كانت في بعض الأيام تأبى الحديث، لا ينتابها التكلّم مع أيّ أحد لكنّي كنت أصمت معها حتى لو لم تتحدّث كفاية،كان الأمر يبدو لطيفا بالنسبة لي ..

في أحد الأيام، كانت تجلس وحيدة و هي ترسم حين لمحتها فذهبت إليها، صار وجودي معها شيئا مألوفا و حتميًّا لديّ...

أطرفت مبتهجا:

- ما الذي ترسمينه يا ذات العينان العَسَلِيَّتان ؟

اِبتسمت ثم قالت :

- لا أعلم، مجرّد خربشات فقط ..

- تقصدين مشاعرك، أو ربّما قلبك..

هزّت رأسها مُبتسمةً و قد رفعت حاجبيها تعجبا لكلامي :

- أظن ذلك، لهذا سوف يكون العنوان مشاعر..

رحتُ أتأمل ما تفعله، كانت اللوحة بألوان داكنة و كانت دقيقة جدا في رسم التفاصيل،

أطرفتُ :

- أتعلمين، حين أنشر أول كتاب لي سيكون عنوانه "ربيع عاصِف "

قالت في دهشة :

- إنه نفس العنوان الذي اِخترتُهُ للوحتي..رسمة الحرب تلك، لما ذلك ؟

- لأنني أريده أن يكون كذلك، لربما تكون رسمتك تلك هي الغلاف لكتابي ها ! ما رأيك ؟

ضحكَتْ و قالت :

- فعلا ؟ ما هذا السخاء !

- بل صداقة ..

نظرت بعيني وقد اِبتسمت ملامحها في هدوء ، قالت :

- حسنًا إذن ، موافقة، لأجل صداقتنا .

في كلّ مرّة تنظر إليّ أضيع بعينيها، لست أفهم السّر بعد لكنّ عيونها جميلة جدا...

سألتها :

- هل يوجد أي خبر عن مراد ؟

- لا، لا يوجد .. أجابت بعد أن اِختطفت ذكراه البسمة من ملامحها، كانت قد اِعتادت لكنّها تتجاهل، فلم تتحدث عنه منذ ذلك اليوم و كنت أغضُّ النّظر عن ذلك،لم أرد إحزانها، هي حتما لم تنساه بعد لكنّها تحاول تجاهله عنوة ففي آخر مرّة سألتها عن الأمر، قالت :

- الحديث عن ألمك يا أمجد يعيد الوجع مرتين، لكنّ حين تُبقيه لقلبك، لنفسك،سيكون الألم أخفّ، صحيح أنه ينهشك من الداخل، لكنّك ستحاول التّغاضي..

- لكنّ الحديث يريح القلب، أليس كذلك ؟

- أعلم أنه يريح القلب، لكنّ ليس في كل مرة، بل فقط سيضغط على الجرح كي ينزف من جديد، وأنا أختار الندبة بدلاً من النزيف مجدّدا ...

"لم يكن يُسمّى هروبًا بل سوء فهم، سوء فهمٍ كبير، لأولئك المندفعين، المنساقين هكذا لأولئك الذين تأخذ بهم الرياح بما لا تشتهي السّفن" ...

***

حين يُخدع الشباب بإسم الإسلام، حين تُغسل عقولهم بأفكار دنيئة زيَّنها الكفّار، أولئك الذين يزعمون أنهم أشرف خلق الله و هم أسوأه، هم الكفّار نفسهم الذين يسفكون دماء الأبرياء بحكم أنهم كفار و طغاة، يخلقون التطرف بدين الإسلام و يُطلقون أحكاما تناسب مقاساتهم بحجة الدين الإسلامي ... منذ متى و القتل أصبح حلالا بديننا، قال سبحانه وتعالى : " مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا " .لم يكن القتل أبدًا حلالا على المسلم ولا على الكافر، لكنهم وهبوا لأنفسهم مسؤولية قتل أرواح الناس بحجة الكفر و هم حتى ليسوا بمسلمين يحسبون القتل و الإغتصاب و التّعنيف يجوز بالكفار و لا يجوز بالإسلام بحجة التأديب، و هو أصلاً لا يجوز بكِلا الحالتين، كانوا الكفر بذاته، خرجوا عن الملّة واعتبروا أنفسهم منها، يقومون بأبشع الجرائم متنكّرين بزيّ الإسلام، لوَّثُوا رداءه الأبيض بسواد أفعالهم تلك ... و أمَّا عن ضحايا هذا الجُرم يكون شبابا و نساء ورجالا و أطفالا، بِمُجرّد وجود ثغرة بحياتهم يفلح أولئك في جذبهم بحجّة الجهاد وكذلك إستغلال المشاكل الشخصية لضحاياهم بحجّة إيجاد حلول مناسبة وأيضا تحقيق رغبات الشباب بالزواج و المال و الوعود الواهية مقابل تجنيدهم ويتركّز الإختيار على الشباب الذين يعانون من مشاكل أُسرِية و مادّية، كما يستهدف المصابين بالإحباط و أصحاب الثّقة الغائبة بالّنفس و أحيانا أصحاب الثّقة المزيفة بالذات خاصّة الذين يبحثون عن بطولات خادعة على حساب الإنسانيّة . إستغلال، خداع، تزييف، تدنيس الإسلام، إخفاء الحقائق، الجهاد المزيف، هذا ما تقوم عليه تلك التنظيمات التي تَدَّعي الإسلام.. ليبيا، العراق سوريا، دول تعاني من هذا المرض الخبيث الذي نأمل و بشدة زواله دون تكاثره على أرض الإسلام .

مراد

إقترفتُ خطأً كبيرًا برحيلي في ذلك اليوم، كان ذلك أسوأ قرار اِتّخذته بحياتي مع أنني كنتُ متأكدا أنه سيكون الأفضل، لكنني كنت مخطئا بشأن ذلك، أكره الوداع، لهذا رحلتُ ليلاً و أيضا لأنني كنتُ متأكدا من أنّهم لن يدعوني أذهب، يا ليتني فعلتها صباحا لكانوا منعوني من المغادرة، كنتُ فعلا جبانا،لم أستطع مواجهة أبي و اِخبارَه بقراري، كان مُحِقّا بكلّ كلمة قالها، معه حق، لا يُنْقَذُ الوطن هكذا بل يُدَمّرُ الرّوح وحسب ..

بعد كل ما عِشتهُ هُناك، بعدما رأيتُ بأُمّ عَيْنيَّ أنني كنت مُخطئا بقدومي لمكان كهذا، فكّرتُ بالهروب، مع أن الأمر كان صعب وقد صِرتُ مُقرّبًا لقائدي، لكن كان علي الرحيل فقد طفح الكيل، لم يعد بِاستطاعتي التّحمّل أكثر، حاولت القيام بكل ما بوسعي حتى أخرج من ذلك المكان، ما رأيته هناك و ما عشته كان يُصعب هضمه بالنسبة لإنسان مثلي، كانت الإنسانية منعدمة هناك..

بداية، حين وصلت، كان المكان مليئا بالرجال الملتحين، تظهر ملامح الإسلام على وجوههم لكن كان يشوبها شيء من الخبث أو ربما بعضًا من الحَزْم، كان المكان يَعُّم بأشخاص مثلي من جنسيات مختلفة، بدوا ضائعين كحالي، تم أخذنا إلى مخيم للتدريب، كان علينا ممارسة التمارين الرياضية لنكون في هيئة جسدية تساعدنا على سهولة الحركة، وبعد فترة التمارين تلك،تمّ أخذنا إلى ليبيا،حيث تعلمت هناك فنون القتال في تدريبات ودورات عسكرية مكثفة.كنت قد تعلمت في درعا كيفية إطلاق النار باستخدام المدافع، وإطلاق القنابل اليدوية، ولكن في ليبيا مستوى التدريب العسكري كان أكثر تطورا، فتعلمت كيفية استخدم مختلف أنواع الأسلحة.كان الإنتقال إلى ليبيا، يرجع إلى رغبة التنظيم في نقل إحساسنا بحب الوطن، والتأكيد على شعورنا بالانتماء للخلافة الإنسانية، واختبار تجارب جديدة.ثم بعدها عدنا إلى درعا من جديد.لن أنكر اِبتهاجي حينها، فقد شعرت أن التنظيم تمكّن من القضاء على الحدود الحكومية التي ليس لها داعي، وأنها مجرد حواجز مزيفة إستطاع التنظيم القضاء عليها ليعيش الجميع في دولة واحدة كبيرة،كان ذلك أشبه بإنجاز عظيم..

قام التنظيم بمنحنا ما يقارب ٤٠٠،٠٠٠ دينار، أي ما يُعادل ٢٣١ دولار شهريا، بجانب بعض المميزات التي لا يحصل عليها سوى المقاتلين، مثل الطعام، الغاز وكذلك إمكانية الدخول على مواقع الانترنت، كان ذلك سبب كافٍ لبقاء الكثيرين هناك.. مرَّ عدّة شهور على تواجدي هناك وكانت عزيمتي تزداد كل يوم ظنًا مني أن ذلك يتناسب حقا مع معتقداتي.

وذات مرّة بينما كان القائد يُشرف على جميع التدريبات و كنت أحاول جاهدًا لفت اِنتباهه لأنني ظننت أنه من الأفضل فعل ذلك، أطرف بنبرة حازمة :

- أيها الشاب تعال..

تقدّمتُ نحوه بسرعة ...

- ما اسمك؟

- أدعى مراد يا سيدي

- ما الذي أتى بك إلى هنا ؟

حقيقة، كان الأمر أشبه بجَسٍّ للنبض، علمت ذلك بعد فوات الأوان، لكنني أجبته :

- الوطنية، الحرية، الشعب حبيس الدّولة، و الدّولة تأخذ أرواح المواطنين متى ما شاءت، أريد أن أكون جزءًا من إنقاذ هذا البلد، أريد للشمس أن تشرق من جديد..

اِعتلت شفتاه بسمة ساخرة ثم قال :

- أثرت إعجابي بجوابك هذا، أُنظر يا مراد، سيكون عليك القيام بأول مهمة لك حتى تثبت جدارتك وكل شيء تعلمته هنا .

أطرفت في حماس :

- أجل، أودُّ ذلك كثيرا،

في الواقع كان الأمر مشوّقا حينها، ظننت أنني سأحظى و أخيرا بفرصة حقيقية لإسعاف وطني ..

- لكنّها مهمة اِنتحارية ..

- ماذا ؟ هذا يعني أنني سأُقتل، سأنتحر، لكن الإنتحار حرام، حرّمه الله سبحانه و تعالى ..

- حين تُضحّي لأجل حرية وطنك، لا يكون اِنتحارا، بل اِستشهاد ..

- و لما عليّ أن أكون جزءا من هذا ! لم أفهم ..

- حسنًا، غدا سيكون بعضٌ من كبار المسؤولين متواجدين في مقهى، لن أخبرك بإسم المكان تحديدًا، يكفيك أن تعرف أنهم طغاة وأنهم سبب الجحيم الذي يعيشه وطنك، وهنا سيأتي عملك، سيتمّ إعطاءك حزامًا ناسفًا، ستقوم بإرتدائه، طبعا ستكون على تواصل مع جماعتنا، سيُمهلونك الوقت حتى تدخل المقهى و تجلس بمكان قريب من أولئك الطُغاة ثم بعدها سيعطونك الإذن بالقيام بالتفجير..

سألت :

- و ماذا بعد ؟ سأموت !

- لا، بل ستكون شهيدا و ستعانق الراحة روحك بعد أن تقتل هؤلاء الناس، ليسوا بأبرياء بل نحن، تذكّر ذلك .. لا تقلق، فكّر جيّدًا هذه الليلة، و إن لم يعجبك الأمر أو كنت خائفا، ثم رمقني بنظرةٍ ساخرة، أثارت غضبي وواصل ؛ لن تقوم بذلك..

- سأفكر بالأمر..

ثم غادرت بعدها لمكان نومي، قضيت الليل بطوله و أنا أفكّر بما قاله لي، كنت محتارا بين النّجاة و الحياة، النّجاة كانت بالتضحية بينما الحياة فبالعيش كباقي الناس، بالإنتظار .كنتُ مشوشًا عما ستكونه نهايتي، ما الذي كان أبي لِيُخبرني به لم أعرف ما الذي عليّ فعله .. لكن في الصّباح قضيتُ صلاتي، سلّمْت أمريَ لرب العالمين، دَعوْتُهُ، و حمِلتُ القرآن معي، كنت متأكدا من قراري حينها..

ذهبت الى القائد وواجهته وقلت مباشرةً :

- سأقوم بالأمر

- إبتسم وقد شد كتفي بقوة وقال :

- أحسنت الإختيار، لم تُخيّب ظنّي بك، لستَ بجبان..

كانت هذه الكلمة تستفزّني بكلّ ما تحمله من معنى ..

أطرفتُ في غضب :

- لو كنتُ جبانًا لَمَا وطأتْ قدَماي هذا المكان و لَمَا كنتُ واقفًا أمامك الآن..

- أعلم ذلك، لهذا أنت هنا اليوم ..والآن لِنُجهّزْك للعملية...

ثم بعدها تمّ تركيب حِزام ناسف بجسدي، تحت الملابس، وتمّ إعطائي كل التعليمات اللازمة التي عليّ تنفيذها جيّدًا، و تمّ تركيب جهازٍ صَوْتِيّ بأُذُني حتى أبقى على إتصال معهم ..

ذهبنا لذلك المقهى بالسيارة وكانوا قد قاموا بوضع غطاءٍ أسود على رأسي، حجب الرؤية عني، حتى وصلنا، و توقفنا بعيدا عن الملأ، نزعوا ذلك الغطاء عني، وترجّلتُ أنا من السيارة، توجّهتُ إلى المقهى، و أخذت موقعي، مرّت ربع ساعة و أنا أنتظر منهم أن يُعطونَني الإشارة لتنفيذ الخطّة، تأمّلتُ المكان جيّدًا، بدا أولئك الناس كأشخاص عاديّين، لم يبدو لي أنهم من كبار المسؤولين، ثوانٍ حتى جاءني صوت أحدهم عبر ذلك الجهاز ؛ الآن، اِفعلها الآن، إضغط على الزّر، لم أتردّد للحظة ولم ينتابني أيّ شكٍ بقراري، أغلقتُ عيناي، نَطقتُ الشّهادتين ثمّ ضغطتُ على الزّر...

***

ياسمين

مستلقية أسفل فراشي،بعدما ألقيت نظرة على المنبه الذي يبدو أنني استيقظت قبل أن يرن بنصف ساعة،أنظر إلى الخارج من النافذة وكيف أن الضباب قد احتل نصفها،ضباب الصباح المعتاد في فصل الشتاء،برودة خفيفة،سماء سوداء، جو معتم يشبه الأمسية وكأنها الساعة الثامنة ليلا إلا أنها قاربت السابعة صباحا،على وشك أن تمطر وتنفجر تلك السحب بغزارة،يشعرني هذا الجو بالراحة، وكأن مزاجي يغدو أفضل بمجرد أن آخذ نزهة تحت هذا الجو الكئيب،يبدو كئيبا لأن كل شيء من حولك يشبه السواد،الطرق مطلية باللون الرمادي،قطرات الأمطار جعلتها تبدو أغمق قليلا،نسيم البرد الخفيف،غالبا ما يكون قاسيا في الصباح ثم بعدها يصبح أخف، وحتى وجوه الناس تكون عابسة،وهم يمشون بسرعة كبيرة متفادين أي بركة ماء بالطريق ومتأففين من تلك السيارات التي تبلل الشخص ببركة المياه تلك بمجرد أن تمر من جانبه،لكنه يبقى الفصل الأحب إلى قلبي،حتى جوه الكئيب ذاك يشعرني براحة عظيمة، إنه كئيب بشكل جميل.

يوم آخر من أيام الجامعة،إنها السنة الأخيرة، سأتخرج أخيرا،"التخرج" هذه الكلمة لها وقع جميل على الأذن، بمجرد أن تنطق الكلمة تجتمع مختلف الأحاسيس داخلك ؛"حماس، إبتهاج، غبطة، سرور .." حتى وإن قال الذين قد عاشوا هذه التجربة قبلا أنها لا تساوي شيئا وأن ما يأتي بعدها مجرد ظلام دامس وأنها مجرد كلمة ومجرد شهادة. لكنك لن تعلم ماهية ذلك الشعور حتى تعيشه بحذافيره، لقد عاشوه فعلا واستمتعوا باللحظة ثم حين صدمهم الواقع بانعدام الوظيفة واجهوا ذلك بنكران تلك اللحظة ونفوا أحاسيسها. التخرج فعلا شيء جميل لكنه فقط يصبح أجمل عند إيجاد وظيفة.أظن أن سنواتي الماضية لا تستحق أكثر من كلمة عادية أو ربما روتينية لكن هذه السنة أظنها مميزة بعض الشيء، لا تستحق أن يطلق عليها "عادية"وحتى وإن كانت روتينية فقد أمست كذلك بشكل جميل و مميز،حصل ذلك منذ أن إلتقيت بأمجد،كل شيء أصبح مختلف، كل يوم عند إستيقاظي من النوم تنتابني غبطة حلوة لأنني سأراه،في كل مرة أتحدث معه أشعر بسرور بالغ وكأن الأيام تصبح ذات معنى فقط حين ألقاه." إبتسمت حين فكرت به ثم ألقيت بنظرة خاطفة على الساعة لأجدها السابعة تماما، يبدو أن الوقت يمر بسرعة حين تغزو الأفكار أذهاننا،قمت من على السرير وأنا أصيح على زهرة حتى تستيقظ هي الأخرى،لكنها لم تستجب،نظرت إليها فإذا بها تنام بعمق فهززتها بحنان وأنا أمسح على خدها بكف يدي وقلت:

- هيا يا عزيزتي لقد حان وقت المدرسة.

التفتت إلي ونظرت بنصف عين مفتوحة وهي تحك عينها الأخرى بيدها كطفلة صغيرة وقالت :

- حسنا سآتي بعد قليل.

ضحكتُ ثم خرجت من الغرفة وأنا أصيح :

- ستتأخرين، هيا أسرعي.

أحب صباحات كهذه والأكثر صباحات الشتاء هذه، رائحة الأرض بعد المطر أشبه بعطر لاذع. ارتديت ثيابي بعدما غسلت وجهي ثم بعدها فطرنا سويا كأي عائلة وحين حان الوقت توجهت بخطوات مسرعة إلى موقف الباص حتى ألقاه لكن يبدو أنني أتيت مبكرا هذا اليوم،فلم أراه هناك، كان دوما يقف منتظرا قرب المحطة الصغيرة أينما يجلس أناس داخلها،نظرت شمالا ويمينا لربما غير مكانه

لكنه لم يكن موجودا، لم ألمحه هناك.اعتدنا دوما أن نلتقي عند موقف الباص كي نذهب سويا إلى الجامعة،ومن هناك تبدأ أحاديثنا التي تسرق الوقت منا فلا نحس به أبدا،لذلك متعة خاصة عندي،أتى الباص وهو لم يأتي بعد،كان يجب علي أن أصل للمحاضرة بالوقت المناسب لذا ركبت مضطرة ولم أنتظر أكثر هرعت بسرعة إلى حيث إعتدنا الجلوس،أنا قرب النافذة وهو بجانبي، جلست بمفردي،بمجرد أن امتلأ الباص بالركاب انطلق السائق برحلته المعتادة حتى يصل كل منا إلى وجهته،رحت أتأمل الطريق عبر النافذة وأنا أفكر به،تساءلتُ في نفسي :

- لما لم يأتي ! هل حدث له شيء !

ثم خمنت :

- ربما لم يستيقظ بالوقت، لعله نسي أن يضبط المنبه.

حدثت نفسي مجددا :

لا بأس سأعرف منه حين نلتقي.

بدأت الأمطار تهطل،لازال الجو معتما،إلا أن الضباب قد إختفى، انقضى الوقت وأنا أحدق من النافذة،وصلنا أخيرا،نزلت بسرعة بعدما دفعت للسائق حقه من الأجرة،أخذت امشي بخطوات سريعة وسط زحام الطلاب حتى أصل إلى كليتي على أمل أن ألقاه هناك ينتظر لكن باءت توقعاتي بالفشل فلم ألقاه.قلت في سري :

- سيأتي حتما،فقد إتفقنا أن نكمل المشروع اليوم سويا بالمكتبة.

دلفت القاعة وأنا أراقب كل من هناك لعلي أراه لكن لم يكن موجودا هنا أيضا،جلست على مقعدي مستاءة بسبب غيابه بعد أن دخل الأستاذ القاعة وشرع بإلقاء خطاب درس اليوم .

مرت الساعات وانتهت المحاضرات،لم اعلم إلي أين يتوجب علي الذهاب كان من المفترض أن نذهب إلى المكتبة سويا حتى ننجز عملنا، فقبل أسبوع كلف أستاذ مادة "تاريخ آسيا الحديث والمعاصر"كل طالب من دفعتي بمشروع يخص المنهاج الدراسي وتمثل ذلك المشروع في (إستعراض تطورات الحرب الصينية - اليابانية ١٩٣٧- ١٩٣٩ وتداعياتها) قال بأنه يقبل العمل الفردي والجماعي كذلك، فأردت وامجد أن نعمل سويا وكنا قد إتفقنا أن نلتقي هذا اليوم بالمكتبة حتى ننجز نصفه على الأقل،كان قد وعدني بأنه سيأتي لكنه لم يظهر لحد الآن.

بدأت المطر تهطل والكل يهرع إلى الداخل،يمشون بخطوات سريعة في مجموعات محاولين تفادي قطرات المطر تلك، أردت أن أكون تحتها،أردت أن أغمض عيناي للحظة وان استمع للمطر وهي ترسو على الأرض قطرة تلو الأخرى بعض الأشخاص يشعرون بالبلل حينها لكن أنا أشعر بها،بالمطر، بالحياة. توجهت إلى المكتبة وسط ذلك الحشد المشتت من الطلاب إنتقيت كتابا يحتوي بعضا مما نريد انجازه ثم بعدها إخترت لي طاولة في الأخير وجلست أنتظر أمجد، الساعة الواحدة بعد الظهر،لم أرد المغادرة، لعله يأتي ولا يجدني، فتحت ذلك الكتاب ورحت أطالع ما كتب فيه صفحة بعد الأخرى لكن لم يكن عقلي يركز بمحتوى تلك الصفحات بقدر ما كان مشغولا بأمجد.

حدَّثتُ نفسي في إستياء :

- لقد قال أنه سيأتي، وكنت قد حذرته من الغياب .

ثم فكرت:

- أكيد طرأ شيء مهم له و إلا لما كان سيغيب .

حاولت طرده من أفكاري ثم عدت كي أستوعب الكلمات الموجودة بذلك الكتاب. كانت نصف ساعة قد مرت وأنا أقرأ بتمعن ما كتب في تلك الصفحات بدأ الملل يتسلل داخلي،لكني واصلت القراءة وقمت بتلخيص كل صفحة قرأتها كنت أدون الأشياء المهمة فقط، بمجرد أن شرعت في مطالعة ذلك الكتاب كان علي أن أبدأ بكتابة جزء من البحث، مر الوقت وأنا على تلك الحال ؛ اقرأ بتمعن،أحاول فهم المعلومات ثم ألخصها وأقوم بتدوينها، أصبحت الساعة الثانية ونصف زوالا وحضرته لم يشرف بعد ولا أظن أنه سيأتي فموعد إغلاق المكتبة اليوم على الثالثة مساءا، لو كان سيأتي لأتى.

تمتمت غاضبة وأنا أقوم بجمع أشيائي حتى أغادر:

- أبله،لقد اتفقنا أن ننجزه اليوم.

في الحقيقة لم أكن مستاءة لأجل المشروع بقدر ما كنت مستاءة لأنه نكث بإتفاقنا.

قلت في سري ساخرة :

- لنرى أي عذر ستقوله.

ثم بعدها غادرت الكلية وتوجهت إلى موقف النقل الجامعي،كانت الأمطار تهطل بغزارة،لم أسرع بخطواتي أبدا، رحت امشي في هدوء دون عجلة من أمري،أحب ذلك، المشي تحت المطر الشعور بها، يمدني ذلك بالراحة نوعا ما، وصلت إلى وجهتي، ركبت بالباص الذي انطلق بعد لحظات،قضيت الوقت بالتفكير به وبالتأمل بتلك الطرق المبللة والسماء الغائمة حتى وصلت وأخيرا إلى المحطة التي يجب علي أن أنزل بها. حينها سمعت أحد من المارة يتحدثون عن مظاهرات قد حدثت صباح هذا اليوم، علمت على الفور سبب غياب أمجد هذا الصباح. فلم يكن ليفوت له حدثا كهذا .

أشعر بغبطة حلوة حين أتمشى بجو ممطر كهذا، شعرت لوهلة بشخص يمشي خلفي و كأنه يتبع خطواتي، كنتُ على وشك أن أزيد من سرعتي لكن أتاني صوت مناديا باسمي من الخلف، علمت على الفور أنه صوته، ابتسمت ثم اِلتفتُ إليه وقد توقفت عن المشي، أطرف قائلا:

- آسف لأنني تخلفت عن موعدنا .

سألته بحزم:

- إذن، أين كنت منذ الصباح؟

هز بكتفيه وقال :

- لقد كنت بالمظاهرات .

تأففت قائلة :

- ألن تتوقف عن ذلك ؟

أردف مبتسما:

- أنت تعرفين جيدا أنني لن أتوقف عن ذلك أبدا

قلت متذمرة:

- ماذا عن دراستك، هل ستتوقف عن ذلك ؟

- حسنا، أنا آسف لما فعلته، لنقم بذلك الآن، إن أردت ذلك طبعا.

كان بالفعل جو جميل، وقد اِزدادت غزارة المطر قليلا بعد، اِبتسمتُ له في عبث وقلتُ:

- لِنقم به غدا، لا بأس بذلك.

نظر بعيني مبتسما، و كأنه يعلم مسبقا أنني سأقول ذلك . اقترب مني قليلا ثم أطرف:

- أتعلمين أنك أنتِ لوحدك تملئين كتابا من مئة صفحة، تسدين كل الفراغات الموجودة بين السطور.

اِرتبكت،توترت، وقد تسارعت نبضات قلبي، فجأة شعرت بموجة حرارة تجتاح وجهي رغم برودة الجو . أشحت نظري عنه وقد اِبتعدت عنه وقلتُ في تلعثم:

- ما الذي تقوله؟ ما مناسبة هذه الكلمات الآن ؟

اِبتسم ثم قال:

- لستُ أعلم، هكذا أتى من داخلي أن أقول ذلك الآن. فحين أراكِ تخطر مثل هذه الكلمات على بالي فجأة.

بكل مرة يقترب مني هكذا بشكل مفاجئ وكأنني على غير استعداد للقاء عينيه .حين يفعل ذلك .تصبح نبضات قلبي أعلى من صوت أفكاري، أكاد اجزم أن قلبي أوشك على الظهور من مكانه حينها. ثم أنني أصبح مشوشة ولا أعرف ما الذي علي فعله فينتهي بي الأمر للغضب منه وقول تُرهات لا ينبغي قولها حتى إنني لا أفكر قبل التلفظ بها فقط أرميها بوجهه هكذا لكنه يستمر بالضحك بدلا من الاِستياء ويُعلل حركته تلك بكلمات غامضة تنهش عقلي حتى أنني لا أعلم أحيانا ما إن كان جديا في كلامه أم أن كلماته وليدة اللحظة، سحابة عابرة لا غير..

مراد

تصفيق على الجهة الأخرى ثم كلمات : الله أكبر، الله أكبر.. لم أفهم ما الذي يحصل، فتحت عيناي وإذا بي حي أرزق، ما الذي يحصل هنا ! لِمَا لم تنفجر ! أتاني صوت القائد :

- لقد أثبتّ ولاءك يا مراد، أنت مِنَّا .

- ماذا ؟ هل كان كل هذا مجرد لعبة !

لقد أخبرتك أنه إختبار، والآن أُخرج من المقهى، ستجد جماعتنا بإنتظارك، سَيَقِلونك إلى مكاننا المعتاد.

كان الأمر مجرد إمتحان، لكنه أثار غضبي قليلا، لكن كان عليهم فعل ذلك حتى يتمكنون من الوثوق بي، هذا كان جوابه، حين قلت مُحتجًا :

- هل كان لكل ذلك لازمة ؟ هل كان ذلك الهراء هو ما يحدد وطنيتي ؟

- كان لابُدّ من فعل ذلك، حتى نرى إن كنت جدير بالثقة أم لا، ثم واصل في هدوء و هو يرمقني بنظراته الساخرة :

- في الواقع يا مراد، بدَوْتَ لي شخصا مُمَيَّزًا عن كل الموجودين هنا، لهذا أردت أن أصدق حدسي، و حتى أفعل ذلك كان لابُد من أن أختبرك.

سألته:

- والآن ؟

أجاب :

- قررت أن أكافئك، ثم أشار لِخَلفي .

و حين إلتفتُ وجدت فتاة بريعان شبابها، بدا عليها الخوف فقد كانت يداها ترتجفان و تنظر بعينيها للأسفل، ترتدي ثوبا أبيض اللون، بدت و كأنها عروس بِلَيلة زفافها .

أطرفتُ مُحاولاً إستيعاب الأمر:

- ماهذا ! من هذه ؟

- هذه خليلتك، ألَمْ تُعجبك ؟

أجبته بغضب :

- أنا لا أريد أية خليلة، خذها بعيدا .

أطرفَ بهدوء وعليه نفس نظرات السخرية تلك، كانت بمثابة اِستفزاز بالنسبة لي، كأنه كان ينتظر في كل مرة أن أتمَرّد عليه، كأنه يفعلها عمدا ليرى ردّة فعلي لكني كنت أتجاهل ذلك دوما، لم أعطه ما يريده .

- هل ترفض هديتي يا مراد ؟ أليس ذلك عيبًا برأيك ؟

- لستُ موافقًا و إنتهى .

إحْتَدّت نبرته :

- أنا الآمر هنا، أخبرتك أنها لك، إنها مكافئتك لأنك نجحت بإمتحاننا، هيّا خذها معك ولا تناقشني بالموضوع .

- لَمْ أستطع إقناعه بعكس ذلك، فأخذتُها وغادرت لِغُرفَتِي .

كنت أسبقها بخطواتي بينما كانت تمشي خلفي، كنت أعلم أنها خائفة ومرتعبة، وصلنا، دخلتُ أولاً ثم إنتظرتها لتدخل و أغلق الباب، دلفتْ المكان بسرعة و دارت خلفها كأنها لم ترد رؤيتي، علمتُ حينها أنه يجب عليّ أن أتحدث معها، حاولت أن أفهم منها لما هي هنا، فسألتها في هدوء :

- ما الذي أتى بك إلى هنا ؟

أجابت بصوت خافت بعد أن إلتفتت إليّ :

- لَمْ آتِي بإرادتي، أخذوني عنوة .

- ماذا ! كيف ذلك ؟ هل تَمّ إختطافك ؟

ردّت بنبرة باكية :

- أجل، قتلوا والدي و أتوا بي إلى هنا، قاومتهم لكنّ أحدهم صفعني بقوة أودت بي أرضًا..

لم أتمالك أعصابي حينها، فكيف لشيء كهذا أن يحدث هنا، سألتها:

- منذ متى و أنتِ هنا ؟

- منذ حوالي شهر..

لان قلبي لوضعها، شعرت أنه يجب عليّ أن أساعدها، أردفتُ محاولا أن أطمئنها :

- لا تخافي، لن أؤذيك، فقط أريد منك أن تخبريني بحكايتك، لَربما أستطيع مساعدتك .

ردّت في حماس :

- أحقا ! هل يمكنك ذلك ؟

- سأحاول.

لم يبدو لي أنها من سوريا، فلهجتها بدت مختلفة قليلا فسألتها :

- إذن، من أنتِ و مِن أين أتيتِ ؟

- أدعى سونيا، كنت أعيش مع والدي بقرية أودلوك بأربيل،في الواقع نحن إيزديان لكننا انتقلنا للعيش بأودلوك، لغتي العربية ليست جيدة كفاية كما ترى، لكنني أستطيع فهمها أي إستيعاب هذه اللغة، كنت أبذل ما بوسعي لأجل تحسين لغتي قبل أن ينتهي بي الأمر هنا . أنت تعرف أين تقع أربيل أليس كذلك ؟

- أجل، أعرفها (هي مدينة عراقية ومركز محافظة[1] أربيل وعاصمة إقليم كردستان العراق. وتبعد عن بغداد حوالي 360 كم وعن الموصل 89 كم)

- 1 محافظة أربيل) بالكردية :پارێزگای هەولێر) هي إحدى المحافظات الواقعة في شمال العراق.كانت مدينة أربيل عاصمة لمنطقة الحكم الذاتي وتعتبر في الوقت الحالي عاصمة أقليم كردستان العراق الذي تشكل في أعقاب حرب الخليج الأولى عام.1991

- .وتقع محافظة أربيل في شمال العراق تحدها من الشمال تركيا ومن الشرق إيران وتبلغ مساحتها (13165) كم مربع وتقع المحافظة ضمن السهول ذات مناخ انتقالي بين البحر المتوسط والمناخ الصحراوي وتتميز بالبرودة الشديدة وانخفاض معدل الرطوبة، واعتبرت أربيل العاصمة الصيفية للعراق في زمن النظام السابق، وذلك لأهميتها التاريخية عبر العصور ولكونها مركزا ثقافيا وحضاريا مؤثرا في شمال العراق.

بدا لي أن الحكاية ستزداد تعقيدا لذا طلبت منها أن تواصل في حديثها، قالت والحزن باد على ملامحها :

- كانت الساعة الثامنة ليلا حين هاجم مسلحوا التنظيم المتشدد قريتي حاصروا القرية و قاموا بإعتقال الرجال قبل قتلهم ...شهقة بكاء قاطعت حديثها فقمتُ لإحضار كوب ماء لها ..

- تفضلي ..

- شكرا لك..

ثم إرتشفت منه قليلا .. سألتها :

- هل كان والدك معهم .

أجابت و الدموع بعينيها :

- أجل، للأسف، كان الأمر مؤلما جدا .

زاد إندهاشي فلم أكن أعلم أنهم يفعلون هكذا، و لم يبدو لي أنها تزيف الأمر بدت لي صادقة بكلامها .

- ما الذي حدث بعدها ؟

- قاموا بوضع النساء و الأطفال في سيارات ثم أخذونا إلى مكان بعيد وهناك تم فصلنا أنا و بعض الفتيات، تم أخذنا إلى قصر كبير، بقينا هناك لثلاثة أيام، ثم بعدها أتى إلينا شخص مسلح، كان منهم، أخبرنا أنه زعيم المسلحين، ولأن نصفنا اِيزديٌ و الباقي من الشيعة قال بأن الوقت قد حان لنعتنق الإسلام وأنه سيتم تزويجنا لعناصر التنظيم ثم هددنا بالموت إن رفضنا ذلك فلم يكن لدينا أي خيار سوى أن نقبل بذلك ثم بعدها قاموا بجلبنا إلى هنا .

تصاعد الدم بعروقي، أطرفتُ في غضب :

- يا لهم من أوغاد، هل يقومون بقتل أولياءكم و إختطافكم تحت إسم الإسلام، ثم قلت لها مُبَررًا :

- اُنظري، فعل كهذا لا يمثل الإسلام أبدا، ديننا لا يقول هذا، ديننا حرم القتل أصلا، هذا الذي يقومون به مجرد كذب .

سألتني بتردد :

- هل ستساعدني بالهروب من هنا ؟

- بالطبع، سأفعل ما بوسعي، لكن قلتي لي أن والدك قد قُتل، إلى أين ستذهبين إذن ؟

أجابت بإستياء :

- لا أعلم، أريد فقط الخروج من هنا .

أطرفت :

- حسنا، أُنظري، سنتظاهر أن كل شيء بخير، يعني أن الأمور بيننا على ما يرام، لا تخبري أي أحد بما أخبرتني به، أفهمتِ ! أمهليني بعض الوقت، لست أعلم كم من الوقت أحتاجه لكن سنتدبر أمرنا، يمكنك الوثوق بي .

- حسنا، ثم أضافت بهدوء :

- أنا أثق بك .

كانت تلك النكسة الأولى منذ وصولي إلى هناك، كنت أرى بعضا من النساء المُنَقّبات لكن لم يخطر ببالي أن أسأل كيف أتوا إلى هنا . ظننت أنهم قد أتوا بإرادتهم مثلي تماما . طوال تلك المدة لم أحس بأي غرابة،كان الأمر عاديا، لكن منذ تلك الليلة وأنا أشعر أنني ربما إقترفت خطأً بالمجيء إلى هنا ..

بداية، قبل كل شيء بدا لي أن هذا التنظيم هو الأصح، و كأنه يتناسب مع مبادئي و معتقداتي، كان خارجه مغريا لدرجة كبيرة لاسيما أنهم يزينون كل أحاديثهم بالإسلام كأنهم بذلك يحاولون جذبك إليهم، يستغلون الناس بالإسلام يقومون بأبشع الجرائم و يبررونها بالإسلام والدين، دنّسوا الإسلام بأفعالهم تلك ...

في أحد تلك الأيام المشؤومة، تم إرسالنا إلى مدينة الموصل بحجّة تعزيز المقاتلين هناك، كان التنظيم قد أقحم بعضا من الأطفال في القتال أيضا وحين سألت القائد مستفسرا قال لي بأنه يجب عليهم تعلم الجهاد ..وهذا ما أتوا لأجله.

كنتُ قد أصبحت قريبا منه بعد تلك المرّة، لم يكن يخفي شيئا عني، وكنت أحاول جاهدا إخفاء كل شيء عنه، لأني أردت الرحيل . وحين سألته ذات مرة عن حكاية الإختطاف قال بأن التنظيم يدعو للإسلام وأن هؤلاء النسوة الذين تم إحضارهن إلى هنا، فقط لأجل مصلحتهن، أردت أن أسأله عن قتل عائلاتهم، هل هو جزء من الإسلام أيضا لكني كتمت غضبي وتجاوزت الأمر..

تم نقلنا إلى الموصل بعدما تم فصل الأطفال عنّا بشقة مغايرة، مكثنا تلك الليلة هناك، لم ينتابني النوم حينها، في الواقع لم ينتابني معظم الليالي وأنا أفكر

بخلفية هذا الأمر كلّه، كأن كل شيء أصبح عكس توقعاتي، مجرد مظاهر خادعة تزينت بإطار الإسلام، مجرد واقع دمره هذا التنظيم بحجة الدين و إقامة الدولة الإسلامية، أولا، كانت حكاية تلك الفتاة، ولا أعلم بعد كم يوجد هناك مثلها، ربما المئات، ربما آلاف النساء . لكن ما أثار غضبي أكثر و ما أكد لي حقيقة هذا الشيء كان التحرش بالأطفال، إضافة إلى تدريبهم على القتل و سفك الدماء لتنفيذ مخططاتهم الإرهابية الدنيئة بعد غسل أدمغتهم و غرس تعاليمهم الخبيثة بهم أطفال أبرياء سلبت منهم طفولتهم تحت يد وحوش بهيئة بشر. حدث ذلك في تلك الليلة بالموصل، ظللت مستيقظا وقتها، وحينها سمعت وشوشات و أصوات لم أعرف تحديدا أين، لذا خرجت كي أتفقّد المكان، كان الصوت أشبه ببكاء أحدهم، تبعت الصوت حتى وصلت إلى غرفة كان يصل منها بعض من الجلبة، إقتربت قليلا من الباب الذي كان مشقوقا بحيث إستطعت أن ألمح وجود الذين بالداخل، كان هنالك إحدى المقاتلين وطفل صغير بجانبه يبكي وذلك المسلح يصرخ عليه، علمتُ أن هنالك خطبٌ ما، فدَلفتُ الغرفة بسرعة، و سألت :

ما الذي يحصل هنا ؟ ما الذي تفعله رفقة هذا الطفل و لِمَا هو يبكي ؟

إرتبك من دخولي المفاجئ و توترَ قبل أن يجيب :

- إرتكب هذا الصبي خطأً فعاقبته، ثم صرخ بوجه الطفل : هيا اِذهب لغرفتك..

فغادر الطفل بسرعة خوفا منه و دموعه بعينيه.

- لم أستوعب الأمر فسألته مجددا :

- ما الذي كان يفعله عندك ؟

أجاب بإمتعاض:

- لقد أخبرتك أنه أخطأ وأنا عاقبته .

- أ كان عليك فعل ذلك ؟ لِمَا لم تُرِه الصواب وحسب، بدلا من معاقبته ؟ لا يزال صغيرا .

ردّ في غضب :

- ومن أنت حتى تحاسبني؟ هيا اِرحل لمكانك أيها المقاتل و لا تتدخل فيما لا يعنيك .

غادرت على الفور، لكنني كنت متأكدا أن هناك شيء آخر غير حكاية العقاب تلك، لذا تَعَقَّبْتُ خطوات ذلك الطفل، كان يجري بسرعة و كأنه يهرب من شيء أمسكته من ذراعه:

- اِنتظر قليلا ..

لكنه كان يصرخ باكيا محاولاً الإفلات مني :

- أُتركني، أرجوك أُتركني ..

أفْلَتُهُ ثم رفعت يداي مستسلما وقلت بهدوء حتى لا يخاف :

- حسنًا، لقد أفْلَتُك، لا تخف، لن أؤذيك، لا تبكي يا صغير..

هدأ قليلا ثم قال وهو يمسح عيونه بكفّيه :

- أرجوك لا أريد ذلك، دعني أذهب .

- لا أريد منك أي شيء يا صغيري، ماذا تقصد بأنك لا تريد ذلك ؟ ما هو الذي لا تريده ؟

- لا أريد نزع ملابسي، ولا أن أغلق عيناي، ثم أخذ يبكي و يقول : حينها يحصل شيء سيء لي ..

سألته في دهشة :

- هل ذلك الشخص الذي كنتَ عنده هو من فعل لك ذلك ؟

- أجل، إنه هو، لكني لم أقترف أي خطأ، راح يصرخ علي ويضربني حين رفضت ذلك للمرة الثانية، لا أريده أن يعاقبني مرة أخرى، أنا لم أفعل أي شيء .

ثارت أعصابي وعلت نظرات الغضب ملامحي، فهمت أنه قد تحرّش به ..

- أُنظر إليّ يا صغيري، إن آذاك مرة أخرى أو أحد آخر قام بذلك فقط أخبرني، هل فهمت ؟

أوْمَأ برأسه :

- أجل، فهمت.

سألته :

- كيف أتيتَ إلى هنا ؟

- أتيتُ مع والدتي، قالت أنه طريق الجنة، لكنهم أخذوني بعيدا عنها .

- آه يا صغيري، إنهم بارعون بالكذب.

علمتُ حينها أن هذا التنظيم فعلا إثم عظيم، أوصلته لغرفته ثم عدت بعدها إلى ذلك المسلّح، إقتحمتُ غرفته مباشرة ثم لكمته بوجهه حتى سقط أرضا..

- هذه لأنك لمست ذلك الطفل الصغير ؛ ما هذه الوحشية أيها الحقير ؟ أين دينك الذي تعْتَزّ به ؟ هل أمرنا الإسلام بالإعتداء على الأطفال؟

لم أتمالك نفسي و رحتُ أضربه بشدة حتى جاء بعض من المقاتلين و حاولوا إيقافي عن فعل ذلك ، ثم بعدها حضر القائد إلى المكان وسأل في غضب :

- ما الذي يحصل هنا ؟

لَمْ أتردد للحظة و أنا أخبره كيف أن هذا الوحش قد إعتدى على طفل صغير لا حول له ولا قوة . ثم ما هي إلا ثوان قليلة حتى أخرج سلاحه وأطلق عليه برأسه ثم قال بكل برودة أعصاب :

- خذوا جثته و إدفنوها بعيدا ..

ثم قام ثلاثة منهم بحمل ذلك الشخص وأخذه من الغرفة، وبعدها تم أمر الجميع بالانصراف لمكانه .. وقفت أحملق به و بالمقاتل الذي أرداه أرضا، هدأت ثورة غضبي بمجرد أن أطلق عليه لكنني عجزتُ عن تصديق ما حدث للتو، وكيف أنه قام بقتله مباشرة، هكذا قتله دون أن يَرُفَّ له جفن ... دون حتى أن يسأله عن حقيقة الأمر..كان القتل لديهم هيّنًا جدا، قلوبهم ميتة، هذه كانت القاعدة الأساسية ألا وهي إنعدام الرّحمة، لا شفقة .. يُعلِّمونَ ذلك لكُلِّ الشباب هناك وخاصة الأطفال، يكبرون على الحقد، القتل و العنف، أخبرني القائد ذات مرة أن الرحمة هي سبب ضياعنا اليوم، كان ذلك حين عجزتُ أن أُطلق رصاصة واحدة على إحدى الرهائن بالموصل ..

هيا، أطلق، ما الذي تنتظره !

أجبته بغضب وأنا أوجِّه السلاح نحو ذلك الرجل وهو ينظر إلي بتوسل :

- لن أفعل.. إنه بريء لا ذنب له ..

- بل هو كافر، كيف لطبيب أن يكشف على النساء، هيّا أُقتله..

لَمْ أستطع القيام بذلك، لم أستطع الإقدام على كذا فعل، فرميتُ السلاح أرضا وإبتعدت .. لكن ذلك لم يمنع من حدوث جريمة القتل تلك، أطلق عليه مقاتل آخر بمجرد إبتعادي عن المكان، كانوا ثلاث طلقات، ثم هوى ذلك الطبيب أرضا . كان قتله بالرصاص أهون من ذبحه، كما اعتادوا الفعل مع الرهائن من

قبله، الذبح كان يُعدّ جزءا كبيرا من حياتهم ..سبب تافه، وكيف لطبيب أن يترك مرضاه لمجرد أنهم نساء، تمّ أمرنا بالهجوم على عيادته لأنه يدخل النساء عنده بنظرهم كان ذلك كفر فلا يحِقّ له كرجل أن يفعل ذلك .. لكنّهم أخذوا أولئك النِّسوة لأنفسهم مُتجاهلين الدّين الصحيح، الفرق بينه وبينهم شاسع، هو أدَّى واجبه الإنساني بينما هم قاموا بأسوأ الجرائم بحقّ الإنسانية..

كانت رغبتي بمغادرة ذلك المكان تزداد كل يوم، أردت الرحيل بأسرع وقت ممكن، لكن لم أستطع، كان الأمر يزداد تعقيدا كل يوم وجرائم أكثر كل مرة حاولت جاهدا أن لا أكون جزءا منها لكنني كنت كذلك، حتى لو أنني لم أكن المساهم الأكبر بحدوثها إلا أن رؤية كل ما يحدث والبقاء مكتوف اليدين أنّبَنِي ..تَغَاضَيت، لم أرد التصديق أنني كنت على خطأ لأنني كنتُ أعلم كل شيء حينها بل فعلا كنتُ على خطأ حين ذهبت إلى ذلك المكان من أصله...

"اليزيديون أو الإيزيديون بالكردية" :ئێزیدی، Êzîdî هم مجموعة عرقية دينية[1] كُرديّة ذات جذور آريَّة ومُتحدِّثي الكرمانجية، تتمركز في منطقة كُردِستَان . يعيش غالبية اليزيديين الباقين في الشرق الأوسط اليوم في المناطق المتنازع عليها في العراق، وبشكل أساسي في محافظتي نينوى ودهوك .كما تأثروا بمحيطهم الفسيفسائي المتكون من ثقافة عربية، حيث مازال بعض جماعاتهم ترتدي زي عربي، يرى اليزيديون أن شعبهم ودينهم قد وُجدا منذ وجود آدم وحواء على الأرض ويرى باحثوهم أن ديانتهم قد انبثقت عن الديانة البابلية القديمة في بلاد ما بين النهرين.ويرى بعض الباحثين الإسلاميين وغيرهم أن الديانة اليزيدية هي ديانة منشقة ومنحرفة عن الإسلام.

يوم ١٥ / يوليو / ٢٠١٣...

يومٌ مشمس، سماء صافية، حرارة الجو دافئة بما فيه الكفاية، إنه الصّيف بِحُلَّتِهِ المعتادة غير أن الحرب و اِختفاء فردٍ من العائلة قد أَضْفَى صقيعًا على القلوب، كان الجميع في غِنًى عن التذكّر أو الحديث عن الأمر رغم أن الأسئلة والأفكار الضائعة تنهش داخلهم، لكنّهم يخافون الحديث عن ذلك، يرفضون الدخول بمتاهة ليس لها مخرج . لازال الأب يحاول جاهدا العثور على إبنه، لم يفقد الأمل ؛ هذه أجمل سِمَةٍ بالحياة، الأمل، لا يجب فُقدانه مهما حدث...

أطرفت ياسمين :

- أسرعي يا زهرة، سنتأخر..

ردّت في جوٍ من المزاح :

- لا، لن نفعل، أنتِ فقط تبالغين، و حتى إن تأخرنا واثقة أنهم لن يرفضوا إعطاءك شهادة التخرج حينها، سيُسْعَدون بالتخلص من دفعة أخرى .

- لا يهم، أريد أن نصل بالموعد، لقد قاربت العاشرة.

- حسنًا، لقد إنتهيت، سنصل، لا داعي لكل هذا القلق.

في الواقع ما كان سبب هذه الجلبة هو أنها أرادت الوصول في الموعد كما اِتفقَا عليه، لَمْ تُرِد تفويت لقاءه، فقد مرّ وقت طويل منذ آخر مرة اِلتقيا بها، أرادت الحديث معه وهي تنظر بعينيه بدلا من الدردشة لساعات على مواقع التواصل إنتظرتْ كثيرا لأجل هذا اللقاء، لم تَعلمْ لماذا، لكنّها متحمّسة للأمر، لا تفلح بوصفه بل فقط تُسميه صداقة .. تعوّدَت على وجوده بحياتها، أفضل ما فعلته يوما كان تَعَرُّفَها عليه، أصبح جزءًا من أيامها ولا تَظنُّ أنها تستطيع الإستغناء عنه..

علاقتهما جميلة، لطيفة و ظريفة، ما زادها حلاوة كانت أحاديثه تلك عن كل شيء، و لم يسبق له أن وصفها بِالْمُمِلّة، أخبرها ذات مرة أنه يُحب ذلك ؛ صمتها ومزاجيتها، وحين سألته عن سبب ذلك، أجاب بأنه وحده من يملك الشيفرة لقلبها، وحده من يعرف السِّر، و لن يتمكّن أحدٌ من معرفته .. لم تجد ما قاله مَنطقيا بل اِعتبَرَتْه كمجاملة لا غير، لم تتَذَمّر يومًا بشأن ما هي عليه و لم يَتَذَمّر يومًا من كونها كذلك ..بدايةً، كان بالنسبة لها عُنوانًا للغموض، لَمَحَت ذلك من الوَهلة الأُولى، علِمَتْ أنه شخص كَتُوم، لا يَبُوح بقلبه، يَدَّعي أنه عديم المشاعر

لكنّه في الحقيقة كُتلةٌ من الأحاسيس، فقط تظهر بالوقت المناسب، و ما راقها أكثر هو أنه يعترف بقلبه، لا يُنْكِر أن له مشاعرا وأحاسيس، لكنه يفلح جيّدا في إخفائها بعيدا عن الجميع، أمَّا أمامها فهو العكس، يبوح لها بكل ما يُوجِع صدره وبكل ما يُثقِل قلبه، جعلها جزءا من عالمه، لم يَدخُلْه أحدٌ من قبلها ..

هي تحب الحديث معه بالرغم من أَنَّها أحيانا لا تجد ما تتكلم به لكنه يمهلها حق التفكير، حق الهدوء و يتولى هو الكلام كأنه يعلم جيِّدًا أنها حين تحتاجه تفشل في أن تَبُوحَ بنفسها له..

كانت معظم أحاديثهما عن السياسة، الأحلام، الطموحات و السّفر، كلاهما كان لديه هدف بحياته، كانت طموحاتهما أجمل من أن تُتْرَك خلفًا بالنسبة لهما، الإختلاف يُعتبر طابعًا مُمَيَّزًا بينهما، فقد أمهلَهُمَا ذلك حق التّعرّف على بعضهما أكثر، ما كان يُشَكِّل ذلك حاجزا لهما بل كان مجرّد أبواب أخرى يَفْتَحَانِهَا، يشبه الشغف...

وَصلتَا الجامعة أخيرا ثم توجّهَتَا للكليّة التي تدرس بها ياسمين ..

أطرفت زهرة :

- لِمَا أنتِ متوترة هكذا ؟ لقد وصلنا بالوقت.
- أعلم.. أجابت وهي تبحث بعينيها عنه، لستُ كذلك، أنا فقط متحمِّسة.

ضحكت زهرة :

- كل ما في الأمر أنها مجرد شهادة .

أطرفت ياسمين :

- ستكونين مثلي هكذا بعد عامين، و سَتَرَيْن .

قالت بنبرة ساخرة :

- لا أشكّ أبدًا في أنني سأكون مثلك.

وجَدَتْهُ، هو هناك يتحدث إلى سامي، أَشَاحتْ بِنَظرها بعيدا عنه، أخذت نبضاتها تتسارع، توَترٌ يشوب نفسها، لِمَا كلّ ذلك يحدث معها، هي تكره ذلك، لِمَا لا تكون هادئة فقط، لِمَا على الأمر أن يكون إستثنائيًا هكذا..

كان المكان مليئا بالطُّلاب الذين على مِحكّ التخرج، ينتظرون من القاعة أن تُفْتَح حتى يَهُمُّوا بالدخول، و ما هي إلاّ دقائق من الإنتظار حتى تم فتح الباب على مِصْراعيه و دخل الجميع .

دَلَفت و أختها المكان، أرادت أن تلفت اِنتباهه دون أن تقصد ذلك، اِختارت مكانا بالمقَدِّمة وجلسَتَا هناك ينتظران، إخْتارَتْهُ عنوةً حتى يراها حين يدخل القاعة، و حين تأكَّدت من أنه على وشك الدخول أشاحت بنظرها نحو أختها، كان قد لَمَحَها و أخيرا بعدما ظنّ أنها لن تأتي، إبتسم و راح يُلقي التحية عليها :

- صباح الخير ياسمين.

إدّعَت التّفاجأ، أرادت أن توهمه بذلك، إبتسمت له :

- صباح الخير يا أمجد، يبدو أنك أتيت متأخرًا .

- على العكس، بل أتيتُ باكرا، كنت فقط رُفقةَ صديقي سامي .

- حسنا إذن، ذلك جيد . ثم لاحظتْ غرابة الوضع بالنسبة لأختها فقالت في هدوء :

- أمجد، أُعَرِّفك، هذه أختي زهرة، زهرة، هذا أمجد زميلي بالكلية .

أطرفَ :

- تشرفت بمعرفتك يا زهرة .

إبتسمتْ :

- بل الشّرف لي .

وجَّهَ بنظراتِه نحو ياسمين ثم قال :

- حسنا، سأذهب لسامي، إلى اللقاء.

عبس قلبها، فلم تُرِد أن ينتهي لقاءهما هنا، أرادت الجلوس معه والحديث مُطوّلاً لكنّها اِبتسمت و قالت :

- حسنا، إلى اللقاء .

ثم غادر لمكانه وهي تراقبه بصمت حزين . أطرفت أختها متسائلة :

- من هذا ؟ لَمْ تخبريني أن لكِ زميلاً هنا، لم يسبق لكِ أن أخبرتني أصلا عنْ أيٍ من زملائك.

- إنه الصديق الوحيد لديّ .

- ماذا ! صديق ! لِمَا لم تخبريني بذلك أيتها الشريرة ؟

ضحكتْ : لم أجد فرصة لذلك.

أضافت في عبث :

- إذن هو سبب جلوسكِ طويلاً على الهاتف و عيناك مُسمَّرة على شاشته طوال الوقت، دون نسيان اِبتساماتك الغريبة تلك وكأنك بعالم آخر تماما.. ثم رمقتها بنظرات غريبة وهي تبتسم .

قالت بتردّد :

- ماذا ! لا تأخذي الأمر على محمل الجدّ هكذا .

ضحكتْ :

- ماذا إذن ! هل آخذه على محمل الحب !

توقّفَ تخمينها عند تلك الكلمة، قالت بصوت متردّد :

- عن أي حبٍ تتحدثين ! هو صديقي فقط، تجمعنا علاقة صداقة وحسب.

سألتها ضاحكة :

- أَلِهَذا كنتِ تبحثين عنه إذن ! أَتَحسَبِينني ساذجة ! لقد رأيت كم أنك متوترة و كيف كنتِ تبحثين بعينيكِ بالمكان، هل توتُّر الصباح كان جزءا من ذلك أيضا ؟

ثم أضافت محاوِلةً اِغاضتها بطريقة مضحكة :

- لابأس، قولي أنَّكِ مُعجبة به و إنتهى.

- ماذا ! لستُ كذلك، هو حقًّا مجرد صديق، لِمَا عليكِ تضخيم الأمر هكذا !

- حسنًا، حسنًا، لم أقل شيئا، سأصمت .

حُبْ، إعجابْ، هل هذا يُعقل ! لا يمكنه أن يحدث.. لكنّ لِمَا كلّ ذلك التوتر ونبضات القلب المتسارعة ! و ماذا عن استياءها حين غادر، لِمَا أرادت منه المكوث معها ! لِمَا كانت متحمّسة للقائه ! لِمَا كل ذلك ! ربَّما قد تعدّى شعورها ما يُسَمّى بالصّداقة فعلاً، ربَّما تلك صداقة من الدرجة الثانية...

كان الأمر مُربكًا، حين رآها و تحدّث معها، أراد البقاء قليلا بعد، لكنّه لم يستطع، ستكون الرسمية عنوان هذا اللقاء الباهت، باهتٌ بنظره لأنه لم يُمهل نفسه حقّ التأمل بعينيها و بِابتسامتها و بكلّ ملامحها، إنتظر طويلا لأجل هذا اللّقاء لكنّه كان مجرّد ثوانٍ معدودة وحسب .. كان يبدو ثابتًا أمامها لكنّ قلبه كان مُبَعثرًا، مُشتّتًا بها، بات الأمر غريبًا بالنسبة له فهي تأخذ كلّ تفكيره، هي بمثابة

ملجأٍ آمنٍ له من كلّ أيامه.. حين يجد تلك النقطة الخضراء بجانب إسمها، يبتسم قلبه و تنتابه راحة جميلة، لكنّ كل هذا الوقت، لم يُقدّم لها اِعترافا صريحًا، كلّ ما كان يقوم به كان مجرّد إيحاءات لكنّها لم تكنْ أبدًا إشارات كاذبة، بل كانت صادقة و من أعماق قلبه ..

سُرعانَ ما إمتلأت القاعة بطلّاب العلم و جلس الكلّ ينتظر تلك الورقة التي تُثبت نهاية هذا الدّرب الطويل، و كان هناك مكتب طويل قد زُيّنَ وسطه و أطرافه بجميع شهادات الطّلَبة رُفقةَ أشخاص مُهِمَّتُهم تسليم الشهادات لكلّ طالب بعد الطّلب من كل واحدٍ منهم أن يمضي بِاسمه و يَبصِم ثم سيكون متخرجا..

نُودِيَتْ الأسماء و توافد البعض على الرحيل بعدما أخذوا ما عليهم، وصل دورها، و تمّ مُناداتها، مَشَت مُسرعةً نحو المكتب، أخذت شهادتها و قامت بفعل اللّازم و عادت لمكانها.

أطرفت زهرة :

- مُباركٌ إذن، ها قد تحصّلت على الشهادة .

إبتسمت :

- شكرا لك.

- هل نغادر إذن ؟ أم أننا سننتظر ! مُشيرة إلى أمجد بعيونها رفقة بسمة بدت وكأنها تغيظ لأختها علت ملامح وجهها .

خمّنَت ؛ هل عليها إنتظاره أم ربّما ستغادر فقط .

أطرفت زهرة بعد أن تأكّدت من أن أختها حقًّا لا ترغب بالمغادرة بعد :

- لِنتجوّل قليلا بالجامعة، أيمكن ؟

أجابت ياسمين و قد إبتسمت ملامحها:

- أجل، لِنتجوّل .

كان ذلك جيّدا بالنسبة لها، لربَّمَا تَسنحُ لها الفرصة بلقائه مجددا..

حين نُودِي عليها، كان كلّ اِنتباهه مُشتّتًا نحوها، لم يُشِحْ بعينيه عنها حتى عادت لمكانها، لازال يريد الحديث معها، آمَل أن لا تغادر حتى يتمّ مناداته، لكنّه رآها و هي تغادر رُفقة أختها، إنتابه الإستياء، فقد كان يريد أن يأخذ حقّ قلبه من هذا اللقاء ..

غادرتا الكلية و راحتا تتجوّلان بالجامعة، فقط تمشيان حتى لمحتا مقعدا بعيدا عن الضوضاء و عن شمس السماء، جلستا هناك تتأملان بالحشد.بينما كان قد أخذ شهادته و أخيرا رفقة صديقه سامي لكنه اِستأذنه حتى يغادر لأجل ظرف خاص، رأى من ذلك فرصة ثانية حتى يلقاها على أمل أن لا تكون قد غادرت الجامعة، وحين راح يجول بالمكان رآها تجلس هناك مع أختها، لم يُرِد تضييع الفرصة التي سنحت له، فتوجّه مباشرة نحوهما بِخُطى أقدام سريعة..

كانت زهرة قد لمحته قادما إليهما فأطرفت :

- ها ! إنه صديقك أمجد، قادم نحونا.

ردّت و قد غزا التوتر قلبها :

- فعلا !

وما هي إلا لحظات حتى وصل إليهما، قابلته بِابتسامة دافئة كان قلبه قد إبتسم سرورًا لذلك، أطرف :

- ظننتكِ غادرتِ

أجابت مبتسمة:

- أرادت زهرة البقاء قليلا فجلسنا هنا .

لكنها لم تنكر داخلها أنها اِبتهجت لذلك

ظَلّ واقفا، فلم يكن هناك مكان شاغر لأجله لكن لابأس، كل ما يُهمّه أن يكون معها . لحظات من الصمت سادت الجو رافقتها تلك النظرات الكاشفة لقلبيهما، أحسّت زهرة أنها الطرف الغريب باللقاء كلّه، فاِستغلّت فرصة رؤيتها لِزَميلةٍ معها بالكُليّة و غادرت، كانت تعلم بأن كلاهما يريد الحديث لذا لم تَبخلْ عليهما ببعضٍ من اللحظات الحُلوة .

أطرف :

- أتسمحين ؟ مُشيرًا إلى الجلوس بجانبها .

أجابت في خجل :

- أجل، تفضّل.

أطرف :

- إذن، ما أحوالك ؟

- على حالها، كالعادة، و أنت ؟
- بخير، لا شيء جديد سوى أن الأوضاع تسوء كلَّ يوم.يقصد حال الوطن .

أطرفت :

- و ما باليد شيء سوى الدعاء، ثم تنهّدت وقالت :
- للهِ الله يا سوريا .
- كيف حال عائلتك؟
- بخير، أنت تعلم لا شيء يتغير.
- معكِ حق، ذلك صعبٌ نوعا ما .
- وأنت،كيف حال والدتك و أختك؟
- بخير، الحمد الله، ثم أضاف ساخرا :
- يُبلِّغانكِ سلامهما .

ضحِكتْ :

- بلِّغْهُما سلامي أيضا.

قال مازحا :

- هل أفعل؟

ردّت بتردّد :

- لا، فقط أمزح، لا يعرفانني أصلا.

أجابها ضاحكًا :

- لا بأس، سَيتعرَّفانِ عليكِ يوما ما.

سألته :

- ألاَ تعملُ اليوم ؟
- لا، فاليوم يومُ عُطلتي .

أطرفت:

- ذلك جيّد .

سرعان ما عادت زهرة و غادرت وإيَّا ياسمين الجامعة بعدما ودَّعهما أمجد وانتهى ذلك اللقاء المُنتَظَر الذي كان مُعظمه نظراتٍ مُتبادلة تَفضحُ ما بِدَاخِلهما عَبَثًا ما كان يُخفيان ذلك فالعيون تَفْضَحُ كلَّ شيء، لا سِيَّما القلب..

***

لقد كان مُجرّد لقاء عادي، مجرد لحظات معدودة .لكن براعم قلبي نَطَّت فرحًا، أزهرتْ كلُّ تلك الورود الذابلة، فجأةً غدَا لونٌ زهريٌّ يغزو قلبي ومعالم وجهي ..كنتُ أنظر وأُشِيحُ بنظري بعيدا ثم أُعيد الكَرَّة مجددا ومجددا ..بالرغم من أنني تَفقَّدْتُ ملامحك...تفقدتُها جيّدا ..لكنّني أضَعْتُك حين غادرت ..ربما أضَعْتُك في غياهم قلبي، في ممرَّات ضيّقة...حيث لم يستطع عقلي الوصول إليك، ربما خَبَّئك قلبي بعيدا عنه خِشية المساس بك وترحيلك بعيدا عني بتهمة الحب ..كان قلبي عابسًا و مُشتاقًا، إلى أن رأيتك، حينها إبتسم كل كائنٍ حزين داخلي ..أصبحتُ المُجَسَّمَ الحقيقي للسعادة ...لم أنسى بعد، عواصف قلبي ورياح مشاعري في تلك اللحظة، لحظة لقائي بك، لقد كنتُ أنتظره في كل لحظة،كنت أرسمُه في رحِم ذاكرتي مرّة ومرّة وكلّ المرات،كنت أتفنَّنُ في رسم إبتسامتي ونظراتي إليك، تَفنَّنْتُ في رسم الأحاديث التي ستدور بيننا لكنّ كلّ شيء راح مهبّ الرياح حين إلتقيتك لا إبتسامة ولا نظرات جاءت كما رسمتُها بل فقط إبتسمت وفقط نظرت، لم أظنّ أصلا أنه حقيقة لأنه مَرَّ في لمح البصر، لم أجد ما رسمته من أحاديث، أضعْتُ أوراقي التي رسمتُها عنك، بحثت عنها ولم أجدها، فإكتفيتُ بالصمت، و إنتهى ذلك اللِّقاء الجميل، وعدتُ للمنزل وفي بالي ألف فكرةٍ وذكرى، مشيتُ ذلك الطريق وكلّي روحٌ مبتسمة، متفائلة،كنت أحمل في طيَّاتي جزءًا من السعادة البالغة ألقيتُ بجسدي على ذاك السرير، تعمَّدتُ النظر للسقف و إبتسمت، بدا وكأنني لازلتُ تحت تخدير عيناك، مخدَّرة بذلك اللقاء، و إستدعى ذلك وقتا طويلا ليزول المخَدِّر من على براعم قلبي، وحتى عقلي كنت قد وصلت إليه يا رجل..مَنْ أنت؟! ومِن ثم سمحت لنفسي بتخليد لقاءك كذكرى حلوة طويلة الأمد .

على الأضواء الخافتة في غرفة نومهما إجتمعت ياسمين و زهرة على تبادل أحاديث و حكايات البنات تلك.

أطرفت زهرة في عبث :

- إذن أمجد، ها !

رَمَقَتْهَا ياسمين بنظرات غاضبة لكن بشكل مُضحك .

أردفت زهرة :

- ماذا ! لِمَا تنظرين إليَّ هكذا ؟ فقط أتحدث عن صديقك ذو العينين الخضراوتين .

سألت في هدوء :

- ما به ؟

- لا شيء .

- حسنًا، يبدو أن هناك بعض الكلام بِخَلقِك، هيا تكلّمي .

أجابت بحماس :

- يا إلهي كم أنّكُما تُشكِّلان ثنائيًا رائعا .

- ما هذا الذي تقولينه ! نحن مُجرد أصدقاء.

قالت مُتذمِّرة من جوابها :

- الرّحمة، أي أصدقاء، و قد رأيتُ الطريقة التي ينظُرُ بها إليك، أنتما تُناسِبان بعضكما تمامًا، وأيضا أيُّ صداقة بين فتاة ورجل لها نهاية معروفة، إمَّا الفراق أو الحب، و من الواضح أن نهايتكما ستكون حبًا .

إحْتَجَّتْ قائلة:

- ماهذا الهُراء الذي تتَفوَّهين به الآن !

- ليس بِهُراء و إنّمَا حقيقة .

زَمْجَرَتْ قائلة :

- كُفّي عن ذلك و نامي. ثم اِستَلقتْ بسَريرها لِتَنام .

- حسنًا سأنام، لكن أنتِ فَكِّرِي فيما قلتُهُ لكِ .

خَيَّمَ الصمت لِبِضْعِ ثوانٍ قبل أن تكسره ياسمين و تسألَ :

- هل فعلا كان ينظر إليّ ؟

أجابتها بعد أن شعرت أنها قد اِسْتَدْرَجَتْ أختها للحديث عمّا بداخلها :

- أجل، وكان ينظرُ إليكِ بشكلٍ جميلٍ أيضا..

قالت وهي تعيد رسم ملامحه بذاكرتها :

- حسنا هو وسيم، طويل ...مظهره لطيف لكن نظراته تبدو مشوشة كأنها توحي بجميع العواصف التي تقام بصدره، عيناه مجرة سماوية، يُخَالجني شعور بالراحة حين أنظر إليهما .. أحب سماع أخباره دوما وأحب الحديث معه ..

أردفت زهرة :

- هذا كلّه وتخبريني أنه مجرد صديق.
- ماذا ! لكنّه فعلا كذلك ..
- لا تراوغي ..أنت معجبة به..
- أحقا أنا كذلك؟

ضحكتْ : أظنكِ كذلك .

- ماذا إن كنتُ فعلا كذلك ! مالذي تظُنِّينَ أنه سيحصل ؟
- سَيَدُقُّ ناقوس الحب بابك .
- و ماذا عنه ؟ أتَظُنّينَهُ معجبًا بي أيضا ؟
- من وِجهة نظري و وِفْقًا لِمَا رأيته هذا الصباح، أظنه معجبا بكِ أيضا.
- حقاً ؟

أضافت:

- حسنا، هو يغازلني في أغلب الأحيان، يقول كلاما جميلا لي و غالبا ما يُناديني بذاتِ العينان العَسَلِيَّتَان، يُطيلُ النّظَرَ بعيني يُشبه الشرود نوعًا ما، أحب الحديث معه، ودائما ما أريد لقاءه،في أيام الجامعة كنت أتوقُ لرؤيته، أشعر بإبتهاج شديد حين ألقاه. أهذا كثيرٌ برأيك ؟

ضحكت زهرة ثم قالت ساخرة :

- و تقولين لي أنها مجرد صداقة !
- لستُ أدري، أظنني لم أجد إسمًا آخر لذلك، حين أراه تتسارع نبضات قلبي، أشعر بتوترٍ شديد، إحساسٌ حلو لكنني أكرهه، لا أعلم لماذا، ربما لأنه يجعلني مُشتّتةً بعض الشيء .
- أظنكِ ببداية الحب يا أختاه..

تجاهلت قول أختها ذاك وواصلت الحديث مُبتَسِمةً :

- كنّا نذهب في بعض المرَّات سويًّا بالباص، نلتقي عند حبنا لفيروز في الصباح، يَبْتسم لي ثم لابد من أنّكِ من معجبيها، فأُباغِته ببسمة ثم أجل أنا كذلك،آخذ راحتي في الحديث فقد إعتدت على هكذا صباح معه....تواجدي معه أضحى مألوفا.. أمن الممكن أن يحمل المرء كل هذا التشويش داخل قلبه فقط من الوهلة الأولى..جنون!! أليس كذلك!

وحين يُشَغِّل السائق الإذاعة حتى يستمع لأخبار الوطن، كان يلاحظ إستيائي من الأمر فيحاول خلق موضوع ما حتى نتحدث به . أتعلمين ! لقد علِمَ كل شيءٍ عني، كأن له طريقةً خاصة تجعلني أرتاح كثيرا بالحديث معه، أنا قليلة الكلام، أعلم، لكن معه هو، أحس أنني مختلفة، أكون على طبيعتي معه، و لا أشعر بغرابة الوضع حين ينتابنا الصمت فجأة، أحب صمتنا، أحب رِفْقَتَهُ تلك، هل انا ساذجة يا تُرى ؟

أطرفت زهرة :

- لا، لستِ كذلك يا عزيزتي، أين السذاجة في الأمر!
- لا أعلم، ربما مشاعري هذه.
- ما بها ؟ جميلة جدا .
- أتدرين ! أنا معجبة بعقله، يعني بطريقة تفكيره، أحاديثه عن كل شيء وكيف أنه يُحلِّل و يناقش، يعجبني الأمر حين ينحاز كلٌ مِنَّا لوِجْهة نظره الخاصة .
- ذلك جيد، و ماذا عن شخصيَّتِه ؟
- بداية، يبدو لك شخصا هادئا، و ربما بعض من الغرور، لا ينخرط هكذا بِاندفاع مع أي شخص، نظراته حادة كأنه يتجاهل عن قصد من لا يعنيه، يبدو صعب المراس أي أنّكِ لا تستطيعين مصادقته بسهولة، به غموض غريب، لكنه لا يجلب اِنتباهك كثيرا، لكن بعد أن تتعرفي عليه، يكون الأمر مختلفا، سيظل غامضا بشكل ملحوظ و أيضا كتوم، يُخفي مشاعره لكن عند مرحلة ما يكشف عن كل ذلك ويكون شفافا لبعضٍ من الوقت، شخصيته مثيرة للإهتمام، بالنسبة لي طبعا، لست أعلم كيف ينظر إليه باقي الناس، هو ذلك النوع من الأشخاص الذي لا يمكن أن يكون للملل مكانا معهم، شخصٌ مُتَفَهِّم، و أحيانا شخص يستطيع تحمل عبء الحياة معك أو ربما تخفيفه.

- أهذا كلُّ شيء ؟
- لا أعلم، ربما يوجد المزيد لكن لستُ أعلم كيف أصفه بالكلمات .
- لِمَا لا تخبرينه بما أخبرتني لتوّك ؟
- أمجنونةٌ أنتِ ! أبدًا، من المستحيل أن أفعل ذلك .
- و لماذا ؟
- لن أفعل، أظنني أخاف أن اخسره.
- كيف ذلك ؟
- ألا تعلمين! تلك الغرابة التي تكون بالحب، الحب جنون بينما الصداقة هدوء وأنا أفَضِّل هدوءنا هذا على ذاك الجنون .
- وماذا إن إعترف لك بحقيقة قلبه؟
- هل علِقْتِي الآن على أنه يحبني !
- أجل، واثقة من ذلك .
- لا تكوني واثقة .
- بلى، أنا واثقة،هيَّا أخبريني كيف سيكون ردُّ فِعلك إن إعترف لكِ ؟
- لا أعلم، لم أفكر بالأمر بهذه الطريقة، أنا فقط أحب علاقتنا ولا أريدها أن تنتهي .
- هل ستعترفين له أيضا ؟
- ربما، لستُ أدري،سَرَحتْ قليلا ثم قالت :
- ربما لن أفعل ذلك لكن هذا لا يعني أن قلبي يتوقف عن الخفقان حينما يَنظُر إليّ.. ثم أضافت بنبرة جادّة معلنة انتهاء شرودها :
- هيا لننام إنها الواحدة بعد منتصف الليل، لقد تأخر الوقت، لقد تشوّش عقلي بما فيه الكفاية.

ضحكتْ زهرة :

- أيتها الماكرة، لِمَا تهربين ؟
- لست أهرب ولكنني أشعر بالنّعاس.

- حسنا إذن، تصبحين على خير أيتها العاشقة، ثم ضحكت في محاولة منها لإغاضة أختها.

إبتسمتْ ثم قالت :

- يا إلهي ستجعلينني أندم لأنني أخبرتك، تصبحين على خير يا زهرتي .

هي فعلا لا تدري ما إن كان صداقة أو حبًا، ربما صداقة من نوع آخر لكن أيعقل أن يزورها الحب و لم يَمُرَّ سوى شهور على علاقتهما ببعض، أو ربما هي تبالغ وحسب، والأمر ليس بتلك الصعوبة، ربما هي صداقة فعلا، ربما ليست أيّ صداقة لكنها تبقى كذلك رغم كل شيء..

فجأة توالى على مسمعها صوت رسالة من هاتفها لتقاطع أفكارها، كانت تعلم أنها منه، كتب فيها :

- هل نِمْتِ ؟

أجابت في لهفة :

- كنتُ على وشك ذلك . إبتسمت، بل و كأن النوم قد طار من عينيها .

- جيد، لا تنامي .

- و لِمَا ذلك ؟

- هكذا فقط، لأني لا أريدك أن تنامي، أريد الحديث معك.

إبتسمت ملامحها ثم كتبت :

- حسنا، لا بأس بذلك .

بسرعة جاءها ردّه :

- كنتِ تبدين بخير اليوم .

كتبت في عجل :

- أجل، ربما لأنني تخرجتُ و أخيرا.

- و أخيرا، إنتهينا من ذلك .

ثم فورًا باغتها برسالة لم تكن تنتظرها، جاء فيها :

- عيونك جميلة جدا، أتعلمين !

حدّقَتْ لبرهة بِمَا كتب لها، ثم إبتسمت و قد خطر على بالها ما قالته أختها عن إعجابه بها، ليست تلك المرة الأولى التي يمدحها بها، لكنه فقط كان مباشرا هذه المرّة .

أتتها رسالة أخرى منه فيما تفكر بذلك :

- أين ذهبتِ ؟

كتبت :

- شكرا لذلك، لقد أخجلتني فعلا .

ضحك،" أتشكرينني لأنك جميلة !"

ترددت قبل أن تكتب :

- والآن أخجلتني أكثر.

- ذلك جيّد، لأنك حينها ستزدادين جمالا .

إستغربت كلامه، فعادة لا يواصل المغازلة هكذا، بل يُغيِّر الموضوع مباشرة .

ضحكت، "شكرا لك يا أمجد، أخجلتني فعلا."

لم تمنع نفسها من مغازلته هي أيضا، اِستجابت لهَمَسَات قلبها، أضافت:

- عيونك جميلة أيضا، وأنت وسيم.

اِرتبكت فقد أحسّت أنه ما كان يجب عليها ذلك .

جاءها ردّه :

- فعلا ! هل هذا ما تظنينه ؟

ضحكت،" أجل، والآن جاء دورك لتخجل."

ضحك، "لا بأس بذلك ."

توقف التواصل للحظة بينهما، لم تجد شيئا تعيد به إحياء المحادثة لذا قررت أن تودعه وتنام لكنه فاجأها برسالة منه، كانت إقتباسا مَفَادُه :

- "حينما رَآكِ بائع الورد، تَفَقَّدَ سلَّتَه ."

تَوَرَّدَتْ وَجْنَتيها واِبتسمت في خجل، تبعثرت الكلمات داخلها . كأنه تمادى هذه المرَّة، لكن راقها ذلك،

كتبت بقصد المزاح معه :

- هل تقصد بذلك أنني لِصَّة .

ضحك، "أنتِ تعلمين جيدا ما قصدته ."

- لا، لا أعلم.

- هلَّا شرحتَ لي ؟

هي فعلا فهمت ما كان يقصده لكنها أرادت الوصول لمرحلة ما، كأنها أرادت التأكد من شيء ما .

رأى من ذلك فرصة حتى يشرح ولو قليلا عمَّا تعنيه بالنسبة له . كتب لها :

- ما قصدته هو أنك وردة جميلة بحياتي، زيَّنَتْ أيامي، لا أريدها أن ترحل وإن أرادت الرحيل يوما فلنرحل سوِيًا .

اِجتاحت حُمْرة الخجل خدَّيها مرة أخرى، تسارعت نبضات قلبها، تساءلت "هل فعلا أنا كذلك بالنسبة له !"

لم تعلم ما الذي عليها قولُه، تسمّرَت يداها وشردت بخيالها مُحَاولةً اِستيعاب كلامه . هل من الممكن أن يحدث ذلك، هل من الممكن أن يكون قلبه مُشتتا مثلي، هل هو يشعر بذلك أيضا !

وصلتها رسالة أخرى منه تقول :

- هل خجلت مجددا أم أنك غضبتِ يا ذات العينان العَسَلِيَّتان ؟

أجابته في عجل :

- ما الذي تقصده ؟ بكلامك ذاك ؟

تحتاج أن تعرف ما وراء تلك السُّطور .

أجابها: "لا شيء ."

غمغمت : "ها قد رجع لعادته ."

هي تكره حين يتكلم معها بألغاز هكذا، يفعل ذلك دوما، ويُبقيها لتساؤلاتها التي تنهش عقلها .

كتبت له :

- لما لا تتحدث مباشرة يا أمجد؟ دع عنك التمويه.

ضحك،" لأن ذلك أفضل ".

- ولما هو كذلك ؟

أجابها :

- حسنًا، أنت شخص مُمَيّز بالنسبة لي يا ياسمين، لكِ مكانة خاصة عندي . كأنك شمسُ عالَمي .

إبتسمت شفتاها، و اِبتهج قلبها لذلك، كأن كل الإشارات تشير لكونه معجب بها، تماما مثلها، لم تُفكر بذلك ليس لأنها غير متأكدة من إعجابها به بل لأنها كانت خائفة من أن تكون على خطأ، لذا كانت تتجاهل مشاعرها و تصنفها بدائرة الصداقة، أرادت الإحتفاظ بذلك الشعور لنفسها،أو بالأحرى أرادت دفنه بعيدا عن قلبها، فلو سمحت لنفسها بالاِنسجام ولو قليلا مع قلبها لكان قد كُسر فيما بعد، هكذا كانت تظنّ الأمر، فلم يكن صريحا معها، بل فقط يهديها كلمات عابرة، كأنها تلميحات، ولأنها خشت من كونها مجرد تلميحات خاطئة، ظلت تتجاهل ذلك لكن الليلة، الأمر مختلف، لربما هو يشعر مثلها حقا، لربما تعدت مشاعره حدود الصداقة أيضا .

كتبت له :

- عجزت عن التعبير حتى، لا أدري ما الذي علي قوله .

أجابها :

- لا تقولي شيئا، لا داعي لذلك .

كتبت دون أن تنتبه لحقيقة كلماتها :

- أنت أيضا مميز بالنسبة لي يا أمجد، أعني ذلك حقا .
- أ تحاولين مُجاراتي ؟
- أبدًا، إنها الحقيقة وحسب .

لا يزال مشتتا بشأن حقيقة مشاعرها ناحيته، بعدما أوحى لها بقليل مِمّا يحسه قلبه تجاهها، لكنه لم يأخذ إجابة مباشرة بعد، هي تجيبه بالمثل فقط، لم يكن يعلم أنها فعلا تعني ما تقوله، لم يكن يعلم أنها مشتتة مثله بشأن حقيقة مشاعره أيضا، كان يأخذ الأمر على محمل المزاح، هكذا كان يظنه، كأنه يخاف الإعتراف لها، أو ربما كان ينتظر منها أن تُفصِح أولا عمّا بداخلها. هكذا يكون الحب في بدايته، لكن فقط يتطلب إستيعاب ذلك بعضا من الوقت ...

صداقة من نوع خاص، صداقة إلى الأبد، لا أعلم ما إن كانت صداقة حقا أو أكثر ..ربما هي شيء آخر..هل يُعقل أنها حب؟ أريد أن أرسُمَ عن صداقتنا لأجعل حياتها خالدة للأبد بين الألوان ..لن أدع أحدا يراها، لأني سأغار، سأغار من عيونهم حين تتابع تفاصيلها بشغف ..سأغار من خيالهم ذاك حين يحاول رسم تلك الصداقة وسط رحمه ..لا أريد لأحد أن يعلم بها..دعها سِرًا فقط بيني وبينك، أريد أن أرسُمَها لأتذكرها في كل مرة أحِنُّ إليك ..والحقيقة أني أحِنُّ لك دوما.. لم أجد فراغا لم تكن أنت فيه ..كل الأوقات أنت موجود فيها.. وذلك حلو، حلوٌ جدا، أريد أن أرسُمَها كي أبتسم في كل مرة تلمح عيوني تفاصيلها ...فأجدك أنت بينها.. أريد أن أرسُمَها لأسافر إليها في كل مرة يغمرني الشوق إليك ... أحبك، لكن ليس بتلك الطريقة، أحبك بعِشْق الصداقة فهلا تكون صديقي للأبد..!!

***

"الرّوح يا وطن .. الرّوح مِلكٌ لك، أنت بريء ونحن أبرياء مثلك .. لكنّ رياح الذُّل تأتي دومًا على شاكلة العِزّ.. فمِنَّا من يقرأ ما بين السطور و مِنَّا من يصدق الترانيم المزيفة .. من إستوعب قبل فوات الأوان قد نجا من العاصفة و من أخذته الرياح قد نال البؤس و دفع الثمن غاليا.."

***

كلُّ ما في الأمر هو مجرد إيمان، ربّما إيمان ناقص و ربّما إيمان مزيف .. العَتَبُ علينا حين نصدّق المظاهر، فبمجرد رؤية شخص يرتدي قميصًا و يُطيل لِحْيَته نَحْكمُ عليه بالإسلام. متى نفهم أن الإيمان و الإسلام قلبًا وليس ظاهرًا، أن نؤمن لأجل الله و ليس لأجل أحد، أن نحتشِم لأجل الله وليس لأي أحدٍ آخر. فالإيمان ليس بالتّزاحم على الصّفِ الأول بالمسجد، وليس بصلاتك عمدًا أمام غيرك حتى يُثْنَى عليك، فالهدف الحقيقي هو أن يرضى خالقك عليك، أن تصلي لأجله وليس فقط كي تُلَاحَظَ من قِبَلِ الآخرين، فالإسلام دون نيّة بالقلب يُعتبَر باطلًا . كُنْ مسلمًا و مؤمنًا لربّك وليس لأحد آخر، فما أفسد مجتمعاتنا فعلا هو هذا الإسلام المزيف و الأسوأ إستغلاله بأبشع الطرق، هذه التنظيمات التي نشأت مؤخَرًا ما هي إلَّا جزءٌ من هذا الإسلام المزيّف، مجرّد كُفّار إستطاعوا القضاء على شباب البارحة و اليوم و لربما غدًا، فقط لأن إيمانهم ناقص و لأن إيمان أولئك كذب في كذب، لأنهم كفار يرتدون الإسلام كمظهر فقط لا غير...

مراد

جالسا على الصخور أرمم ما تبقى من تساؤلات داخلي، محاولا العثور على إجابات لكل شيء، الإجابات نفسها التي كان من المفترض أن أعرفها منذ وقت طويل، لكنّي كنت أعمى، عنادي و سوء فهمي للأمور بأكملها جعلني أشق دربا خاطئا، فحين أسأل نفسي ما أسوأ ما قد يحدث يكون الندم حينها أنسب إجابة للوضع الذي أنا به، ففِعلاً لو كان بإمكاني العودة للوراء لما كنت رحلت تلك الليلة، لَكُنتُ إكتفيتُ بكوني شخصا يعمل بشركة أبيه بدلا من شخص يجهل إلى أين ستؤول به الأمور. لكن أحيانا ما يجب علينا المجازفة، أن نجازف من أجل الحياة، من أجل أن نعيش، أن نمشي بطريق نجهل مستقبله، أن نعيش دون أن نخطّط للغد، كأننا بذلك نقتل الفضول الذي بداخلنا أو بالأحرى نتخلص منه لكننا بالأخير سندفع ثمن ذلك، وها أنا الآن أدفع ثمن تسرعي و عنادي. صوت ما اقتحم غفوة شرودي، قد أردف:

- ما الذي يشغل بالك أيها المقاتل ؟

بدا لي من نبرة الصوت تلك كأنه سؤال ساخر، أجبت بعد أن إلتفت إليه يجلس بجانبي :

- لا شيء، كنت شاردا وحسب .

قال :

- صدِّقني، أصبح الجميع شاردا هنا . أدعى كرم .

- و أنا مراد، تشرفنا .

سألني و قد اعتدل بجلوسه :

- إذن كيف أتيت إلى هنا يا مراد ما الذي جعلك تترك حياتك السابقة وتأتي إلى هذا المكان البائس ؟

شعرتُ بأنه يجب عليَّ أن أكون حذرا بحديثي معه، فلا أستطيع الوثوق به ولا بأي أحد هنا .

- أنت تعلم، الوطن..

أطرف بإستهزاء :

- الوطن ها!

أردفتُ وقد وجهت بنظراتي إليه :

- لكن لِما هو بائس بالنسبة لك ؟

أجاب متعجبا:

- ماذا ! أليس هو كذلك ؟ هل المكان مُبهج هنا برأيك ؟

أشحتُ بنظري عنه وقلت:

- بل عاديٌّ فقط .

ضحك بشكل ساخر ثم قال :

- أتكذب على نفسك يا هذا ! أمْ عَلَيّ ! بالطبع هو أسوأ مكان على الإطلاق، ما يحدث به يجعله بائس جدا .

بدا لي بنفس حالي، لكن رغم ذلك لم أُظهر له أي شيء، حاولت مجاراته وحسب لأرى إلى أين سيصل بالأخير.

- لماذا ؟ أهناك مشكلة ؟ أتُعاني من خطب ما هنا ؟

- أنا أعاني منذ أن قَدِمْتُ إلى هنا، والأمور تزداد سوءًا يوما بعد يوم.

ثم أضاف والجدية قد طغت على نبرة صوته و كذلك ملامحه :

- تلك الليلة، حينما كنَّا بالموصل، حين ضربتَ ذلك المقاتل لأجل الطفل ..

ذلك الوحش عديم الإنسانية، ثار غضبي لمجرد تذكر تلك الحادثة .

أجبته :

- أجل، ماذا هناك ؟

- حسنًا، ألم تتساءل لِما قتل القائد ذلك المقاتل مباشرة دون حتى أن يسمع أي كلمة منه ..!

- و لِما سيستمع لذلك الوحش، يستحق ذلك .

- دع عنك هذه العصبية و فكِّر بالأمر قليلا .

- ما الذي تقصده ! لِما لا تقول ما تريده وحسب.

- ألا تظن أنه قد تستَّر على أمرٍ ما، كأنه حاول إخفاء شيءٍ ما .

- ما الذي تتحدث عنه ؟ ما الذي سيُخفيه ؟

- هو لَمْ يقتله لأنه إرتكب ذلك الفعل، بل قتله حتى لا يَشِيَ به هو أيضا.

- ما الذي تحاول أن تقوله يا هذا ؟

- القائد يفعل ذلك أيضا، لهذا قتلَ ذلك المقاتل مباشرة .

- هل تقصد بذلك أن كلاهما شريكان بذلك الأمر ؟

- أجل..

- لا أصدق ذلك، أنت مُخطئٌ حتمًا .

- هل يصعب عليك ذلك ! لا تنطلي عليك حِيلهم ..

إنطلت بالبداية لكنها الآن اِنكشفت، ما أدهشني كان القائد، فهو لم يبدو لي شخصا من هذا النوع أبدا، كان هو آخر شخص أتوقع أن يفعل شيئا كهذا، لكن فعلا المظاهر خادعة . كنتُ سأخبره عما رأيته أيضا لكنني تمهَّلْت، أردتُ أن أفهم الحكاية أولًا، ربما كان ذلك فخًا لي .

- وأنت من أخبرك أنه يفعل ذلك ؟

- لقد رأيته .

- أَتَسْخَر مِنّي ! إن كنت قد رأيته لِما لَمْ تمنعه ؟

- أتَظنّ ذلك سهلا ! من نحن لنقف بطريقهم يا هذا لكن تلك المرة التي رأيته بها إستطعتُ أن أُنقذ طفلا واحدا فقط، أخبرني أن القائد وذلك الشخص الذي ضربتَه دوما ما يستدعيان أحد الأطفال بحجة التدريب ثم يقومون بفعلتهم تلك كان المسكين خائفا على أخيه، لم يُرد أن يحصل ذلك معه فذهب هو بدلا عنه، أطرفتُ بغيظ:

- اللعنة .. وهل كان يعلم ذلك ؟ لما ذهب إليهم ؟

- كان قد رآهم قبلا، أراد حماية أخاه، لم يفكر بالعواقب حينها، بدا لي طفلا يَقِظًا، آمل أن لا يحدث له مكروه .

تنهّد بحسرة ثم قال :

- لستُ أدري بعد كم يوجد من طفل يعاني هنا أيضا.

شعرتُ بالضيق من ذلك، شددت على قبضة يدي بقوة وثارت أعصابي وقلت بغضب :

- يا ليتني ضربته أيضا وقتها .

أطرفَ:

- هل ما زلت تريد أن تعلم لما هو مكان بائس !..

- إنهم مجرد أطفال، كيف يفعلون ذلك بهم ..

- كل ما هو سيّء يحدث هنا، إنهم عكس ما يدَّعونَه تماما .

قلتُ:

- أتعلم أنهم يختطفون النساء ويقتلون عائلاتهم ثم يجبروهن على إعتناق الإسلام و فعل أشياء سيئة لهن، يبررون ذلك بالدين ويهددونهن بالموت إن لم يقبلن بذلك .

أطرف في شيء من البؤس:

- الموت أهون لهُنّ من كل ذلك العذاب، سيحترقون هنا . لن أستغرب أصبحتُ أتوقع كل شيء منهم .

قلتُ سائلا إياه :

- لكن لما أخبرتني بكل هذا ؟ ما الذي يجعلك تثق بي ؟ ربما أكون مثلهم وأنا فقط أدَّعِي العكس .

إبتسم بشكل ساخر ثم أطرف بينما يرمي بعض الحجار الصغيرة التي كانت موجودة إلى جانبنا :

- لأنك كنت ستقتل ذلك الشخص بالموصل لولا أنهم لم يمسكوك، و لأنك لم تستطع قتل ذلك الطبيب و اِعترضت على موته، غضبك و اِستياءك حين أخبرتك عن القائد، جعلاني أجزم أنك لست منهم ولن تكون مثلهم. ثم أضاف بنبرة صوت عالية :

- أتظنني مجنون !.. لا أستطيع الوثوق بأي أحد هنا، لكنك أثرت فضولي منذ تلك الليلة بالموصل، ومنذ ذلك الوقت كنت أراقبك جيِّدا، و حينها علمت أنك لم تتأقلم مع الوضع مثلي .

أطرف بشكل ساخر:

- حسنا إذن، أنت محق لستُ مثلهم، ما الذي سيحدث ! هل سنتشارك همومنا الآن ! ..

- سنهرب ..

- وكيف سنفعل ذلك ؟

- لن يكون بتلك السهولة لكن سنتدبَّر أمرنا .

تذكرتُ تلك الفتاة التي وعدتها بالمساعدة، ستكون هذه فرصتها أيضا للنجاة من هنا . أردفتُ :

- لكنني لست لوحدي .

- ما الذي تقصده ؟

- هناك فتاة معي، إن قلت أنها مكافأة سأكون قد أهنتها لكنها معي الآن . تَمّ اِختطافها هي وبعض الفتيات وجلِبِهنّ إلى هنا . وعدتها بأنني سأُخرجها من هنا حالما أستطيع، لا يمكنني تركها.

- حسنا إذن، دعها تأتي، فهي أيضا ضحية مثلنا .

قلتُ مُتنهِدا:

- لكن أتعلم ما الفرق بيننا و بينها ! هي جاءت إلى هنا كرها بينما نحن أتينا إلى هنا طوعا، بكامل إرادتنا، وهذا أسوأ ما في الأمر حين نقع في شر ما ظَنَنَّاه صائبا .

رَبَتَ على كتفي في هدوء بعد أن تنهّد وقال :

- سَنَحُلّ الأمر غدا، وسننجو من هنا بإذن الله يا مراد .

يبدو أنني لم أكن الشخص الفطن الوحيد هنا، وعلى الأرجح يوجد الكثير منَّا لكن فقط صامتين، مختبئين وراء ملامحهم تلك، مُدَّعين الرضا والقناعة إلا أن داخل كل واحد منهم رغبة شديدة بمغادرة هذا المكان ..

في اليوم التالي إلتقيتُ أنا و كرم، و حتى نتجنّب لفت الأنظار إبتعدنا بقدر ما نستطيع عن التجمّعات هناك، كان كريم قد تحدّث مع بعضٍ من معارفه، بعض الأشخاص الذين يمكنهم مساعدتنا، لم أَشَأْ سؤاله عنهم، فلم يهمني ذلك بقدر ما كان يهمني كيف نخرج من هناك و اِسْتَغَلَّيْنا في ذلك شبكات الإنترنت التي يتيحها التنظيم لمقاتليه ثلاث ساعات كل ثلاثة أسابيع، لذا لم نكن نملك الكثير من الوقت، كان علينا أن نتحدث مع الجماعة و نتّفِق على كل شيء حينها . بعدها أخبرتُ سونيا بالموضوع، سُرَّتْ لذلك، أرادت حقا التخلص من هذا المكان رغم أنّه لم يكن لديها أي أقارب حتى تذهب إليهم إلا أنّها قالت أنّها ستتدبّر أمورها، المهِّم هو أنْ تنجو من هنا وحسب .

أَتَتْ الليلة المنشودة و كُنّا على أَتَمّ اِستعداد، خَطّطْنا للهروب ليلا، كان ذلك بمناوبة كرم للحراسة، إنتظرنا حتى يعُمّ الهدوء المكان ثم خرجنا أنا و سونيا من الغرفة و توجّهنا إلى حيث كرم، كان خائفا من أن يشُكّ بنا أحد فقدّم لنا عباءات أفغانية وأخبرنا أن نرتديها بعدما إرتدى واحدة هو الآخر، كان ذلك من أجل أن نُظهر إنتماءنا لداعش . أطرفتُ بهدوء :

- هل نرحل الآن ؟

أجاب كرم :

- سننتظر قليلا حتى تأتينا الإشارة سيبعثون لي برسالة الآن.

- أمُتأكد أن الوضع آمن ؟

- أجل، غالبا لا يتجوّل أحد الآن، سنكون بخير.

- آمل ذلك .

ثوانٍ حتى أردف كرم بِابتهاج بعدما وصلته تلك الرسالة :

- نستطيع الذهاب الآن .

- جيّد،لنذهب الآن قبل أن يرانا أحدهم .

خرجنا سريعا بعدما تفقّدْنا المكان جيدا ثم هرعنا بالرّكض، كان يجب علينا الإبتعاد من هناك بقدر الإمكان لذا واصلنا بالركض خِشيةً من أن يَتَتبّعنا أحدهم إلى أن وصلنا إلى أحد المطاعم بالمنطقة "مطعم الرّحمة "، دخلنا وجلسنا بإحدى الطاولات بِإنتظار تَلَقّي الرسالة التالية على الهاتف. بدا واضحا أن أغلب الموجودين في ذلك المطعم ينتمون للتنظيم ؛ رجال بِلحى طويلة و عباءات أفغانية إثنان منهم كانا يحملان رشاشات على أكتافهم مِمّا أثار قلقنا بعض الشيء .

تكلّم كرم بعدما حدّق مُطولا بجميع من حولنا :

- من الجيّد أنّنا اِرتدينا العباءات الأفغانية، غير ذلك لَكُشف أمرنا لا محالة .

لحظات من السكون المخيف والتّوتّر قبل أن تقطعه سونيا قائلة :

- هناك رجل ينظر إلينا بطريقة مُريبة .

سأل كلانا بذعر:

- أين هو ؟

همست بهدوء :

- حسنًا لا تنظُرا، إنه يجلس بالزاوية في الطّاولة ما قبل الأخيرة

سألتُ بقلق :

- هل شَكَّ بنا يا ترى ؟

أجاب كرم :

- لا داعي للقلق، تَصَرَّفَا بشكل طبيعي حتى لا نجلب المزيد من الأنظار إلينا .

أصبحت السّاعة قرَابَة الحادية عشر ليلا ولم يصِلنا أي شيء بعد، كُنّا قد بدأنا بالقلق فعلا، ونظرات الرّيبة تحيطنا من كل جهة وتملَّكَنا الخوف من أن يكون التنظيم قد علم بأمرنا. ثُمّ ما هي إلّا لحظات حتى توقّفتْ سيارة سوداء

خارج المطعم و صرخ أحد رُكّابِها عبر باب المطعم مُتوجِّهًا إلينا : " أعتذر على التأخير، لنذهب الآن " .وبينما كُنّا على وشك الخروج من المطعم تقدَّم مِنَّا ذلك الرجل الذي كان يُحدِّق بنا و سأل بحزم : " أيها الشّابان، هل لي بسؤالكما ؟ " فأجابه كرم : " نَتَأسّف، نحن على عجلة من أمرنا، يجب أن نذهب. " بالكاد كُنّا نتنفس من شدة الخوف حينها لكنّ خرجنا بسرعة تاركين ذلك السيّد خلفنا وصعدنا السيارة ثم اِنطلقت بنا إلى محافظة "حمص" ولم يتبعنا أي أحد، عندئذ تَنفَّسْنا الصعداء أخيرا .

لم أفكر مليًّا قبل الخروج من هنا فحتما لم أكن لأُضيع فرصة كهذه، لكن أما كان يجب علي ألا أكون هنا من أصله. إنتهت الكلمات داخلي،لم أعد أرغب بالحديث لنفسي عمّا وجب علي فعله إن سنحتْ لي فرصة الرجوع بالزمن،فالندم لا يُحِي ميّتا ولا يغيّرُ واقعا ..

- مراد، لقد وصلنا .

انتزعتُ نفسي من غفوة الشرود تلك ونزلنا من السيارة،كُنّا أمام نزلٍ صغير . سألتُ:

- هل سنمكث هنا ؟

- لهذه الليلة فقط يا مراد،ثم سنرحل من هنا صباح الغد .

- همستُ له :

- هل سيبقى هؤلاء الناس معنا أيضا؟

- طبعا،ومن غيرهم سيأخذُنا من هنا .

لم أظن أن الأمر سيكون أقل تعقيدا هكذا، تَصوّرتُ أننا سنجد صعوبة في الرحيل عن ذلك المكان لكن كان كل شيء على ما يُرام .تقدّمنا نحو المدخل، كان كرم بالمقدمة ونحن خلفه ثم توجّه إلى مكتب الإستقبال حتى يحصل لنا على غرف للمَبيتِ بها .

بدت سونيا شاردة بالرجل الموجود خلف ذلك المكتب،كان واضحا من نظراتها له أنها تعرفه .

سألتها :

- أتعرفينه؟

أجابت وهي لا تزال تنظر ناحيته :

- أظنه والد صديقتي .

- أ حقًا؟

قالت:

- لنذهب إليه يا مراد .

ثم ذهبتْ إليه ولم يكن عليّ سوى أن أتبعها،توقَّفتْ قبالته ونادتْ عليه :

- العم إيفان ! وسط ذهول كرم وهو ينظر إليها بحيرة ثم وجّه نظره نحوي مُتسائلًا عما فعلَتْه لتوّها قبل أن تكمل ما قالتْه :

- ألستَ العم "إيفان إيزدين" والد "نَارِيْن إيزدين" ؟ ثم رفعتْ الغطاء من على وجهها وواصلت :

- أنا "سونيا"،صديقةُ "نَارِيْن" من الإعدادية، ألا تذكُرني، كُنتُ آتي إلى منزلكم حتى ندرس أنا و "نَارِيْن" سَويًّا .

صمتَ لثوانٍ وهو يُحدِّق بها ثم قال بعدما بدا أنه إستوعب كلماتها أخيرا:

- إبنتي سونيا،ما الذي تفعلينه هنا؟

ثم أشار بعينيه إلينا مستغربا أمر وجودها مع شابين لوحدها .

- رأت نظراته الغريبة تلك فحاولت التوضيح :

- إنهما الشابان اللذان ساعداني على الهرب، يعني هربنا سويا.

- ما الذي تقصدينه؟ أين والدك؟

أجابت بإستياء:

- إنها قصة طويلة يا عمي، ثم إن والدي توفي .

نظرتْ ناحيتي أنا وكريم ثم قالت :

- هلَّا سمحتما لنا .

إمتثلنا لطلبها على الفور وتركناهما سويا حتى يتحدّثا. من الواضح أنها أخبرَتْه بالحكاية كاملة وكيف أنه تم جلبها إلى ذلك التنظيم قسرًا بعد قتل والدها. فبعد لحظات قدِمَتْ إلينا مبتسمة وقالت:

- هذا العمّ "إيفان" والد صديقتي "نارِيْن" كانوا يقيمون في الموصل ثم بعدها اِنتقلوا إلى "حمص" لم يخطر ببالي أنني سأجده، على كل حال، سأذهب مع عمي إيفان الآن، لقد عرض عليَّ العيش معهم وقال بأنه لن يتركني وحيدة بدون عائلة،ثم إن "نارِيْن" ستفرح كثيرا لرؤيتي.

أطرفتُ في قلق :

- هل أنتِ واثقة من ذلك؟

أجابت بنبرة مرتاحة:

- طبعا،أنا كذلك،فأنا أعرفهم جيدا . ليس هناك داعٍ للقلق.

قلتُ مبتسما:

- حسنا إذن، سُرِرْتُ لأجلك.

إبتسمت :

- أشكركما على كل شيء، وبالأخص لك يا مراد،شكرا لأنك لم تتركني هناك سأذهب الآن، بالتوفيق لكما، ثم رجعتْ إلى عند العم وصعدنا نحن إلى غرفتنا بعدما أكملنا إجراءات الحجز.

أردف كرم :

- بعد أيام سنصبح أحرار ونَدَعُ كل شيء خلفنا،ستكون تركيا أفضل بكثير من هنا .

سألته :

- ما الذي تتحدث عنه؟ ما الذي تقصده بتركيا؟

- تمدّد على الفراش ووضع يديه خلف رأسه ثم أجاب بإبتهاج : سنرحل إلى تركيا يا صديقي،سيساعدنا أولئك الناس في العبور عبر الحدود.

- لن أذهب معك .

- ما الذي تعنيه بأنك لن تذهب معي؟ ألم ترِدْ الرحيل عن ذلك المكان ؟

- طبعا، لكن يا كرم سأعود إلى عائلتي، لن أستطيع تركهم.

أجاب بنبرة يشوبها قليل من السخرية:

- لكنّك تركتهم قبلا وإنضممت إلى التنظيم،ما الذي تَغَيّر الآن؟

- كان ذلك قبل أن أعيش كل ذلك وقبل أن أرى التنظيم على حقيقته،ظننتُ حينها أنني كنتُ على صواب.

قال دون مبالاة:

- حسنا،أنت حُر،إفعل ما شئت،أمّا أنا فليس لديّ شيء لأخسره ولا عائلة لأتركها خلفي،سأرحل من هنا وأبدأ حياة جديدة.

- متى سنرحل إذن؟

- في الصّباح .

خطر لي أن اسأله عن نفسه في محاولة مني لمعرفته أكثر فقلت :

- إذن سيّد كرم ما حكايتك ؟

- أخرج سيجارة من حقيبته وقام بإشعالها،كان أحد أولئك الجماعة قد أعطاه علبة سجائر وولاعة حين كنّا بالسيّارة.

- ليس لي حكاية يا صديقي .

- أواثق من ذلك،تبدو لي بطلا لحكاية ما،أين عائلتك،هل تخليت عنها؟

أخذ نفسًا عميقا من سيجارته ثم أخذ ينفثه ببطء وقال:

- أتعلم يا مراد،أحيانا لا نقدر قيمة الشيء الذي بحوزتنا حتى نفقده،فمثلا لو كنتُ مكانك لما ذهبت لذلك التنظيم،لما جعلتُ عائلتي بالمرتبة الثانية،كنتُ فضلتها على التنظيم،الشيء الذي دعوته الوطن ذلك اليوم،أتظنه سيُرجع لك عائلتك إن فقدتها يوما ما.

أجبته بمرارة:

- إنه الوطن رغم كل شيء وأنا لم أفقد عائلتي

أخذ نفسا آخر ثم نفثَه بحُنق قبل أن يقول :

- باللّه عليك يا مراد،يوجد أولويات بهذه الحياة والعائلة أَولى من كل شيء آخر وأنت إخترت التنظيم بدلا من عائلتك،ألا تظن أنه لا يجب عليك أن تضع عائلتك في هكذا موقف؟

- لكن أمَا كنتَ لتجاهد في سبيل وطنك إن تطلّب الأمر؟ إستمرَّتْ عملية تدخينه تلك طوال حديثنا.

ضحك ساخرا ثم قال :

- لازلتَ لم تفهم الأمر،أليس كذلك؟ هل ما فعلناه يُسمى "الجهاد" ؟ وحتى إن إفترضنا أن ذلك التنظيم لم يكن سيئا و كان يخدم أفكارنا،أخبرني كيف سننقذ الوطن،من سنحارب؟ أعلم أن إجابتك ستكون "الدّولة" لكن يا ترى هل تعلم من سيدفع الثمن بعدها ؟ ببساطة إنه الشعب، ربما كنا لننتصر بمعركة أو ثلاث لو كان التنظيم عكس كل ما رأيناه،لكن كما ترى حتى التنظيم يحاول كسر الشعب وليس إنقاذه. فكر جيدا قبل أن تقول عن فعلتك تلك "جهاد ".

- ما علاقة كل هذا بالسؤال الذي سألتك إياه؟

- ما الذي حصل؟ هل استصعبتَ الأمر؟ أنت تعلم الآن أنني محق بكل ما قلته لك لكنك فقط تأبى الاعتراف بذلك.

أجبته بعد أن تنهّدْتُ بحسرة :

- حسنا،أنت محق بكل شيء،أعلم أنني أخطأت، لكنني لا أريد التفكير بالأمر على أنه ذنب،بل تجربة لأنه بالأخير كان قراري أنا،يعني سأتحمّل العواقب مهما كانت .

- إذن الشخص الوحيد الذي تخلى عن عائلته يكون أنت يا مراد .

تجاهلتُ قوله ذلك وسألته:

- لكنك لازلتَ لم تعطيني جوابا بعد .

أطفأ تلك السيجارة أخيرا، نظر إلى الفراغ ثم قال بعد ذلك :

- كان كل شيء طبيعيًّا،كل شيء كان جميلًا،أردنا فقط أن نذهب بنزهة عائلية،أن نستمتع بزرقة السماء،نسيم الربيع و تغريد العصافير وهي تطير فوقنا ونحن جالسين على الحصيرة التي جلبتها أمي معها وبعض الأكل اللذيذ الذي حضّرَتْهُ بالمنزل. ثم إبتسم وقال :

- إنها رغبة كل طفل صغير وسعادةٌ بالنسبة له.لكن شاحنة ما خرجت فجأة إلى الطريق وأفسدت كل شيء،واختفت تلك السعادة بلمح البصر. ولك أن تتوقع ما حدث بعدها.

- هل تُوفِي كلاهما ؟

- أجل،هما ماتا وأنا عشت،أليس ذلك مؤسِفًا ! لو حدث العكس لكان ذلك أفضل لكن ها أنا ذا أمامك،حيٌّ أُرزق.

قلت في حزن:

- آسف لذلك،أسكنهما الله فسيح جنانه. لكن مع من بقيت كل هذا الوقت؟

- بالميتم،لم يكن لدي أقرباء حتى أبقى عندهم. أرأيت يا مراد، فقدت والداي مبكرا جدا،لم يتسنى لي الحياة معهم،لو وقف كلاهما بطريقي وقالا " لا ترحل يا كريم " صدقني لما كنتُ أتيت إلى هذا التنظيم من أصله لا لأجل الوطن ولا لأجل أي شيء آخر بهذا العالم،لكن أنت تخليت عن عائلتك برضاك رأيت أن الوطن أولى منهم جميعا،لكنك في الأخير كنتَ أنت الخاسر الوحيد.

أضفتُ في هدوء:

- لكن يبدو أنك تجاوزت الأمر، أقصد أن الصدمة كانت قوية عليك لدرجة أنك أصبحت تتحدث عن الأمر ببرود هكذا.

أجاب وقد تسمرت عينيه على السقف:

- الأمر أسوأ من ذلك، فحين يقبع الألم داخلك تعيش تلك الصدمة كل ليلة بأحلامك. ثم أضاف قائلا:

- لا تقلق،ستعود لعائلتك ويعود كل شيء لطبيعته،عليك فقط أن تحذر من إرتكاب الحماقات مرة أخرى. والآن هيا لِننام،فلدينا يوم حافل غدًا .

لحظات من الصمت أنهت حديثنا، رحتُ أفكر في كل ما قاله كرم،كل ما قاله كان صحيحا،ففعلا بعد كل شيء أنا الذي خسرت وأخشى الآن من أن أفقد عائلتي أيضا. إنقضى الليل وأنا أفكر بكل شيء ؛ فيما قاله كرم و عن نظرة عائلتي لي الآن، إن رحيلي كان حقا أسوأ قرار إتّخَذْتهُ في حياتي .

حلّ الصباح أخيرا، وقبل أن نلتقي بأولئك الناس،تَخلّصْنا من العباءات الأفغانية أولًا ثمّ إتّفقنَا أنا وكرم على أن نذهب مباشرة إلى "حلب" ثم حينها نفترق هناك،أذهب أنا إلى المنزل ويكمل هو طريقه مع الجماعة إلى منطقة "عين العرب" ومن هناك يغادر معهم إلى المكان الذي أراده. إستغرق الأمر ساعتين للوصول إلى مدينة "حلب"، توقفت السيارة أخيرا وترجلنا أنا وكرم منها .

أطرف كرم وهو ينظر من حوله بعد أن أخذ تنهد مُطولا :

- يا الله،كم مرّ وقت طويل يا "حلب " ما أجمل أن يرجع المرء لموطنه .

أطرفتُ مُبتسما:

- حقا إنه شعور جميل، إذن كيف ستذهب الآن؟

- سأستقِلُّ الحافلة،لِمَ لا تأتي معي إلى البيت ؟

أجاب رفقة بسمة علت ملامحه:

- سيكون الأمر لطيفا، العائلة مجتمعة و ما شابه لكن شكرا لك أُفَضِّلُ اللّحاق برحتلي.

بالتأكيد العائلة وترٌ حسَّاس بالنسبة له لذا لم أُرِد أن أضغط عليه، قلت :

- إذن ستذهب حقا إلى تركيا،ما الذي ستفعله هناك،كيف ستعيش؟

ربت على كتفي مبتسما وقال :

- لا تقلق يا صديقي،سأتدبّر أموري.

- يبدو أنك خطَّطتَ للأمور جيدا.
- هذا ما توجب عليّ فعله وإلّا لكنتُ سأفقد عقلي هناك .
- معك حق، وفقك الله إذن يا صديقي .
- حسنا إذن،حان وقت الرحيل على ما أظن.
- أجل إنه وقت الرحيل،بالرغم من أنه وقت قصير إلا أنني سُرِرْتُ بمعرفتك .
إبتسم ثم قال :
- وأنا تشرفتُ بمعرفتك يا صديقي،لي طلب واحد فقط؛ابتعد عن هذه الأمور دائما فكِّر مرتين قبل أن تُقْدِم على أي فِعْل.
- حسنا سأحاول ألّا أُخَيِّب ظنّك.
ضحك ثم قال :
- آمل أن نلتقي مرة أخرى،تعال إلى هنا لأعانقك أيّها العنيد.
تبادلنا العناق ثم ودّعنا بعضنا وبعدها ذهب كلٌ منا في حاله .

***

تسَمَّرت أعين الجميع على مراد وقد صمت أخيرا بعدما ألقى ما بِجُبِّه من أحداث عايشها، كان قد ألقى كل ما كتمته نفسه طوال تلك المدة من أحاسيس باهتة وشعور بالندم والذنب، طوال فترة حديثه لم يختفي الذهول والدهشة من على ملامح كل فرد من أفراد عائلته،وكان في كل مرة يُعَبِّر فيها بمرارة عن مدى ندمه لإقتراف هكذا فعلة يُهديه أبوه نظرة عتاب ولوم على غرار والدته وأخواته الذين شعروا بالأسى الشديد تجاهه،بنظرهم كانت تلك أقسى تجربة يمكن أن يمُرّ بها أيّ شخص.نظر مراد إلى والده بعينين دامعتين ثم إستطرد بصوت طغى عليه الندم و الإستياء :

- أنا مُدين بإعتذار لكم جميعا،وبالأخصّ أنت يا أبي، وجب علي أن أُنصت إليك وأعلم أن الإعتذار وحده لا يكفي لكنني حقا آسف،أنا آسف لأجل تَهَوُّرِي وعنادي وآسف لأنني جعلتكم تعيشون كل ذلك .أطلق الجميع العنان لدموعه وحتى والده الذي كان يتابع حديثه في حنقٍ وغضب فلحت دموعه في أن تهرب على وجنته لكنه مسحها بسرعة بكفِّ يده ثم قام مباشرة من مكانه وهمَّ بمعانقة إبنه، إبنه الذي لم تصدق عيناه أنها تراه وأنه فعلا قد عاد، أخذ يحملق به في دهشة حين رآه واقفا أمام الباب قبل أن تتوالى على مسمعه كلمة "أبي" و هو يقف

أمامه بإنكسار وحرج شديد،لكن رغم كل ذلك لم يَسْلم مراد من معاتبة والده له وكلامه القاسي عن عصبيته وتهوره الذي كاد أن يودي بحياته إلى الهلاك. تقَبَّل مراد كل ذلك بصدرٍ رحِب ولم يُعَلِّق بكلمة بل كان يستمع لوالده في هدوء تام وهو ينظر إلى الأرض في إستياء شديد .

***

ياسمين

كانت الأيام تمر بكآبة تامة،في كل مرة نجتمع بها على طاولة الأكل يخيم صمت رهيب ولا يُسمع سوى أصوات ملاعق الطعام وهي تلتطم بالصحون،كان الكلّ يأكل طعامه في هدوء تام،كأن لم يبقى شيء نتحدث به سوى الاكتفاء بسمفونية الملاعق تلك،لم يجرأ أبي على الحديث عن مراد من بعد ذلك اليوم لكني دائما ما كنت أسمعه يتحدث على الهاتف مع أشخاص بدا وكأنهم ذوي صيت ونفوذ فقد كان يسأل بإستمرار عمّا إذا كان هناك أي تطور بخصوص مراد،علمت حينها أنه يأبى الحديث عنه فقط كي يتجنب إظهار حزنه لنا بينما داخله يتآكل من القلق،إنزوى كلٌ مِنا داخل وحدته غير أن وحدتي كانت غير، فقد كان يشاركني إياها أمجد،كانت أحاديثنا لا تنتهي وسرعان ما أخذت الأمور منعطفا آخر بعد تلك الليلة التي كانت تشبه البوح في داخلها،الأمر أشبه بأحجيات وايحاءات حلوة،و في كل مرة تبلغ كلماتنا أوَجّها،نتراجع فورا عن البوح أكثر وينتهي الحديث بغموض كالعادة، كنا نتحدث عن كل شيء ونختلف في كل شيء،كل ذلك كان يزيد من غلاضة علاقتنا ويوطدها أكثر، تعلقي به يزداد يوما بعد يوم،كان لتلك الوحدة مذاق حلو فعلا،كان ذلك أشبه بطوق نجاة لي بنهاية اليوم.

في إحدى الأيام التي باتت تشبه بعضها البعض، حدث شيء غيّر ذلك السكون في بيتنا، كانت الساعة تشير إلى التاسعة صباحا،والكل منهمك بشؤونه الروتينية كالعادة، وفجأة تعالت طرقات على الباب،مرّ وقت طويل منذ أن زارنا أحدهم، تقدم أبي بخطوات سريعة تجاه الباب وهمّ بفتحه،في البداية لم يُعر أيٌّ منا اهتماما للطارق فقد ظننا أنه ربما يكون إحدى أصدقاء أبي،لكن ما إن فتح والدي الباب حتى علا صوته مندهشا :"مراد !"،أجفلنا وتخلى كل منا عما كان يفعله وهرعنا نحو الباب غير مصدقين ما تسمعه آذاننا لنقف بعد ذلك في جمود تام وقد اتسعت حدقات عيوننا في دهشة مما نراه أمامنا، كان مراد يقف فعلا أمامنا

لم يكن خيال بل إنه هو بشحمه ولحمه، كان ينظر إلى أبي بعينين مكسورتين بعدما تكلم أخيرا وقال بمرارة : "أبي"، كانت تلك الكلمة الوحيدة التي قالها حينها قبل أن يجذبه والدي من ذراعه ويعانقه بقوة وهو يقول بصوت تخنقه الدموع "مراد، لقد عدتَ يا ولدي " ليجيبه أخي وشهقات البكاء تراوده وقد أحاط أبي بذراعيه "أجل يا أبي، لقد عدتُ إلى الأبد ".كنت لأول مرة أرى فيها مراد بهذا الشكل،لأول مرة أراه يبكي هكذا،كانت صلابته تلك قد اختفت وكل تلك العصبية والعناد باتا رمادا الآن، لم تمسك أمي نفسها وهرولت إليه باكية فعانقها وقبَّل رأسها ويدها ثم نظر تجاهنا وقال باسما بعينين دامعتين :

- ألم تشتاقا لأخيكما !

إنفجرت كلتانا بالبكاء ومشينا سريعا نحوه وارتمينا بحضنه ودموعنا تنساب بغزارة ثم بعدها كان عناقا جماعيا طويلا أرجع فينا الروح من جديد وجلسنا أخيرا على الطاولة بعدما أطفأنا الشوق الذي كان بداخلنا منذ وقت طويل وانتظرنا في لهفة سماع ما سيخبرنا به مراد عن رحلته تلك.

***

أمجد

كنت بدوام العمل،أعمل على كتابة مقالة تخص النظام والمعارضة السورية، أعمل بجريدة الوطن،كنت أعمل بدوام جزئي أيام الجامعة لكن بعد التخرج صرت اعمل بدوام كامل،كان عملا لا بأس به براتب يوفي إحتياجات البيت،حينها توالى على مسمعي صوت رسالة من هاتفي،لم أرد تشتيت نفسي لذا تجاهلت ذلك وأكملت عملي في هدوء،وبعد أن أنهيت المقال وصار جاهزا للطباعة أخذت نظرة خاطفة على هاتفي لأرى من المرسل،اتسعت حدقتا عيناي ورحت افتح الرسالة في عجل إنها من ياسمين جاء فيها :

"صباح الخير يا أمجد آمل أن تكون بخير، أردت فقط أن أخبرك أن أخي مراد قد عاد،وأخيرا، هل تصدق ؟كنتُ قد فقدتُ الأمل في عودته لكنه رجع إلينا هذا الصباح بعد غياب طويل، لست أدري لما أخبرتك الآن كان من المفترض أن أخبرك مساءا حتى لا أزعجك وقت عملك لكني سعيدة للغاية بعودته وأردت فقط أن أشاركك ذلك،عذرا على الإطالة،أتمنى لك يوما جميلا."

إبتسمتُ في سرور،فرحت بذلك الخبر وفرحت لأجل ياسمين وعائلتها، هممتُ بطباعة المقال ثم بعدما أنهيتُ ذلك، رحت أرّد على رسالة ياسمين :

" يسرني حقا أن أعرب عن أحر التهاني لكم، لقد سررتُ جدا لذلك،حمدا لله على سلامته وأخيرا سيختفي الحزن وتعود البسمة لتُخَيِّم على ملامح وجوهكم من جديد.

ملاحظة : أنت لم تزعجيني، سأرحب باتصالاتك حتى لو كانت على الساعة الثانية ليلا. "

أنهيت كتابتها ثم ضغطت على زر الإرسال.ينتاب داخلي بهجة وسرور في كل مرة أحادثها،صار قلبي يبحث دوما عن كلمات منها لا يمَّل وجودها أبدا،أشعر بقربها دوما ولو أنها على بعد متر من منزلي إلا أن محادثتها كل يوم وعن كل شيء خلق داخلي شيئا من الغبطة والسرور، حين أفكر بها صوت يهتف بداخلي : "أنت تحبها" لم أحاول الإعتراض أبدا بل وافقت ذلك الصوت وكأنني أرحب به فعلا، فلا بأس في ذلك، إن وجودها بحياتي شيء بالغ الجمال أشتاق إليها على الدوام لقد أسرت قلبي بحق،أن تمتلك شخصا تهرب إليه من كل شيء،أن يكون ذلك الإنسان كل عالمك ويحتويك دائما بدفء،كأنه بشكل ما يجعل حياتك أجمل، إنه فعلا يشبه الحب .

***

رن هاتفها إشارة لوصول رسالة قامت بفتحها في لهفة،كانت تنتظر رده في ترقب،راحت عيناها تبتسم وهي تقرأ ما كتب لها في حماس،أغمضت عيناها والبسمة لم تفارق ملامحها بعد وكأنها تستحضره بخيالها،إحساس غريب هذا الذي ينتابها منذ أن عرفته لكنه جميل ولم يحدث أن تعكر أبدا،فكرّت :

مراد هنا، عائلتي سعيدة، و أمجد أيضا موجود،ثم هتفت بحماس: يا إلهي ما الذي سأريده غير ذلك!

سرعان ما قاطعت زهرة خيالها ذاك وأطرفت في إستغراب بعدما دخلت الغرفة ورأت أختها هكذا :

- ياسمين !

انتفضت ياسمين من مكانها وفتحت عيناها سريعا وقالت في شيء من التلعثم:

- أجل زهرة ! أهناك شيء ما ؟

ضحكت زهرة من حالتها تلك وأطرفت:

- لا شيء يا أختي العزيزة، أرى أنك مشغولة بالتفكير في شيء ما، ثم سألت في حماس :

- ما هو يا ترى ؟

أجابت ضاحكة:

- فضولية كعادتك.

- هيا أخبريني..

- لاشيء،فقط أخبرت أمجد أن مراد عاد وقال أنه سعيد لذلك .

قالت زهرة مازحة:

- أمممم،دعيني أخمن،ثم بعدها سرحتِ بعيدا بتفكيرك في أمجد، أليس كذلك ؟

أجابتها ضاحكة :

- بنت ذكية، ثم صمتتْ لوهلة وتنهدت قبل أن تقول :

- لست أدري إلى متى سيستمر ذلك؟

تابعتْ حديثها:

- هذه المشاعر التي أكنها له هل تظنينها ستختفي ؟

- ولما ذلك ؟ ألست مسرورة لوجوده في حياتك؟

قالت بامتعاض :

- أجل، أنا كذلك لكن ماذا عنه ؟

- ماذا عنه يا أختي، إنكما بخير،لا تفكري كثيرا . دعي كل شيء للوقت .

إبتسمت ياسمين ونظرت لأختها بحنان ثم قالت :

- معك حق، دعينا لا ننشغل عبثا ولنذهب لتحضير الطعام الآن .

غادرتا إلى المطبخ في سرور وشرعتا بتحضير الأكل.كان لذلك اليوم مذاق مختلف، كأن الروح قد عادت لهذا البيت بعد غياب طويل،علت الضحكات بين الوالدة وابنتها وتلون جو العائلة بألوان غير الأسود والأبيض،لن يكن باستطاعة السياسة ولا أخبار الوطن السيئة أن يغيروا من مزاجهم الجيد ذاك، لأول مرة بعد ذلك اليوم سينامون مرتاحين دون أن تنهش الوساوس عقولهم. اجتمعت

العائلة على طاولة الأكل في بهجة دون فرد ناقص هذه المرة وتنوعت أصناف الأكل من مقبلات إلى تحلية،كل ذلك تعبيرا عن سعادتهم بعودة الأخ الأكبر.

أطرفت الأم بصوت ينضح بالبهجة :

- تفضلوا هيا، ابدؤوا بالأكل، ما الذي تنتظرونه !

بدأ الجميع بالأكل وهذه المرة لم تكن أصوات الملاعق طاغية على الجلسة بل كان الحديث لا ينتهي وهمسات الضحك لا تتوقف، كان الجو كأنه عيد ذلك اليوم.

إستطرد الأب بجدية :

- لدي ما أقوله لكم.

توجهت الأنظار نحو الأب في ترقب .

- أجريت بعض الإتصالات بأصدقاء لي لأجل بعض التجهيزات

تساءلت الأم :

- أي تجهيزات ؟

أجابها موضحا:

- بعد يومين سنغادر إلى الأردن.

اتسعت حدقات عيونهم في ذهول ونظروا إلى الأب في دهشة. ثم تابع حديثه في هدوء :

- لأجل سلامة مراد و سلامتنا جميعا، سنرحل من هنا، مراد الآن يعتبر شخصا هاربا من التنظيم إن علموا بأمره سيبحثون عنه ويحاولون إيجاده، وأنا لن أسمح بفقدانه مرة أخرى. ثم نظر تجاه مراد وواصل :" أليس كذلك يا مراد؟"

أجابه مراد في هدوء وهو ينظر بعيني والده بإنكسار:

- إنك محق، لنفعل ما تراه صائبا يا أبي.

ضرب الوالد الطاولة بقبضة يده في غضب بحيث أجفل الجميع وعلت نبرة صوته قائلا :

- لا تنظر إلي وكأنك كنت مجبرا على المجيء، ذهبت بإرادتك من هنا، واتيت بإرادتك أيضا، لم يجبرك أيٌ منا لا على الرحيل ولا على العودة.

رد مراد بامتعاض :

- أنا انظر هكذا لأنني محرج منكم، محرج لأنك مضطر أن تبعد حياتي عن الخطر، محرج لأنني كنت أنا السبب في كل شيء،لم أكن مجبرا على أي شيء ذهبت إلى هناك، لأنني ظننت أن التنظيم يتناسب فعلا مع مبادئي وأفكاري، لكنني أدركت بعدها أنني كنت مخطئا وان ذلك المكان كان عكس ما توقعته تماما. صمت لوهلة بعد أن أخذ نفسا عميقا وأكمل بمرارة: "أشعر بالندم لأنني رحلت، لو استمعت إليك ما كنت الآن محملا بالندم وتأنيب الضمير."

إرتسم الحزن على ملامح الجميع وهم ينظرون بأسف تجاه مراد ثم بعدها قامت ياسمين من مكانها وراحت تعانق أخاها وهي تهمس له : الحمد لله لأنك عدت إلينا سالما وعادت للجلوس على كرسيها بعد ذلك.

أطرف مراد :

- لنذهب إلى الأردن، فلاشك أنهم عرفوا بهروبنا الآن وطبعا لا نريد أن يتقفى أحد أثري

قالت الأم في ذعر:

- لا تقل هكذا، عسى الله يبعدهم عن طريقك وحياتك .

إستطرد السيد احمد بحزم :

- إذن بما انه لا يوجد أي إعتراض على الموضوع، سنجمع الأغراض المهمة وحسب فكل شيء مجهز في بيتنا الجديد .ثم بعدها عاد الجميع للأكل بعدما خيم صمت رهيب على المكان و وافقوا دون قول أي شيء، وما كان بإمكانهم غير ذلك فما قاله السيد احمد ومراد صحيح فالتنظيم لا يتجاوز عن هروب ضحاياه ولا يرأف بهم لذا الذهاب إلى الأردن هو الشيء الأصح في هذه الفترة .لكن رغم كل الحقائق التي تشير إلى وجوب ذلك إلا أن شيئا من الحزن طوق قلب ياسمين .

ياسمين

حين أخبرنا أبي أنه علينا الرحيل إلى الأردن خلال يومين شعرت بالإستياء، كل ما جال بفكري حينها هو أمجد فلن أستطيع رؤيته من بعد ذلك، نحن في نفس المدينة ولقاءاتنا ليست بالكثيرة فماذا إن صرنا ببلدين مختلفين ستكون منعدمة حتما، لم أكن لأعترض على قرار أبي فهو يفعل ما يفعله لأجل مراد و لم أرد أن أكون أنانية وأرغب بالسعادة لنفسي فقط لكني في الوقت نفسه أحسست بالحزن لمجرد تفكيري أنني و أمجد لن نستطيع اللقاء مرة أخرى .

حلّ الليل وانصرف كل منا إلى غرفته، انسللت أسفل فراشي في إستياء، بعدما لاحظت زهرة تقلّب مزاجي قالت وهي تستلقي بسريرها بعد أن أطفأت الضوء وقامت بإشعال الأباجورة الموجودة عند حافة المكتب الصغير:

- هل أنت بخير ؟

أجبتها في هدوء :

- أنا بخير

قالت مستنكرة :

- لا أظن ذلك.ثم تساءلت بنبرة أوحت وكأنها تعرف ما خطبي:

- لما تغيرت ملامحك حين أخبرنا أبي عن الرحيل إلى الأردن إذن؟

إمتنعت عن الإجابة على سؤالها لكنها واصلت الحديث بقولها :

- أنت تفكرين به،أليس كذلك ؟ تفكرين كيف سيكون الإبتعاد، لن تكونا بنفس البلد بعد الآن .

صمت ساد لوهلة ثم قلت أخيرا بعد أن تنهدت في حزن :

- ها قد أصبحتِ تعلمين.

قالت :

- لكنكما ستبقيان على تواصل رغم ذلك .

قلت متأففة :

- أرأيت ؟ إنها لسذاجة، لست أعلم لما أنا مستاءة من الأمر حتى.

قالت ضاحكة :

- ليست سذاجة أيتها المجنونة وإنما قلب،مشاعر، سكتت لهنيهة ثم واصلت :

- أو ربما حب .

ساد السكون مجددا قبل أن أقطعه وأقول:

- ربما .

فلم أعد أربط الأمر بالصداقة،أظن أن ذلك فاق درجات الصداقة بعض الشيء.

قالت :

- لما لا تلتقيان وتخبرينه بالأمر،تلعثَمَتْ، أقصد حكاية الذهاب إلى الأردن.

قلت :

- لا بأس بذلك

ثم أضفت بنبرة حزينة :

- سيكون اللقاء الأخير بيننا .

قالت في قلة حيلة :

- لا بأس،ربما ذهابنا سيكون مؤقتا فحسب.

قلتُ :

- ربما .

سكتنا لوهلة ثم إستطردتْ مُنهية حديثنا :

- تصبحين على خير يا عزيزتي،لا تفكري بالأمر كثيرا.

قلتُ :

- وأنت بخير يا زهرتي .

أغمضت عيناي آملة زيارة شيء من النعاس لي لكني ما كدت أن أجهز نفسي للنوم حتى إهتز هاتفي معلنا عن وصول رسالة كنت أعلم أنها من أمجد فلا أحد غيره يراسلني بهذا الوقت،فتحت الهاتف ورحت أتفقد الرسالة التي بعث بها إلي :

- مساء الخير كيف حالك ؟

أجبته في عجل :

- بخير وأنت ؟

رد :

- بخير.

ثم ما هي إلا لحظات حتى قال :

- سررت جدا لأجل مراد،كيف حاله ؟

أجبته:

- لا أظنه بخير لكنه في حال جيدة

جاءني رده فورا :

- أظن أن ذلك متعلق بما عاشه أليس كذلك ؟

أجبته :

- نوعا ما . إنه يشعر بالندم .

رد قائلا :

- ذلك شيء طبيعي، سيعتاد مع الوقت، المهم أنه عاد إليكم.

أجبته :

- أجل، هذا كل ما يهم .

ساد الصمت تلك المحادثة لدقائق، فحدَّثْتُ نفسي : "هل يجب علي أن أطلب اللقاء به حتى أخبره ؟ أو ربما ليس ذلك بالشيء الجلل،فلما علي أن أضخم الموضوع سأخبره هنا فحسب،أظن أنه سيكون خبرا عاديا بالنسبة له على عكسي أنا."

كنت على وشك أن أكتب له لولا أنه لم يسبق خطوتي وكتب لي :

- غدا يوم عطلتي، أتمانعين إن التقينا ؟

تعجبتُ و إبتسمت لطلبه ثم أخرجت زفيري ببطء بعد أن قلت في سري :

"لن أمانع أبدا ".

أجبته:

- لا بأس، لنلتقي إذن.

قال :

- هل الساعة العاشرة تناسبك ؟

قلت :

- أجل، لا مشكلة.

قال :

- حسنا إذن، لنلتقي غدا يا صاحبة العيون العسليتان. وأرفق ذلك بوجه باسم

ضحكتُ ثم قلت :

والآن يجب علي أن أخلد للنوم، تصبح على خير أيها الكاتب

أجابني :

حسنا ليلة سعيدة، إلى اللقاء غدا.

خلدتُ للنوم وأنا أفكر بلقاء الغد،كل لقاءاتنا كانت جميلة لكنها كانت تنتهي سريعا لا تكفي لقتل الشوق،مع ذلك أحبها وأحب وجوده بحياتي .لم أفكر كثيرا بما يخص فكرة الرحيل إذ أنني إعتقدتُ أن ذلك لن يكون بمشكلة بالنسبة له على الأقل ليس بتلك الأهمية لكنني حدَّثْتُ نفسي بأن أكُفَّ عن الإستياء فالأمر ليس عظيما لتلك الدرجة،لست أفهم لما أعطي الأمر أهمية كبيرة بل وكأنني أقدس علاقتنا بشكل مبالغ فيه. أخشى أن يكون لتلك القدسية نهاية توجعني وتوجع قلبي.

***

أمجد

حين وافقت على أن نلتقي، إنفرجت أساريري و إرتاح قلبي فقد كنت مشتاقا لها وأردت رؤيتها،لم يحدث أن أخبرتها بإشتياقي سوى لمرة واحدة، وذلك حين فاض بيَ الشوق في إحدى الأمسيات فأرسلت لها مباشرة وسط حديثنا "إشتقتُ إليك " أطالت بالرد حتى ظننت أنها غضبت لذلك لكن بعد لحظات قليلة أجابتني "و أنا أيضا"،إبتسم قلبي لذلك الرد و إستطردنا بعدها في الحديث كأن شيئا لم يكن،كنت أشعر وأنا أتحدث معها بارتياح لطيف، كأنها الشمس التي تنير عالمي في كل مرة، إلا أنها في بعض الأحيان تهرب من أحاديثي، عن إعجابي بها و عن كونها أكثر من مجرد صديقة بالنسبة لي، لو كنت أعلم أنها لا تشعر بنفس الشيء تجاهي لما تكبّدت عناء إخبارها والتلميح لها عن الحب الذي بداخلي لكنني متأكد أنها تكّن من المشاعر لي داخلها بقدر ما أكُنه أنا لها، فالأيام التي كانت بيننا أثبتت ذلك وأكثر .بعد كل شيء،هي تذكرني بفصل الشتاء إن صحّ القول،فصل جميل بثلوجه،بأمطاره وببرودته القاسية،على الأرجح تشبهه قليلا،ببرودة قلبها تلك التي تتصنعها و قساوته التي أعلم أنها مزيفة على شخص متيم بها حبا. لكنها تبقى الأحبّ إلى قلبي رغم ذلك حتى وإن غضبت أو حزنت،فأنا أحببتها بكل حالاتها.

أتى الغد الذي إتفقنا عليه،لم تكن سوى ساعات قليلة تفصلنا عنه إلا أنني إنتظرته بنفاذ صبر، ذهبت إلى مكاننا المعتاد بالحديقة، دوما ما أسبقها بالحضور،جلست على أحد المقاعد الموجودة بالحديقة ورحت أتأمل المكان شمالا ويمينا حتى لمحتها قادمة بفستان مُزهر بألوان جميلة وشعرها المنسدل من على كتفيها، بدت جميلة. كانت قد رأتني فلوحت بيدها لي ثم أسرعت بخطواتها حتى وصلت إلي،لم تكن على طبيعتها تجاهلت النظر بعيني وأنا الغريق كنت أبحث عنها،لم أرى إبتسامتها حينها، أظنها ضيعت الطريق إلى وجهها الناعم .

قلت باسما :

- صباح الخير،وأخيرا وصلتِ .

أجابت على سلامي برسمية كادت تخنق أنفاسي:

- صباح الخير لك أيضا، لم أتأخر،أنت من وصلت مبكرا.

قلت ضاحكا :

- لا بأس بذلك، إذن كيف حالك ؟

أجابت وهي تنظر لكل شيء من حولنا ما عدا النظر تجاهي :

- بخير، وأنت كيف حالك ؟

بدا لي وكأنها منزعجة وهي تتحدث بتلك البرودة،لم تكن تتصرف هكذا باللقاءات الماضية .

تساءلت:

- أهناك خطب ما يا ياسمين ؟ تبدين على غير عادتك .

أجابت وهي تشبك أصابع يديها بقلق دون أن تنظر إلي:

- لا، لا يوجد أي خطب.

قلت مستنكرا ما قالته :

- لا أظن ذلك، عينيكِ تقول غير ذلك.

سكتُ لهنيهة ثم قلت :

- إن لم تكن هناك أي مشكلة،لِمَا تتجنبين النظر إلي إذن، هيا أُنظري بعيني وقولي ذلك .

تنهدت ثم نظرت إلي وقالت بنبرة مستاءة :

- سنرحل يا أمجد.

سألتها مندهشا :

- ماذا تقصدين ! إلى أين؟

زمّت شفتيها ثم أجابت وهي تنظر على يمينها إلى الملأ :

- سنرحل إلى الأردن بعد يومين.

قلت بنبرة ذهول :

- إلى الأردن ؟ و لِمَاذا ؟ مالذي حدث ؟

نظرت بعينيْ و أجابت بنبرة يشوبها الحزن :

- خوفا على حياة مراد،أبي قرر ذلك فجأة،لا يريد أن يفقد مراد مرة أخرى.ونحن لا نريد أن نفقده.

قلتُ وأنا أنظر مستاءا إلى الفراغ :

- ولأنه قد هرب من المكان الذي كان به فمن المؤكد أنهم سيبحثون عنه ويحاولون إيجاده.

إستطردتْ بنبرة مستاءة :

- أجل، لهذا سنرحل حتى نضمن سلامته.

قلت بعد أن نظرت إليها :

- والدك محق .

لم أعلم مالذي كان علي قوله حينها،كأن السماء إسودّت فجأة و إنقبض قلبي لمجرد التفكير أنني لن أراها مرة أخرى،لكنها لمحت لمعة الحزن بعيوني فقالت قصد التخفيف في شيء من التلعثم :

- لا بأس،ربما سنعود،سنعود حتما .

ثم واصلت بإبتسامة حزينة و هي تنظر بعيني :

- ربما يمكنك المجيء،بالتأكيد ليس الآن لكن بعد عام أو عامين ها !

أجبتها متذمرا :

- أتمزحين ! بالطبع لا أستطيع، ماذا عن أمي وأختي،بالكاد أستطيع تحمّل مصاريف البيت ودراسة أختي، كيف سينتهي بنا الأمر إن رحلنا من هنا. من الواضح أن والدك يعرف البلد جيّدا ولديه معارف هناك،ستتدبرون أموركم لكن أنا لستُ بالشخص الكُفُؤْ لكذا هجرة .

لوت شفتيها في حزن و لم تقل شيئا،صمت ساد حديثنا للحظات لكنني إستطردتُ سائلا :

- حسنا إذن، ماذا عنّا ؟

قالت مندهشة :

- ما الذي تقصده بماذا عنّا !

قلت :

- هل علاقتنا ستنتهي الآن؟

أجابت بإبتسامة أراحت نفسي قليلا :

- علاقتنا ستبقى على حالها،سنتواصل. ثم لوت شفتيها في حزن وواصلت :

- ربما لن نتقابل كما إعتدنا لكن سنبقى على تواصل بالتأكيد.

أثار ذلك الكلام بنفسي بعضا من الراحة التي ظننت أنني سأفقدها. هكذا أنتِ،تعرفين كيف تنتهي من الظلمة إلى النور،آمالك دوما موجودة،لا تَكُفِّين عن التأمل من الحياة .

سألتها:

- لن يكون هذا اللقاء هو الوداع أليس كذلك؟

قالت بنبرة مستاءة :

- لست واثقة،غدا هو آخر يوم لنا هنا.

قلت بحماس :

- لنلتقي غدا إذن،ليكن اللقاء الأخير بيننا.

قالت باسمة :

- حسنا إذن،لا مانع لدي.

قلت :

- ذلك جيد .

بعد لحظات استأذنت حتى تغادر.

قلت:

- لأرافقك إذن.

هزت رأسها موافقة ثم نهضنا سويا ورحنا نتمشى في ذلك الرواق قبل أن أقول مباشرة دون تخمين مُسبق :

- أتعلمين،لقد اشتقت إليك،لهذا أردت لقاءك.

نظرت بعينيْ ثم قالت باسمة:

- أحقا !

قلت باسما :

- أجل،لكن لست أدري إن كنتِ كذلك أيضا .

قالت ضاحكة :

- أتريد الحقيقة ؟

قلتُ :

- أكيد..

قالت وهي تنظر أمامها:

- وأنا اشتقت اليك أيضا.

قلت باسما:

- ذلك جيد.

ثم نظرت لها وقد توردت وجنتاها خجلا، ثم سألتها:

- هل خجلتِ الآن يا ذات العيون العسليتان ؟

قالت متلعثمة وهي تتجنب النظر إلي:

- أظن ذلك.

كنا قد وصلنا لنهاية الطريق،توقفنا ونظرنا بعيني بعضنا ثم إستطردت بعد أن تنهدتْ قائلة:

- حسنا إذن،سأذهب من هنا كالعادة.

قلتُ :

- حسنا إذن، أراك غدا .

هزت رأسها باسمة ثم أطرفت :

- إلى اللقاء إذن.

ودعتها ثم افترقنا والضيق يخنق كلامنا،بدا الإستياء على وجهي حين أخبرتني بقرار رحيلهم ومن الواضح أنها كانت مستاءة أيضا فكل شيء مما كانت عليه اليوم قد بين ذلك. كان حديثنا مختلفا هذه المرة،كنا نتحدث بمرارة طوال الوقت بالرغم من ذلك الشوق الذي أخذ يلوح بالأفق.

***

"يكون الوداع ذا مرارة لاذعة، حين لا نعلم متى يأتي اللقاء مجددا أو حين لا يحدث ذاك اللقاء المُنتظر أصلا، حينها فقط يتألم القلب للفراق."

ياسمين

الجو مشمس و دافئ، سماء صافية، أصوات العصافير كسمفونية عذباء تجتمع أعلى السماء،أطفال يشترون غزل البنات من على الرصيف وآخرون يُذهبون حرّ الجو بالمثلجات، ضحكات وبسمات تتسلل لأحاديث الجميع، أصوات الصغار وهم يلعبون . يبدو الكلّ سعيدا بما يملك، وكأن العالم يصبح جميلا فقط عند لقائي بسيّد القلب،لست أدري لكنني كنت متحمسة للقاءنا أو بالأحرى أظنني كنت مشتاقة له، لا يكُف ذلك الإحساس عن مراودتي في كل مرة نتفق فيها على اللقاء،دقات القلب المتسارعة،ذلك التوتر الغريب وكأنني على وشك دخول إمتحان، حتى أفكاري فإنها تتبعثر بمجرد التفكير بأنني على وشك لقاءه. ذلك الطريق الجميل الذي إعتدت أن أمشيه في كل مرة أردنا فيها أن نلتقي، لم يتغير مكاننا، منذ أن أنهينا الجامعة ونحن نلتقي فيه، ما يروق لي أكثر هو تلك الأغاني الفيروزية التي تحضر طوال فترة حديثنا وكأنها تزين نظراتنا بمزيد من النغمات الحلوة، وحين نصمت تصدح موسيقاها أكثر وتضفي نوعا من الجمال على ذلك السكون،بمجرد أن نلتقي ونجلس على إحدى الكراسي الموجودة بالحديقة يُخَيَّل لي وكأن الزمن قد توقف بنا وكأن كل أصوات الجلبة من حولنا قد هدأت وتلاشت،وكأنه ليس هناك أشخاص غيرنا،فقط نحن وموسيقى فيروز،وكأنه مشهد من أفلام الحب القديمة؛حين يلتقي البطلان لمرة بعد طول غياب ويظهر الشوق في عيونهم ويكون معظمه نظرات قد فلحت في بوح ما يخبئه القلب من

أحاسيس وحب، وأغانٍ قد طغت على المشهد بشكل متناسب تماما حتى تَتَبَينَ مصداقية ذلك التمثيل . تمر تلك اللحظات في لمح البصر، لا نتذكر منها سوى العبق الحلو لذلك اللقاء،والحقيقة أن اللقاء ذاته عبق حلو.

لكن شيء من الإستياء قد طوق قلبي بحباله لمجرد التفكير أنه لن تسنح لي فرصة لقاءه مجددا،وصلت وأخيرا،لمحته يجلس بأحد المقاعد المعتادة لوحت له فابتسم في سرور وكأنه ينتظر رؤيتي بفارغ الصبر.. لما الكذب! وأنا أيضا كنت أنتظر لقاءه بفارغ الصبر.

تقدمت نحوه بخطوات مسرعة ثم جلست بجانبه وبعدها تحدثنا وأخبرته بكل شيء، بدا لي حزينا فعلا وكأن عيناه كانت تصرخ " لا ترحلي "لم اعلم ما الذي كان علي قوله فكرت "هل كان يجب علي أن أخبره بمشاعري" لكنني لم أستطع ولا أظن أنني سأقدر على بوح داخلي .

انتهى اللقاء وعدت للبيت وكلي محبطة لم أدري ما الذي كان علي فعله لكن إبتسم قلبي حين أخبرني انه قد أشتاق إلي، لم أستطع منع نفسي حينها من أن أبوح له بنفس الشيء أيضا. أردت أن أُفصِح أكثر عما بداخلي له لكن لم استطع فعل ذلك، اكتفيت بتلك الكلمات فحسب.

طرقت على الباب ثم ما هي إلا لحظات حتى فتحت لي زهرة، انسللت من بين نظراتها إلى غرفتي دون أن أنطق بأي شيء، جلست عند حافة سريري وأنا أفكر به،حتى اقتحمت زهرة الغرفة فجأة وهي تقول بنبرة محتارة :

- ما الذي حدث ؟

أجبتها بهدوء :

- لا شيء

قالت مستفسرة :

- لِما أنتِ عابسة هكذا ؟ هل اِلتقيتما

نظرت إليها ثم واصلت القول :

- في كل مرة تخرجين من المنزل بذلك الوقت،كنت أعلم أنك ستذهبين للقائه.

قلتُ :

- أجل،لقد إلتقينا.

تسمرت عينيها علي وهي تنتظر مني أن أواصل في حديثي.

قلت :

- لقد أخبرته أننا سنرحل .

سألت:

- وماذا حدث بعد ذلك ؟

قلت بنبرة مستاءة :

- لم يحدث شيء،لقد حزن هو الآخر.

تقدمت إلَي ثم جلست بجانبي وأمسكت بيدي ثم قالت بنبرة حانية :

- ستبقيان على تواصل رغم ذلك،و ربما سنعود أو ربما سيأتي هو. فكري بإيجابية،لا تعبسي هكذا. ثم احتضنتني وقالت ضاحكة :

- أختي وقعت في الحب

ابتعدت عنها في عبث وقلت ضاحكة :

- لا تقولي ذلك .

قالت باسمة :

- أظنها الحقيقة.

في قرارة نفسي كنت اعلم أنها الحقيقة أيضا فكل المؤشرات تشير إلى هكذا شعور إلا أنني أتجاهله فحسب .ففي كل مرة يهتف ذلك الصوت بداخلي بهذه الكلمة يتشنج فكري وتتسارع نبضات قلبي،فيكون التجاهل مثاليا لكذا أحاسيس،لست أعلم بعد إن كانت مجرد أحاسيس مؤقتة أو دائمة،لكنها حتما أحاسيس حلوة بالنسبة إلَي.

أمجد

كآبة هذه الأيام تمضي ببطء شديد كالحمل الثقيل على أكتافنا،لاشيء يضيء لنا عتمة هذه الأيام سوى فانوس الأمل الصغير ذاك؛أمل في الحياة،أمل في شفاء الوطن من فيروس الحرب،أمل في كل شيء.لا نكاد نتوقف عن التأمل،لربما تُخلَقُ معجزة حلوة تُنسينا في كل هذا الهمّ..أما معجزتي فكأنها حدثت من اليوم الذي إلتقيتها به،وكأنها تُخفّف من ذلك الحمل الثقيل،وكأنها تجعل من أيامي شفاءًا بدلا من سم .

عدت إلى البيت وأنا متقلب المزاج؛من جهة قلبي سُرّ لرؤيتها ومن جهة أخرى كنت مستاءًا لأنها ستغادر ولا أعرف متى أستطيع رؤيتها مرة أخرى..طرقت الباب وإذا بعلياء تفتحه وتستقبلني،أطرفت بإبتهاج:

- أهلا وسهلا يا أمجد،وقامت بأخذ أكياس البقالة مني

قلت مبتسما وأنا أنزع حذائي :

- أهلا بكِ .

قالت بنبرة مستاءة:

- أمي متعبة قليلا.

تساءلتُ في ذعر:

- ماذا بها ؟

قالت:

- رأسها يؤلمها وضغط الدم لديها منخفض وتشتكي من الدوار قليلا . هي الآن مستلقية بغرفتها .

رحت مسرعا إلى غرفة أمي بينما عادت علياء بخطواتها إلى المطبخ رفقة الأكياس وأنا دلفت إلى الداخل لأجد أمي مستلقية على ظهرها بالسرير،نظرت إلي رفقة اِبتسامة حانية،تقدمت نحوها وقبلت رأسها ثم جلست على طرف السرير بجانبها وأمسكت يدها برفق وقلت:

- كيف حالك يا أحلى أم بالدنيا ؟ علياء قالت بأنك متعبة .

قالت باسمة وهي تنظر بعيني :

- الحمد الله يا ولدي، أنا بخير لا داعي للقلق

أجبتها:

- لنذهب إلى الطبيب،لنطمئن عليك .

قالت :

- أنا بخير،لقد شربت شايًا بالنعناع حضّرته علياء لأجلي وأيضا أخذت دوائي المعتاد،لا تقلق،سأتَحسّن .

قلت في إصرار:

- لنذهب مع ذلك، لا تبدين بخير بالنسبة لي.

قالت باسمة وهي تسند خدي بيدها الأخرى:

- أنا بخير يا اِبني،تعب خفيف ويزول،هذا كل ما في الأمر.ثم تساءلت :

- وأنت أين كنت حتى هذا الوقت ؟

قلتُ باسما بعد أن قبّلْتُ كفّها:

- يعني مصرّة على عنادكِ يا أمي ولا تريدين الذهاب .

إبتسمت ثم أطرفت :

- أجِب عن السؤال..

قلت مبتسما:

- كنت أتجول فقط وأيضا أحضرت بعض الأشياء إلى البيت.

قالت بعبوس:

- لم تفعل أيّة مشاكل ! أليس كذلك..!

أجبتها ضاحكا:

- لا،لم أفعل شيئا، فقط تجولت وأحضرت أكياس البقالة..

قالت بقلق:

- تجنب الدخول في الصراعات التي تخص السياسة،أرجوك يا ولدي، لا أريد أن أراك مسجونا ولا أريد فقدانك.

قلت محاولًا تخفيف قلقها:

- لا تقلقي يا أمي، لن أُسجن ولن تفقديني. أنتِ فقط كوني بخير ولا تقلقي بشأن أيّ شيءٍ آخر.

في الحقيقة ما كنت أستطيع أن أكذب عليها وأخبرها أني بعيد عن كل ذلك،لا أريد إحزانها،أنا فقط أريدها أن تكون على ما يرام. فجأة علا رنين هاتفي من داخل

جيبي،أخرجته وسط نظرات أمي إلي ونظرت إلى الشاشة وإذا به سامي يتصل،نهضت من جانبها وقلت معتذرا:

- إنه سامي،سأرى مالذي يريده..

هزت رأسها وأطرفت:

- حسنا يا ولدي..

خرجت من الغرفة وأجبت على الهاتف:

- أهلا سامي،ما الذي هناك..؟

قال:

- يجب أن تأتي مساء الغد،هناك إجتماع..

قلت متسائلا بصوت منخفض حتى لا تسمعني علياء أو أمي:

- أيُّ إجتماع..!

قال:

سنقوم بعملية لكن ليس هنا،بل بدمشق،غدا ستعرف التفاصيل... ثم أضاف متسائلا:

- ستأتي،أليس كذلك..؟

قلتُ:

- بالطبع،سأكون هناك..

قال:

- إذن إتفقنا،إلى اللقاء الآن وتصبح على خير.

قلت:

- وأنت من أهل الخير،مع السلامة..

لست أعلم بما سأتورّط الآن لكنني على يقين أنني سأنجو من ذلك..

الجميع مندس بغرفته،الكل يقلب على أشياء مهمة يأخذها معه،توتر خانق ينتاب الجميع بشأن حكاية الرحيل هاته،فهل سيتسنى لهم أخيرا الحياة بشكل طبيعي الآن بعد عودة مراد،شيء واحد تأكد منه الجميع وهو أنه لن يعاود الكرّة مرة أخرى،لن يتجرأ،فقد أبدى ذلك بوضوح في كلامه وفي نظراته وفي ردود فعله،لكن ماذا عن تلك المخاوف المدفونة داخلهم،ماذا إن حاولوا البحث عنه وماذا إن تعَقّبوه وهل سيجدونه يوما،وماذا سيحصل إن فعلا وجدوه؛ إنها بمثابة غصّة بالحلق،لا يستطيع أحد تجاوز التفكير فيها، حتى وإن فعلوا ستبقى ذعرا خفيا يُنَغِّص حياة الجميع..

مندسة أسفل فراشها في كآبة،ترى أختها وهي تقوم بحزم أمتعتهما في جلبة وتوتر واضحين،بالرغم من أنها تعلم أنه لا يزال يوم آخر ووقت كافٍ لحزم الأمتعة إلا أنها تحب أن تقوم بكل شيء في وقت متسع لا بآخر لحظة،هي تنظر إليها فعلا لكنها شاردة، شاردة تماما عما يدور حولها،تفكر بلقاء اليوم،تعيده بذاكرتها مرة تلو الأخرى وكأنها تخشى فقدانه. برغم ما كان يحدث،كان أمجد الشيء الوحيد الممتنة لوجوده بحياتها.

قالت في سرها :

- حتى وإن رحلنا،سنتواصل،سنتحدث كما إعتدنا،لن يتغير أي شيء.

زمّت شفتيها ؛

- لكن ماذا إن تغيرت مشاعرنا!،هل ستكون مجرد فراغ!،وماذا إن تعودنا على الغياب كيف سيكون الأمر يا ترى!،هل سيكون مجرد روتين نعيشه دون أن يلامس في قلوبنا أي إحساس أو شيئا من الحب..!

فكرَّتْ :

- لا أظن ذلك،لا أظن أن الملل سيكون جزءا من علاقتنا يومًا،سنكون بخير .

أطرفت زهرة بعد أن أنهت ما عليها من توضيب وجلست على السرير منهكة وهي تعاين الحقائب بعينيها:

- لم أنسى أي شيء صحيح !

ما هي إلا ثوان قليلة حتى نظرت إتجاه ياسمين التي لم يأتيها أي رد منها فلاحظت شرودها،أطرفت:

- ياسمين،أنا أتكلم معك .

لكن لم تتلقى أي إجابة،فنادت بصوت عالٍ بعض الشيء:

- ياسمين..!

أفاقت من غفوة شرودها تلك على صوت أختها العالي،نظرت بإرتباك تجاهها وتساءلت متلعثمة :

- نعم،ما الذي هناك ؟

قالت بنبرة عتاب :

- فيما أنت شاردة هكذا ! لقد سألتك إن كنتُ قد نسيتُ شيئا ما .

أجابت ضاحكة بعد أن أخذت نظرة خاطفة على الحقائب بالغرفة:

- لقد وضّبْتِ المكان بأكمله،لم تتركي أي شيء .

قالت مبتسمة:

- لقد وضَّبتُ ما هو مهم فحسب .

قالت ساخرة:

- والله سنضطرّ لأخذ كل البيت معنا إن تركنا الأمر عليك.

ثم أضافت ضاحكة:

- سيُصْدَم أبي بعدما يرى كل هذا .

قالت مزمجرة :

- ليس لهذه الدرجة،أنتِ تُضَخّمين الأمر فقط .

إبتسمت ياسمين في حماس ثم نهضت وجلست قبالة أختها وأطرفت دون تفكير:

- سألتقي غدا بأمجد.

تساءلتْ :

- ألم تلتقيا اليوم ؟

أجابت بتهكّم وراحت تنظر إلى الأسفل:

- بلى .

قالت زهرة رُفقة إبتسامة حانية :

- لأجل الوداع إذن!

قالت بعد أن نظرت إليها:

- أجل،شيء كهذا .

ثم أطرفت بحماس :

- أتظُنيننا سنعود إلى سوريا !

قالت :

- ربما..

تساءلتْ في إستياء:

- وماذا إن لم نعد !

قالت غير مبالية وهي تُعَدِّل الحقائب:

- وماذا في ذلك ! لن يحدث شيء .

قالت بنبرة مستاءة:

- و أمجد..!

أجابت ولازالت منشغلة بما تفعله:

- ماذا به..!

قالت بنبرة يشوبها الحزن :

- لن نرى بعضنا مجددا...

قالت مُبرّرةً :

- لكنكما ستتواصلان رغم ذلك .

قالت بتهكم وقد أسدلت عينيها بحزن نحو الأسفل:

- وفقط...؟

أطرفت زهرة بعدما إنتهت من تعديل الحقائب و اِعتدلت في جلستها:

- ربما سيأتي إلى الأردن...

قالت :

- أتمزحين...! لن يستطيع ذلك .

واصلت بحماس:

- سنعود حتما...

أطرفت زهرة بنبرة جادة :

- أنت تعلمين أن ذلك ليس مؤكدا،يعني نحن لا نعلم كم من الوقت يلزمنا حتى نتأكد من سلامة مراد،لن نخاطر بروحه ونعود إلى هنا.. لا أحد يعلم ما الذي يمكن أن يحدث، ربما سنبقى هناك لفترة طويلة وإن إضطرّ الأمر لن نعود إلى هنا..

أطرفت بإستياء:

- لا يمكن أن يحدث ذلك...

نظرت زهرة بعينيها بعبس وقالت :

- لا تتعاملي مع الأمر بدراما زائدة هكذا...فقط تعايشي مع الوضع،لا ندري ما الذي يخبئه القدر لنا...

لوت شفتيها في إستياء ثم قالت :

- أظنني أبالغ بالأمر قليلا...

قاطعتها :

- بل تعطين الأمر أكبر من حجمه...تنهدتْ وواصلت بنبرة مواسية:

- علاقتكما ستبقى كما هي لطيفة،لن يتغيّر شيء وسيكون مراد بمأمن...ستكون الأمور على ما يرام..

هزّت رأسها موافقة لما تقوله أختها،وإنصرفت كلٌ منهما لفراشها بعد أن أُطفِئت الأنوار وساد سكون الليل البيت...ربما هي حقا تعطي الأمر أكبر من حجمه،كأنها أوْلَت الأمر إهتماما مبالغا به،ففي النهاية لن تنقطع أخبارهما عن بعض،ربما لن يكون الأمر بذلك السوء الذي تظنُّه....

***

صباح عطر بالأمل،مليء بالتفاؤل على أمل أن يكون آخر يوم يثيره التوتر و الذعر،صباح غير تلك الصباحات المتخمة بالصمت والعبوس،لا يوجد فرد ناقص بالطفولة ولا بالصالون ولا بغرف البيت،إكتمل العدد و إكتملت فرحة العائلة...

بينما الكل منهمك بشؤونه الخاصة،هي موجودة بغرفتها تُجهّز نفسها من أجل اللقاء بأمجد. ملامح مبتسمة لكن يشوبها قليل من الإستياء،تنظر إلى نفسها في المرآة،كيف أنها تُرتّب شعرها بشكل جميل وكيف تُعدّل من ملابسها،تراقب نفسها في سرور،تفكّر فيما ستقوله،عمّا ستتحدث به معه،تحاول الرسم بخيالها ملامح لقاءهما الأخير..أختها تجلس في الطرف الآخر من الغرفة تراقب حركاتها و إبتساماتها الغريبة، أطرفت:

- تبدين جميلة،لاداعي لكل هذا الوقت أمام المرآة.

إلتفتت إليها وقالت باسمة:

- أنا فقط متحمسة ثم مشت وجلست على سريرها وأطرفت بنبرة مستاءة :

- وحزينة قليلا لأنه آخر لقاء أنا .

قالت زهرة وهي تنظر بعينيها بعتاب:

- لا تنسي كلامنا أمس،لا تبالي بذلك أبدا،ستكونين على ما يرام .

فجأة قطع حديثهما رنين هاتف ياسمين لتنظر إليه وتجد أن المتصل هو أمجد.

أطرفت:

- أمجد يتصل..!

قالت زهرة :

- ردّي عليه إذن..

هزت رأسها ثم ردّت على المكالمة،جاءها صوته قائلا:

- ألو ياسمين،مرحبا..

ردّت عليه:

- أهلا أمجد،كيف حالك ؟

أجاب بنبرة مستاءة :

- ياسمين..آسف،لن نستطيع اللقاء،أمي مريضة ونحن الآن بالمستشفى .

نهضت من مكانها متفاجئة وتساءلت:

- مريضة..! مابها..!

أطرفت زهرة بإندهاش وهي تنظر بترقب إلى أختها:

- ما المشكلة..! من المريض..!

أشارت ياسمين بيدها إلى أختها كي تصمت وهي تستمع إلى ما يقوله أمجد:

لا أعلم، لم تكن أصلا بخير من البارحة وهذا الصباح سقطت مغشيا عليها،طلبنا الإسعاف وهاهي الآن بالداخل رفقة الطبيب وأنا وعلياء ننتظر خارجا..

تحرّكت بخطوات قليلة وهي تمسك بيدها طرف عنقها في توتر وقالت:

- إن شاء الله ستشفى وتكون بخير،لا تقلق .

أجابها قائلا:

- إن شاء الله..سأذهب الآن لنتحدث لاحقا.

قالت:

- حسنا،طمئني فيما بعد عن وضعها.

قال:

- حسنا،سأفعل، هيا مع السلامة.

- إلى اللقاء.

أنهت المكالمة وجلست بعدها..أطرفت أختها:

- ما الذي حدث..!

نظرت بإستياء وقالت:

- لقد مرضت والدته وأغمي عليها وهي الآن بالمستشفى .

قالت بنبرة حزينة:

- يا ترى ما الذي حلّ بها..!إن شاء الله تتحسن .

أطرفت بنبرة مستاءة وهي تنظر بعينيها نحو الأسفل:

- إن شاء الله تكون بخير..

"أحيانا نفشل في توقع كل شيء، أحيانا يحدث عكس ما حسبناه يوما، لا نستطيع التكهن أو الإيمان عبثا بأن شيئا حلو المسار قد يحدث، فالقدر يعشق مواكبة مخاوفنا، اِنه موجود يتنصت على أكثر شيء يخيفنا ثم فجأة يجعله واقعا لنا .. " تَوقع ما تتمنى"، إن نجحنا في رمي مخاوفنا بعيدا عن داخلنا فلن يفلح القدر في جعلنا تعساء."

***

- "لا تقلق، ستكون بخير". بعد أن ربتت بيدها بحِنِية على كتفه .

اِلتفت خلفه بعيون يملأها الحزن، أطرف:

- آمل ذلك، إن شاء الله تكون دوما بخير.

حدقت بحب إليه ثم قالت:

- لقد فعلت الكثير لأجلنا يا أخي، أنت تعلم كم نحن نحبك، ولا نريد فقدانك أبدا .

صمتت لهنيهة وسط نظرات أخيها إليها ثم استطردت وعيونها قد أدمعت:

- حين أنظر إليك و كأنني أرى أبي أمامي، أنت تشبهه كثيرا، حتى في تصرفاته أنت تشبهه .

مسحت دمعة هربت من عينيها إلى خدها ثم أطرفت بصوت متحشرج يشوبه البكاء:

- ليس هذا فقط، أنت تكون بمثابة أب لي يا أمجد، فهلا بقيت سالما ؟ لأجلي، لأجل أمي، ها ؟..

ابتسم بمرارة وهو يشعر نفسه قد قصر بحق عائلته حين وافق على ما قاله سامي، عانقها وكأنه يراها للمرة الأخيرة .

أطرفت :

- هل تعدني بذلك يا أخي؟

لم يكن يعلم ما إذا كان يجب عليه إخبارها بأنه لا يستطيع ذلك، لن يعدها بشيء لا يعلم نهايته كيف ستكون، لكنه أراد بعث الطمأنينة بنفسها فأجابها قائلا:

- سأكون على ما يرام، ثم احتضنها مرة أخرى وقبل رأسها قائلا :
- سنكون على ما يرام إن شاء الله .

"أحيانا يبدو و كأننا نتعمد الخطأ ولو أننا نعلم أنه سيجلب الضرر إلينا، لكننا فقط نتعمد فعل ذلك، تلك الرغبة المحصورة داخلنا تخلق دافعا قويا لنا، يكون تمويها لما نريده فعلا، حتى وأننا نعلم أن ذاك الضرر على بعد مدة قصيرة منا نقوم به، نتردد مرات كثيرة، لكن يهيأ لنا أننا نخلق إشكالا من العدم، وكأننا نبالغ بشكل كبير، فجأة ننسى لما علينا عدم القيام بذلك، هكذا يفقد العقل الأسباب حين تستسلم الروح لشيء اسمه القدر، يتراءى لنا وكأن ذلك الضرر مقدر لنا فعلا، أحيانا نكون سببا في تعاستنا، نكون سببا كبيرا في أذية أنفسنا، و خاصة أحباءنا."

حين فكرت بالموضوع، كنت أدرك جيدا أنه لا عودة منه، ترددت للحظة،ليس جبنا مني بل خوفا لأجل أعز الأشخاص علي، لم أكن أرغب بخسارة أخرى، فقدان آخر، لكن و ألف لكن تجول رأسي، و كأن عقلي يحاول إيجاد ثغرة ما تجعلني أقوم بالأمر، انه يقول الوطن، ثم الجهاد، "فكر بما يأتي بعد ذلك من نصر وليس خسارة، ستعود، حتما ستنجو و لن يشك أحد بالأمر، فقط قم بذلك." إن الأمر يجري بعروقي، لا أستطيع الإقلاع عنه فجأة، لقد جاهدت كل هذا الوقت، هل سأستسلم الآن و أعود أدراجي وكأن لا شيء من ذلك يعنيني؟، نفضت عني تلك الأفكار واتصلت بسامي، قلتُ بنبرة حازمة :

- أنا جاهز، لنقم بالأمر.

جالسة أمام النافذة تحدق بالسماء خارجا بعد أن أخذت نظرة خاطفة حول غرفتها، كل شيء مُوضب، اختفت كل فوضى حلوة داخل هذه الغرفة، كل مكان بالبيت يحمل ذكرى حلوة كانت أو مرة، و الآن كل تلك الذكريات ستكون موجودة بالذاكرة لا غير، ثم رويدا رويدا ستختفي إلى أن تصير مجرد خيال باهت، غصة البكاء عالقة بحلقها، تحاول بشدة حبس دموعها، لكنها تفشل في كل مرة، ليست تعطي الأمر أكبر من حجمه وإنما هكذا هي، هكذا قلبها، لا تستطيع فعل شيء حيال ذلك. جالسة أمام النافذة تحدق كيف أن السماء ملبدة بالغيوم، غيوم تكاد تنفجر مطرا، وهاهي تنفجر، ترسل أجمل إغاثة إلى الأرض، وكأن جرح السماء عميق يصعب شفاءه، و كأن السماء بحاجة إلى مزيد من الغيوم الملبدة لتبكي بكل مكان . أطرفت بصوت خافت وهي تحدق بقطرات المطر التي تصطدم بالأرض :

- من يستطيع أن يوفي الشتاء حقه في الوصف ؟، الكل يرى جانبا سيئا منه، " صقيع، برودة الجسد، طين يلوث المكان، ثم أمطار تبللهم، و بعدها سماء سوداء، جو تسوده الكآبة."، كذب، كل هذا يكون خطأً بحق الشتاء، لأنه جميل جميل جدا، لن أفلح في إيجاد كلمات تصفه، انه معقد، سواده ليس بالبشع أبدا ، إنما جمال مخفي بين الفصول، حين تمطر، و كأنها تزهر بقلبي، تزهر روحي حين تمطر تتعطر الأرض برائحة أجمل بأضعاف من كل عطور العالم، رائحة التراب، الأرض حين تلامسهما قطرات المطر،عطر لاذع، أغمض عيني و أقف تحت المطر، تماما بالوسط، أشعر بكل قطرة تلمس جسدي، تداعب روحي بخفة، لا أبرد أبدا، و إنما تهدأ نبضات قلبي، و ضجيج روحي، تبتسم شفتاي دون قصد مني، و كأنني أضحك لتلك السماء، فتزيد غزارة المطر وكأنها ترحب بابتسامتي تلك، تدب فيا الحياة، وكأنها تدب لأول مرة، لست أجد شعورا أجمل من هذا، ربما يوجد، لكن ليس بمثل جماله أبدا، تلك الطرق التي تمتلئ مطرا، تلك الغيوم التي تكسو السماء، سواد فاتن، أكاد أقسم أنه أجمل من زرقة السماء أيام الربيع. كل شيء مميز في الشتاء، دفئ الغرفة، رائحة الأرض المنبعثة، النوافذ الباردة،النسيم البارد، و الأجمل من هذا كله، وقوفي تحت المطر تماما بالمنتصف، وقد أغلقت عيني أستمتع بجمال معزوفة المطر الخاصة بفصل الشتاء .

فجأة علا رنين هاتفها يعلن انتهاء غفوة شرودها تلك، انتفضت من مكانها ومشت تتبع صوت الهاتف الى أن لمحته على المكتب الصغير، اتسعت حدقتا عيونها حين رأت اسمه على الشاشة، و ابتسمت روحها، خطف الاتصال حزنها ذاك لأجل الرحيل، ردت مباشرة و أطرفت بصوت مُتفاجئ أكثر منه فرحا :

- أمجد ؟

- أجل، أنا، هل غادرتم بعد ؟

تسللت دمعة من عينيها وكأنها قد هربت من قلبها لتسيل من على خدها أجابت بصوت قد غابت ابتسامته :

- على وشك ذلك، انتظرت اتصالا منك البارحة حتى تطمئنني على أمك لكنك لم تتصل، و لم أرد إزعاجك، كيف حالها؟، هل هي بخير ؟

- بخير، لقد تحسنت، شكرا لسؤالك، صمت لهنيهة ثم أطرف:

- ألم أقل لك قبلا ؟

سألت :

- ماذا ؟

- أنك لم و لن تزعجينني أبدا، حتى و إن اتصلت بمنتصف الليل، لأنني سأغضب إن ظننت ذلك مجددا.

ابتسمت قائلة:

- لا، أنت لن تغضب .

وكيف علمت ذلك ؟

قالت :

- لأن صوتك يبتسم يا أمجد .

ابتسمت شفتاه ثم أطرف:

- صرت تعرفينني جيدا يا ذات العيون العسليتان .

انفلتت من بين شفتيها ضحكة وقد ابتسمت عينيها لكنها لم تقل شيئا .

- هناك شيء علي القيام به قبل أن أرحل للقيام بمهمة أخيرة لي .

- ماهي تلك المهمة؟

- لا تهتمي، هل أستطيع أن أقابلك؟

ابتسمت روحها بمرارة، سيكون لقاءا أخيرا، لكنه حتما لن يكون الوداع، إنها متشبثة بخيط التفاؤل هذا، أطرفت:

- يسرني ذلك كثيرا .
- أنا أمام منزلكم، فهلا خرجت الآن ؟

أطرفت بصوت مرتبك:

- بهذه السرعة ؟، حسنا أنا قادمة .

خرجت بسرعة من غرفتها لكن وجدت أن عائلتها على وشك الخروج أيضا، سألتها أختها:

- كنت سأناديك، سنغادر الآن.

تشوشت، ما الذي عليها فعله الآن، لا تريد تفويت لقاءه، اتجهت غير آبهة نحو الباب ثم خرجت، مشت خلف البيت، تبحث بعينيها حولها لعلها تراه، فجأة لمحته، يقف هناك على الرصيف المقابل لها، بجانب الأشجار الموجودة بالحي، ابتسم ثم لوح بيديه إليها، ابتسمت بمرارة، وقد امتلأت عيونها دمعا، لوحت له، على وشك أن تقطع الطريق وتذهب إليه، لكن كانت عائلتها قد خرجت من البيت، تستعد للرحيل، فتوقفت ثم ابتسمت بمرارة وهزت كتفيها في عجز وكأنها تخبره أنها لا تستطيع أن تأتي إليه، ابتسم لها وهز برأسه تفهما للوضع، وبقيت تلك المسافة بينهما كلها ود و اشتياق، تبتسم ملامحهم، لكن أرواحهم تكابر على كل ذلك، تلك الابتسامات التي يتبادلانها الآن بمثابة عبئ ثقيل على أرواحهم، إذ لا يعلم كل منهما متى سيرى الآخر مجددا، سمحت لدموعها بالانسياب، يود كثيرا لو يمسح ذلك الدمع من على خدها لكنه بعيد الآن، ما يؤلمه هو عدم رؤيتها مرة أخرى، لا يعلم ما إن كان سيتمكن من رؤيتها مجددا، ربما تكون هذه المرة الأخيرة، رغم أنه يتمنى بشدة عكس ذلك . و كأن قلبها يقيم عزاءا داخله، يؤمن بشدة أنه اللقاء الأخير لكنها تنكر ذلك كل مرة، في كل مرة يهمس ذلك الصوت بداخلها تخرسه ببصيص صغير من الأمل، لا تكاد تتوقف عن فعل ذلك. فجأة جاءها صوت والدها مناديا لها من الجهة الأمامية للمنزل وهو يضع الحقيبة بالسيارة:

- ياسمين تعالي، لنذهب الآن.

مسحت دموعها، وابتسما لبعضهما للمرة الأخيرة، بعد أن لوحا كلاهما بيديه للآخر ثم التفتت ومشت بعيدا وقد عاودتها غصة البكاء مرة أخرى، هذه المرة

راودها بكاء قوي، رفقة شهقات تريد كثيرا أن تكتمها لكنها لا تستطيع . لمحتها أختها وهي على تلك الحال، أطرفت مباشرة فور ركوبهما للسيارة :

- ياسمين، هل أنت بخير ؟

هزت برأسها ، محاولة تجنب النظر بعيونها، وهي تكابر للتكلم بنبرة لا يتبين منها أنها على وشك البكاء:

- أنا بخير.

فهمت زهرة على الفور ماذا بها، تنهدت بحزن لأجلهما، ثم حضنتها بقوة وقالت:

- لا تقلقي، إن شاء الله لن تكون آخر مرة ترينه بها .

كانت هذه الكلمة القطرة التي أفاضت دموعها، انفلقت ياسمين بالبكاء واحتضنت زهرة وكأنها تحاول التشبث بها بكل ما أوتيت من قوة حتى تتخلص من غصة البكاء تلك.. وحين سألها أهلها عن الأمر قالت زهرة أن ياسمين فقط حزينة لأنهم سيغادرون، شاركها الجميع حزنها لكن علت الابتسامة وجوههم أخيرا لأن العائلة مكتملة دون أي قطعة ناقصة منها . بينما قلبه يؤلمه لرحيلها، يؤنبه أيضا لأجل قراره الطائش، انه طائش بالنسبة لعائلته، لو كان والده موجودا، لغضب منه، فقد ترك له أمانة عليه الاعتناء بها جيدا . لكنه يؤمن أنه سيعود و أن الأمور ستكون على ما يرام، مجرد أمل صغير هكذا يواسي به نفسه.

***

" تلك النظرة لا أظن أنني سأنساها، لم أستطع تعريفها بعد، نظرة دافئة تقول الكثير من الأشياء، كأنها تلقي السلام ومنها تلقي الوداع للقاء أخر."

***

كما هو مزعوم بأن شعب سوريا قد انفلق لجهات مختلفة من بينها : المؤيدين للنظام والمعارضين لهذا النظام، ولأن أمجد شاب غلبته ميوله السياسية و قلبه لا يزال ينبض بحرارة لأجل وطنه، و اعتقاده السائد بأن الشمس لا بد أن تشرق من جديد لكن لصالحهم هذه المرة، شخص يؤمن بشدة بالحرية و الاستقلال بالنسبة له الحرية واجب قبل أن تكون حق، فإن لم تمنح للمواطن كحق من حقوقه، فعليه أخذها رغما عنهم. و كأي وطن محكوم عليه بالانقسام أو بالخضوع، تكثر فيه الحلول المؤقتة و ربما أساليب طويلة المدى، لا تدري متى ستجلب الحرية. .. منظمات، والعديد منها، تحت إسم الوطن، تحت إسم الدولة، تحت إسم الشعب.. فإن كانت لأجل الوطن أو الشعب، ستتعدد و تختلف الأفكار و ستكون هناك وجهات نظر مختلفة، أما إذا كان لأجل الدولة سيكون الهدف الأكبر واضحا،لا تتعدد فيه أفكار و لا آراء. و بما أن أمجد يُعد مواطنا معارضا لنظام بلده فإنه ينتمي للمنظمات التي قد وجدت لأجل الوطن، كما أنه يعتبر ناشطا سياسيا بإحدى الجرائد الأسبوعية التي يذاع صيتها كل أسبوع بين المواطنين. في كل مرة تضج مقالاته بأحد الإتهامات الخطيرة التي يوجهها للدولة،في كل مرة يتطرق لأشياء خفية، بتقديم حجج وبراهين تسببت معظمها بإثارة غضب الشعب، وهذه المرة قد أرفق كلماته القوية بالحديث عن أشخاص مهمين ضمن دائرة النظام، لكن كلما ظن أنه بذلك يكشف ألاعيبهم القذرة كلما كان ذلك مجرد خط أحمر لا ينبغي عليه اجتيازه.. و أحيانا يبدو وكأنه يرسم طريقه الخاص إلى ما لا يحمد عقباه لكن دون دراية منه، يظن أن أفعاله تلك ستلقى يوما النتيجة المنتظرة، لكنها قيد الإنتظار وستبقى دوما كذلك طالما لم ينتزع الفساد من جذوره ستظل أشجاره تنمو فوق رؤوس الشعب.

انتهى أخر موعد حب له والآن عليه لملمة شتات قلبه والتوجه لما يأمره به عقله، لما ترضخ إليه أفكاره ثم معتقداته، "الوطن، لأجل الوطن" . اتصل بسامي حتى يلتقيان ثم يذهبا لذلك الاجتماع سويا. كان قد اتفقا على أن يلتقيا في

الشارع الرئيسي، كما في كل مرة. لم تبدو و كأنها أول مرة لهما لأنها فعلا ليست كذلك، كان الأمر عاديا لهما فقد اعتادا على أشياء كهذه، اعتادا على تلك الاجتماعات التي معظمها لأجل تخطيط قادم لإسقاط الحكم في البلد، تقوم تلك الاجتماعات على شرف الحقد والضغينة الموجهة للنظام القاتل، يلعنه كل واحد منهم بمجرد ذكر الأمر، في كل مرة تكون هناك أفكار جنونية وخطرة أكثر من ذي قبل، أما عن أمجد فدوما ما يقع على عاتقه كتابة تلك المقالات السياسية التي لا تخلو من رصاصات لاذعة لأصحاب الحكم و النظام، بكل مرة يضع سُمًا أقوى بتلك الرصاصات . يتعمد جيدا الإصابة في القلب، لكنه لا ينظر للأمر على أنه مخاطرة كبيرة لروحه، و لعائلته، يظن نفسه مستعد لتلقي أي ضربة قد توجه له، لكن أحيانا بعض الضربات تكون قاتلة في حين أن المرء يظنها مراوغة لا غير. انه مصطلح شائع بين أصحاب المنظمات و الأحزاب المعارضة للنظام " الشجاعة" لكن الشجاعة لا توقف الموت، و لا قدراً كنا قد تسببنا بحدوثه .

انطلق اجتماع آخر تحت عنوان "عملية دمشق" لم يكن يستدعي شرحا مفصلا فالأمر واضح من عنوانه، لن تكون هذه المرة كسابق عهدها من المرات ستكون مختلفة عما سبقها، أكثر خطرا، أكثر جنونا، لكن الكل قد وافق، و لا أحد اعترض عن الأمر، هكذا هم رجال الوطن، تجري الشجاعة بعروقهم، نظراتهم كلها حقد، حتى أنها باتت أكثر قسوة بكل مرة، داخل كل شجاع منهم رغبة دفينة بالموت لأجل وطنهم، حتى لو كان ذلك على حساب أرواحهم،فإنهم لن يترددوا بذلك للحظة، لأجل غد أفضل، لأجل جيل ينعم بمستقبل واعد، ووطن مشرق، حر، لأجل أن تحيا الحرية من جديد، لأجل قتل الرعب و الخوف بقلوب الملايين من المواطنين. بنظرهم، ذلك يستحق التضحية، يستحقها و بجدارة . لكن سيكون دوما هناك نهاية للأمر و أحيانا تأتي تلك النهاية مبكرا، سيكون هناك من يقتل تلك الأمنيات المتواضعة، و الشجاعة، لن نرضى بذلك طبعا لكن سيكون محتما علينا أن نرضى، نرضخ، لن نرضخ روحا وعقلا و إنما جسدا فحسب، ستُبْقِينا تلك الأمنيات شجعانا للأخير. فجأة اقتحم عناصر الأمن المكان حين كان الاجتماع على وشك أن ينتهي، تجمع العناصر بسرعة حول أولئك الشبان ، حاولوا المقاومة لكن كان عدد الشرطة يفوق عدد الشبان بكثير، انهالوا عليهم بالضرب، قبل أن يستخدموا أسلحتهم في عملية المداهمة العنيفة تلك، ما من شأنه أن يعمق أزمة

سياسية أخرى .في تلك الأثناء استخدم عناصر الأمن الغاز المسيل للدموع ضد كل من كان موجودا بتلك المنظمة المعارضة التي كان مقر اجتماعها في المبنى، لم يقف شجعاننا مكتوفي الأيدي طبعا بل قاوموا لآخر لحظة، لكن للأسف تم اعتقال كل الموجودين و اقتيادهم من مقرهم إلى السجن وسط نظرات الشعب الخائفة بالنسبة لهم، كان ذلك قادما عاجلا أم آجلا، فقد كان مجرد اعتقال آخر لإحدى المنظمات والأحزاب المعارضة للنظام، وكأن أعينهم تقيم عزاءا لأجل هزيمة أخرى يقفون هناك مكبلو الأيدي، لا يستطيعون إيقاف كل ذلك، وإنما يقفون كمتفرجين لا أكثر، عاجزين عن فعل أي شيء. الشجاعة وحدها لا تكفي لبناء دولة، و لا لنزع الفساد من وطن ما، الشجاعة فقط تنير لك دربا رسمته، تجعلك تمضي في أفكارك قدما، تهيأ نفسك للخسارة، تحيي روح المغامرة داخلك، لكنها أبدا ليست كافية، ليست كافية لقتل دماغ مدبر، ولا للتخلص من ظالم . الشجاعة وحدها لا تكفي لإنهاء حرب مدمرة، حرب قاتلة، حرب تغتصب حقوق الأبرياء، الشجاعة تجعلك تنطلق، إنها أساس المحاربة لكن ما يأتي بعد ذلك يتطلب أكثر من الشجاعة بكثير، فالنظام الظالم و الحكم القاتل لشعبه، ليس به ذرة شجاعة، جبن كبير يتغلغل داخله، انه قوي فقط لأنه يعتمد ما هو أكثر من الشجاعة، يعتمد ما يجعله يكسب الحرب في كل مرة . انه خائن، جشع، تبرأ الوطن منه منذ وقت طويل، لكنه فقط عاجز عن التخلص منه، لكن لابد للشمس أن تشرق من جديد، لابد للحرية أن يصدح صوتها عاليا، لا بد للظالم أن يسقط قتيلا، ستستمر الحرب إلى الأبد، ستستمر إلى أن تجلب النصر للحق وليس للباطل، ستلد الشجاعة شجعانا آخرين بكل مرة يموت بها أحدهم وسيكمل الطريق، رغم أنه طريق صعب، لم تتبين نهايته أبدا، لكن رغم ذلك لن يكون هناك استسلام و لا يأس، ستبقى الحرب قائمة بكل جوارحها للأزل حتى يأتي فجر النصر لا محالة .

أمجد

حين تمت مداهمة مقر اجتماعنا المقر الرئيسي للمنظمة، وتم القبض على كل شخص فينا، اجتاح برود مفاجئ جميع أطرافي، جثوت على ركبَتَيْ بِفاه فاغر وكأنني وصلت لنهاية طريقي، أحدق بسامي وهو يصرخ بغضب على الشرطة ويتفوه بأشياء لم يكن عقلي يستوعب ما هي فقد كان مشغولا بإعادة برمجة نفسه لتهيئتي لما سيحصل في القريب العاجل، طنين بالأذن، يمنع عني جميع الأصوات المحاطة بي، شعرت وكأن عقلي قد توقف عن التفكير،كل ما كان يجول بالي؛ أمي علياء و ياسمين. لم أستطع التفكير فيما سيَحل علي بعد هذا، لقد نكثت وعدا لي، لقد حققت أكبر مخاوف أمي، سأكون عديم المسؤولية مجددا، سأكون سببا في حزنها مرة أخرى، سيكبر خوفي كل يوم عليهما، ربما كان علي أن أهجر الأمر منذ آخر مرة اعتقلت بها، كان علي الاعتناء بأمانة أبي جيدا، لم أستطع تحقيق وصية والدي، لقد فشلت في ذلك . همس صوت بأذني وكأنه تأنيب ضميري :

" أحمق، كان عليك الاستماع لوالدتك و أختك، لم يكن عليك أن تخطأ مرة أخرى، ما الذي جنيته الآن، ها؟، ستكتفي بلوم نفسك فقط، كان عليك الوفاء بوعدك، لن يكون والدك فخورا بفعلتك هاته أبدا، لقد ائتمنك على روحه، وأنت خذلته، لو كان موجودا لقال : " أسفي عليك يا أمجد". أمانة كهذه أولى بكثير من وطنك السامي يا أمجد. لقد فشلت فشلا ذريعا هذه المرة. أين ستختبئ من ذنبك الآن، إلى أين ستهرب روحك هذه المرة . أين ستدفن ضميرك، كيف ستخرس صوته." صرخت عاليا بكل قوة و أنا أحاول الفرار من يد الشرطي، وكأنني أريد الهروب من ذلك الصوت، أحاول إسكاته، أعلم أنه ليست لي فرصة أخيرة، قد كانت لي لكنني أفسدتها، خروجي من كل هذا سيكون معجزة فحسب، في زمن قلت فيه المعجزات، معجزة كهذه نسبتها ضئيلة جدا.

صقيع، أرضية باردة، جدران بات لونها باهت، مجرد سكون مخيف يكسره صوت الماء و هو يتدفق من الحنفية قطرة تلو الأخرى، إنه مزعج، ذو صدى عالٍ يخترق طبلة أذني ليستقر صوت حاد بمنتصف عقلي. " حين يعلو صوت الحرية وسط أنقاض الفساد، ينقض النظام على أفواه المناضلين حتى تصمت، لكن ليس للصمت خلاص سوى الموت، فإن سكت فهذا يعني أنهم قتلوه، اِنتزعوا روحه للأبد" والآن أنا موجود هنا بين هاته الجدران، و سأصمت للأبد، ولن يكون لصوتي

مسمع، لم أكن لأتأمل عبثا، فأنا أعرف أن مصيري لن يكون بالحميد، لأول مرة بعد سنين يتسلل الإستسلام لروحي، بريق الأمل بغد أفضل بات بعيدا، شيئا بعيد المنال.. شيئا فشيئا، أخذ القلق يتسلل إلى داخلي، أفكر بأمي و بعلياء، هل علمت بأمري يا ترى، أعلم أنها ستغضب، لكن أن يخيب أملها بي فهذا أكبر مخاوفي، ففي آخر مرة حدث ذلك، كان الأمر قاسيا جدا، كنت واثقا من أنني لن أستطيع رؤيتهما مجددا، ستكون نهايتي، كنت على يقين بأنني لم أقدم ما يكفي لوطني و ربما لم أقدم ما يكفي لربي، لكنني قمت بعبادتي لله ولم أهجر ذلك ولو للحظة. رغم كل شيء، أنا على دراية بأن في كل شر يوجد خير، و لربما وجودي هنا سيكون خيرا ربما اليوم أو غدا، لست أدري لكن لي إيمان كبير برب العالمين. لكن أظن أن روحي قد خسرت الحرب، فقد تسلل الاستسلام لقلبي، أظنني خسرت المعركة الأخيرة انتفاضة روحي قد تهاوت الآن . ولا شك من أنها ستبقى هكذا للأبد .

لم أكن السجين الوحيد بالغرفة بل عشرات المعتقلين غيري، تم الزج بنا في مكان بحجم غرفة صغيرة لا تكاد تكفي شخصين حتى،كنا مضطرين لأن نركع فوق بعضنا البعض لأن المكان لا يتسع لنا جميعاً. كما ثُبتت أقدامنا في ثقوب حُفرت في جدار الزنزانة، وكانوا يضربوننا على قفا أرجلنا في نوع من التعذيب لحسن الحظ أننا حطمنا أجهزتنا الهاتفية حين تمت مداهمتنا و إلا لكنا وقعنا في مأزق أكبر، فالشرطة كانت تلقي القبض على كل من له صلة بنا، انه نوع من الضغط على المعتقل حتى يعترف بجريمته. كنا نتعرض للضرب المبرح هنا أثناء استجوابنا لمدة عشرين يوما لدرجة أن بعضنا يغيب عن الوعي، بعد أيام من الاستجواب كل يوم يكون أثقل من الثاني، تعذيب و ضرب، صعق بالكهرباء، لم أختبر في حياتي شيئا كهذا، كانت الأيام تمر بثقل شديد، لم نكن نعرف إن كنا ليلا أم نهارا، فالزنزانة مجرد ظلام دامس حولنا، بعدها بمدة تم نقلنا إلى سجن "صيدنايا" [2]مكانُ تغيبُ فيه كل حقوق البشر أو حتى المخلوقات الأدنى مرتبة منه مكانُ يتمنى فيه السجين الموت بكل لحظة ليتخلص من الإذلال والتعذيب، حيث يكون الموت هناك عادة يومية، ويكون البشر مجرد أرقام يعدها السجانون فقط وينقصونها متى ما أرادوا دون أي حساب. حين وصلنا تم استقبالنا بترحيب

[2] سجن عسكري قرب العاصمة السورية دمشق تقوم بتشغيله الحكومة السورية .استعمل السجن لاحتجاز آلاف السجناء، منهم المعتقلين المدنيين ومنهم المتمردين المعارضين للحكومة.

خاص، بنكهة التعذيب، عبر الضرب بالهِرَاوَات و القضبان المطاطية لمدة ساعة كاملة، رفقة كم هائل من الشتائم و الإهانات . حُشرنا جميعنا في زاوية واحدة اجتمع علينا أكثر من عشرة سجانين يتناوبون على ضربنا بالعصي والأسلاك المعدنية، كنا نحاول حماية أنفسنا برفع أيدينا والتغطية على رؤوسنا، أصبح المكان يفوح دماءًا، لم تغب عائلتي وياسمين عن بالي أبدا، وكأنني أستمد القوة منهم، وكأنني أحاول أن أعيش لأجلهم. كلما فكرت بأبي كلما ينتابني شعور الذنب أدركت جيدا أنني أخطأت .

بذلك المكان، الشيء المباح الذي يمكنني القيام به دون أي عقوبة هو التفكير الكلمات تملأ رأسي، أريد أن أكتبها، أريد إخراجها من عقلي، إنها ثقيلة، لا أستطيع حبسها داخلي هكذا. كنت أفكر بسامي، لست أعرف إن كان حيا أو ميتا، لم يكن موجودا فقد تم فصلنا في اللحظة التي وصلنا بها إلى "صيدنايا"[3] . لم يكن يسمح لنا بالتكلم إلا هَمْسًا، ويجب علينا أن نتخذ وضعيات محددة لدى دخول الحراس إلى زنزاناتنا، لم يكن مسموحا لنا أن ننظر في وجه السجّان، ومن أخطأ وفعل ذلك نال جزاءه بالإعدام فورا بمكانه. أما الحمام فكان مشتركاً لجميع المهاجع الأخرى، يقود السجّانون المعتقلين على شكل خط واحد، ويزحفون إلى الحمام في آخر الجناح مع الضرب والركل. كل ثلاث شهور حمام واحد بماء بارد والمدة فقط عشر ثواني لإنهاء الحمام . كنا نحصل على وجبة طعام واحدة تتكرر كل يوم نفسها وهي البرغل واللبن، أما طريقة توزيعها فيتعلّق الأمر بمزاج السجان، كان يضعها على الأرض أحيانا ثم يعطي أمر "باشر طعام"، وأحيانا كان يرميها في وجهنا لنقوم نحن بالتقاطها من زوايا الغرفة. كل ما كان يحدث معي كنت على يقين من أنه جزاء ما قمت به، ليس لأنني أردت الحرية والخلاص لوطني بل لأنني لم أفي بوعدي، لأنني لم أكتفي بالاعتناء بعائلتي فحسب و الابتعاد عن كل تلك المشاكل التي من شأنها أن تجلب صداعا لحياتي، إنني أتحمل عواقب أفعالي، لكنني أعلم أنها ستنتهي ستنتهي هذه العقوبة يوما ما.

---

[3] مدينة سورية تقع في محافظة ريف دمشق .تعدُّ من أعرق الحواضر المسيحية في المشرق العربي، تقع على ارتفاع 1،450 متر عن سطح البحر. تُشتهر بجمال طبيعتها ومقدساتها المسيحية المشهورة في جميع أنحاء العالم.

عزيزي أمجد..

"الوقت يمر ببطء، الأيام تبدو وكأنها ثقيلة وبالكاد تنتهي،لكن لم يكن كذلك بالنسبة لعائلتي،ولم يكن من المفترض أن أشعر هكذا،فقد أخذت التجهيزات في بيتنا الجديد،تنظيفه وترتيب الغرف وإفراغ الحقائب كل وقتنا، ولم يكن يتسنى لي الجلوس مع نفسي سوى عند المساء وهكذا أكتب لك قليلا..وتعلو الابتسامة ملامح وجهي..

الأيام تمر بشكل طبيعي،أخي عاد للعمل رفقة أبي حتى أن أبي يحاول تسليم زمام الأمور له بينما هو ينشغل بالبحث عن مؤسسة جيدة كي يسجل زهرة بها، كان مراد قد اعتاد الأمر وقد لاحظنا أنه فعلا يبدو مسرورا لذلك،لم يعد وأبي يتجادلان عن السياسة أو أخبار الوطن، يتجادلان في كل شيء ما عدا ذلك، بينما انشغلت أنا في رسوماتي وحسب، أرتاح حقا حين أرسم، يعد ذلك ملجئًا في غاية الجمال... استقرينا بمدينة "عمان" عاصمة الأردن، بالضبط "عمان الشرقية" حيث أنها مركز البلاد من حيث الاقتصاد، والسياسة، والثقافة،لم يسبق لي أن رأيتها قبلا سوى في التلفاز،الإعلانات، لكن هذه المرة أنا موجودة بها فعلا،لم نضيع فرصة رؤية ملامح هذه المدينة، كنا نذهب في كل مرة تسنح لنا الفرصة إلى اكتشاف مدينة "عمان" الشرقية، في الأصل،"عمان الشرقية" تمتاز بالأماكن الأثرية القديمة،مثلا مثل جبل القلعة الذي يحتوي بدوره على معالم تاريخية مثل معبد هرقل،الكنيسة البيزنطية و القصر الأموي، إن ذلك حقا مثير للحماس عليك أن تراهم حتما !! أخبرنا المرشد السياحي أن هذا الجبل تمّ بنائه بين ١٦١ و ١٦٦ قبل الميلاد لم أكن أعلم بوجود هكذا أماكن أصلا لاسيما في مدينة عمان،كذلك يوجد متحف الآثار الأردني الموجود هناك وفيه مجموعات من الفخار والزجاج والصوان والمعادن والأدوات المختلفة، إضافة إلى نسخة من حجر ميشع (مسلة ميشع أو حجر ميشع مسلة تاريخية كتبها الملك ميشع، ملك المملكة المؤابية تلك المملكة التي سطع نجمها خلال القرن التاسع قبل الميلاد في وسط الأردن وتعد هذه المسلة من أقدم وأطول المسلات التاريخية المكتشفة في بلاد الشام والتي يخلد فيها الملك مشيع الذيباني انتصاراته على بني إسرائيل في عام 850 ق.)

ومخطوطات البحر الميت. كما أن المكان له إطلالة بانورامية رائعة على عمّان. أسفل القلعة نجد الأعمدة الكورنثية لسوق فيلادلفيا الأصلي و المنتدى، هل تعلم لماذا سميت هكذا، حسنا، في أول كتاب مدرسي للهندسة المعمارية في العالم، De" architecture" 30قبل الميلاد، يروي فيتروفيوس قصة فتاة صغيرة من مدينة كورينث. كتب فيتروفيوس: "تعرضت فتاة مولودة في كورنثوس، كانت في سن الزواج، لهجوم مرض وتوفيت."تم دفنها مع سلة من أغراضها المفضلة فوق قبرها، بالقرب من جذر شجرة الأقنثة.في ذلك الربيع، نشأت أوراق الشجر والسيقان في السلة، مما أدى إلى انفجار رقيق للجمال الطبيعي.لفت التأثير انتباه نحات عابر اسمهCallimachus ، بدأ في دمج التصميم المعقد في تيجان الأعمدة.لأن النحات وجد هذا التصميم في كورنثوس، أصبحت الأعمدة التي تحمله تعرف باسم الأعمدة الكورنثية.

تؤدي إلى المسرح الروماني، والذي بني في عهد انطونيوس بيوس (١٦١-١٣٨ قبل الميلاد). وعلى الجانب الأيسر منه متحف التقاليد الشعبية الذي يضم فسيفساء من القرن السادس ومجموعات من المجوهرات القديمة والأزياء التقليدية. وكذلك قمنا بزيارة المدرج الروماني هو مسرح روماني يقع على سفح جبل الجوفة على أحد التلال المقابلة لقلعة عمان. تشير كتابة يونانية موجودة على إحدى منصات الأعمدة إلى أن هذا المدرج قد بُني إكراماً للإمبراطور أنطونيوس بيوس الذي زار عمان سنة ١٣٠م. أحسست بذلك أنني أعيش التاريخ فعلا..!! تقع إلى جانب المدرج الروماني ساحة الفورم (هو ميدانٌ عامٌّ مستطيل الشكل كان يقع في مركز مدينة روما القديمة، وكان مركزاً للعديد من الأبنية الحكومية الرومانية الهامة آنذاك) وتبلغ مساحتهما معا ما مجموعه ٧,٦٠٠ متر٢ ويعود تاريخ بنائها على الأرجح إلى القرن الثاني الميلادي وتحديدا بين عامي ١٣٨م و١٦١م إبان عهد القيصر أنطونيوس بيوس.

تمّ إستعمال هذا المدرج للعروض المسرحية والغنائية. بسبب جودة نظام الصوت فيه،والى يومنا هذا،يتم إستعماله أحيانا للعروض الفنية. يعتبر أكبر مسرح في الأردن. أمام منصة المسرح التي يعلوها الفنانون، هناك مكان معين في وسط المسرح يستطيع المتفرجون سماع الصوت الصادر منه بطريقة واضحة في جميع مدرجات المسرح . المدرجات مقسمة إلى ٤٤ صفا، في ثلاث مجموعات

رئيسية؛ مجموعة الصفوف الأولى تستعمل لعلية القوم وكبار الشخصيات، بينما مجموعات الصفوف الثانية والثالثة مخصصة لباقي الشعب.كما أن هناك غرف خلف منصة المسرح، يستعملها الفنانون لتغيير ثيابهم وللتحضير للظهور أمام الجمهور. كان يبلغ علو بناية منصة المسرح الأصلية حوالي ثلاث طوابق،وكان هناك معبد صغير في أعلى المسرح، منحوت في الصخر، كان به تماثيل للآلهة الرومانية.

ويوجد هناك متحفان صغيران على جانبي المسرح، متحف الحياة الشعبية ومتحف الأزياء الشعبية. الأول يحكي تطور حياة سكان الأردن واستعمالهم للأدوات والأثاث على مدى القرن السابق، وخاصة حياة الريف والبدو. المتحف بينما الثاني يتناول مواضيع أزياء المدن الأردنية والفلسطينية التقليدية والحلى وأدوات التزيين التي تستعملها النساء..

أُعجبنا بذلك كثيرا، وتحمست لحضور إحدى العروض به. وما أثار حماسي أكثر هو وجود شيء يدعى "دارة الفنون" التي تعتبر من أبرز المعالم الثقافية في مدينة "عمّان". وتقع في "جبل اللويبدة" ودارة الفنون هو بيت فني أسسته مؤسسة عبد الحميد شومان سنة ١٩٩٣م. تتكون هذه الدراة من ثلاثة مبان تراثية مقامة فوق آثار بيزنطية قديمة؛المبنى الرئيسي للدارة كان مقراً سابقاً لقائد بريطاني في الجيش العربي وذلك حتى عام ١٩٣٨م.هذا المبنى يحتوي على ثلاث قاعات عرض تتصل كل منها بالأخرى، كما يوجد به قاعة مكتبة مزودة بأحدث الكتب الفنية وباللغتين العربية والإنجليزية، ومكتبة للأفلام. أما المبنى الثاني للدارة، فهو مبنى تراثي أيضاً يحتوي على غرف خُصِّصَتْ للمكاتب الإدارية وإقامة المعارض،إضافة إلى وجود حديقة صغيرة تتناغم مع الطراز المعماري للمبنى،أمّا المبنى الثالث فهو مخصص لإستضافة زوار الدارة من الفنانين، وتوفير أماكن عمل لإبداعاتهم. كما أن هناك حديقة جنوبية يمكن الوصول إليها عن طريق درج، وتقع أسفل المبنى الثاني، والتي تضم آثاراً لكنيسة بيزنطية قديمة تعود للقرن السادس للميلاد.

أتدري...!قيل لنا أنه دائما ما يقام معرض في قاعات دارة الفنون ويضّم أعمالا معارة لما يزيد على ٥٠ فنانا عربيا،كما تقوم الدارة بإعداد برنامج شهري لأنشطتها والتي تشمل المحاضرات والموسيقى والشعر والفنون المسرحية وعروض الأفلام والتي تقام إما في قاعات الدارة أو في الهواء الطلق (سواء أكان ذلك في الحديقة الصغيرة أو الحديقة الجنوبية).

وتخيل..!هذه الدارة تقوم بنشر عدد من المطبوعات المتعلقة بالفنون البصرية والتشكيلية.

ذلك جميل، أليس كذلك...! كل يوم تزيد رغبتي في إكتشاف هذه المدينة، كل شيء بها يأخذك إلى عالم آخر تماما ولكل مكان حكاية مختلفة.. علمت بعدها أنه يوجد بها عدة معارض فنية،هل تصدق ذلك،!!! ذهبنا لإفتتاح معرض عمان الدولي للفنون التشكيلية،لن تصدق كم كنت متحمسة حينها،كان المعرض يشمل مختلف مجالات الرسم والتصوير والخط العربي والتشكيلات الحرفية والنحت والخزف والتصوير الضوئي.

في اللحظة التي دلفت بها المكان ظللت فاغرة فاه وأنا أحدق بكل تلك اللوحات المعلقة أمامي، تزينت جدران الصالة بلوحات جميلة تنوعت موضوعاتها التي تحاكي الجمال العماني من الإنسان إلى اللباس التقليدي والأعمال اليدوية والمباني وبعض الفنون والرقصات والألعاب والتراث البديع..الألوان رائعة، وكأنك تقف أمام صور حقيقية،تنوعت اللوحات في عناوينها مثل السوق والمرأة ومن تراث الوطن وأنوثة وسباق الجمال والحياة وللموت نهاية وقصة ألوان وغيرها بالإضافة إلى الأدوات المستخدمة مثل الخشب والأكريليك على القماش والحفر والزيت على القماش وخامات مختلفة على قماش...هذه المدينة هي واحة للفن،شيء كهذا يبهج الروح أليس كذلك..!. واتتني الفرصة وتحدثت مع أحد أصحاب تلك اللوحات،تبادلنا الأفكار والآراء،كما أنه أعجب بطريقة حديثي عن اللوحة وعنوانها حتى أنني تجرأت وقدّمتُ فكرة مخالفة عن لوحته،ونال ذلك إعجابه حقا.. كان ذلك رائعا جدا،كانت تجربة رائعة، شعرت بسعادة بالغة،وزاد ذلك من عزيمتي على الرسم،فقد أردت بشدة أن أكون يوما ما قيد حضور أول معرض لي ولوحاتي معلقة على الجدران وأنا أقف مبتسمة وسط الناس الذين يتأملون لوحاتي وقد اختلفت الأفكار و الآراء فيما بينهم، لي رغبة شديدة في أن أعيش تلك اللحظات..

أظنني أصبتك بالملل في إخبارك بكل تلك التفاصيل،لكن حتى وإن كان ذلك مثيرا للسأم بالنسبة لك فأنا أرغب بأن أخبرك بكل ذلك،وكأنك معي تماما،تخيل..! لو كنا سوية في ذلك المعرض ستختلف آراءنا كثيرا عن معظم اللوحات الموجودة،واثقة من ذلك، كنا سنقضي وقتا ممتعا معا..لكنك لا تجيب على أي من رسائلي ولست حاضرا منذ مدة،ما الذي يحدث معك يا ترى،نحن لم نتحدث منذ

أن أتيت إلى هنا،هل أنت منشغل بالعمل يا ترى، سأبدأ بالقلق..أيا كان عد بسرعة فقد اشتقت إليك..

"دعني أخبرك أن الروح لا تزال تشتاق إليك و أن القلب لا يزال يحتفظ بك، لا يزال مكانك كما كان وسيظل هكذا للأبد .."

أمجد

أجلس وحيدا بالظلام، واضعا رأسي بين يداي في حسرة، قد ضاع مني كل شيء، لم يعد هناك مهرب، لقد أفسدت كل شيء، هدوء حاد، كل ما أسمعه مجرد صوت يعاتبني على كل شي، لوهلة أحسست بيأس عظيم يتسلل داخلي فجأة لمحت نورا بالمكان، المكان ينار بعد عتمة شديدة، أزحت يداي عن وجهي ونظرت بالمكان، فكان أبي ينظر إلي باسما، دمعت عيناي وقد كابدت روحي حتى تتكلم :

- أبي، ابتسم وقد اقترب مني ولامست يده خدي بحنان ودفئ :
- اصبر قليلا بعد، الفرج قادم يا ولدي.

قلت بصوت متحشرج نادم:

- ألست غاضبا مني يا أبي؟

ابتسم وقد ربت على كتفي قائلا:

- أبدا، لست غاضبا منك يا ولدي، انه مجرد امتحان تمر به، عليك أن تنجح به يا ولدي، فلتصبر روحك قليلا بعد. لكن حين تنجو من كل هذا، عليك أن تعمل جاهدا حتى لا تعود إليه، ولا تنسى، والدتك وعلياء أمانة لديك.

فتحت عيناي فجأة وأنا أشعر بأن قلبي يكاد يخرج من مكانه، صوت الصراخ أيقضني من غفوة نوم لم أذقها منذ وقت طويل، كان لقاءا قصيرا، وددت لو طال قليلا بعد، لكنه تلاشى، لم يبقى سوى ذكرى طويلة المدى .بعد ما يقارب المئة والثلاثين يوما، كل الأيام تشبه بعضها، لا فارق عندي، لكنني كنت أقوم بعدها كل يوم أرسم خطا بالحائط بعد انقضاء كل يوم، بواسطة قطعة حديد صغيرة وجدتها بالزنزانة، أظنني أرغب بالوصول إلى اليوم الأخير من وجودي هنا لكن لا يبدو ذلك واضحا، لا يبدو أن اليوم الأخير سيأتي أبدا، كل يوم أجزم ذلك، لكنني مع ذلك أقوم بعد الأيام، مجرد بصيص صغير من الأمل يحيا معي وسط العذاب المشؤوم والمصير المجهول هذا . بينما كنت أستمع لأفكاري بصمت قاطع غفوة

فكري صوت الباب الصدئ حين فتحه السجان واتجه مباشرة نحوي وهو يبتسم بخبث يحمل معه قماشة سوداء، ثم أمسكني بقوة من ذراعي قام وهو يقول:

- انهض، ستأتي معي. وبعدها قام بتعصيب عيناي بتلك القماشة التي كان يحملها.

لم أعلم إلى أين سيأخذني لكن على ما يبدو أن الأمر لا يبشر بالخير أبدا. لو قمت بسؤاله كان سَيَنْهال علي ضربا، وذلك شيء لا أريده أن يحدث فالتزمت الصمت ومشيت إلى حيث يأخذني مستسلما معصوب العينين . وصلنا إلى زنزانة أخرى توقف حتى يفتح الباب ثم بعدها أزاح تلك القماشة من على عيناي ودفعني داخلا، وأغلق الباب . كانت هناك طاولة وكرسيان، وعلى إحدى الكرسيان كان يجلس رجل أمن، بدا لي كبيرا في السن،لكن شكله بدا مختلفا عن السجانين الموجودين هنا، لم تكن نظرات الحقد تعلو ملامح وجهه مثلهم، أطرف في هدوء بعد أشعل سيجارة له:

- لما لا تجلس يا أمجد؟ أريد التحدث معك قليلا.

لم يبدو لي معرفته اسمي شيئا خارقا للعادة لكن لم ينادني أي سجان هنا بِاسمي من قبل. جلست قبالته في صمت، لم أنبس بشيء. أطرف بعد أن أخذ نفسا طويلا من السيجارة ثم نفثه في هدوء :

- مرحبا، أدعى عماد الفارس، صمت لوهلة ثم أطرف مجددا:

- لا بأس، الحديث مسموح معي، يمكنك التكلم.

لم أتمالك نفسي وقلت :

- ومنذ متى صار التكلم مع الخَونة شيء مسموح؟

أطرف في هدوء دون إبداء أي رد فعل غاضب:

- معك حق، إني أفهم غضبك، أنت غاضب لوجودك هنا .

- بل غاضب من كل ما يحدث هنا

ثم ملت نحوه في غيظ وحنق وأطرفت بصوت غاضب :

- هل تعلم كم شخصا يموت هنا باليوم؟ هل تعلم ما الذي يفعله أولئك الساديين مع السجناء؟ ها؟، هل لديك أي فكرة عن ذلك؟، نحن لا ننام يا هذا فقدنا طعم النوم منذ أن عتبت أرجلنا هذا المكان، هل تعلم كم شخص يتم

إعدامه؟، الآلاف يوميا، هل تسمع صوت صراخ السجناء كل ليلة، كل ثانية، كل يوم؟ ما الذي تعرفه أنت؟ ها ؟ ما الذي تعرفه ؟

أجاب وهو ينظر بعيني :

- أعلم، و لأنني أعلم بكل هذا، أنا هنا، لقد أتيت لإنقاذك من كل هذا ثم نفث دخانا من سيجارته .

انفلتت من بين شفتاي ضحكة ساخرة :

- هل تعبث معي؟ عملية تدخينه تلك لم تتوقف طوال حديثنا .
- أبدا، ألم تسأل نفسك كيف عرفت اسمك؟
- ولما علي أن أستغرب، فشيء كهذا ليس صعب على أمثالك.
- محمد الخطيب، أليس هذا اسم والدك رحمه الله؟

اتسعت حدقتا عيناي وأطرفت بحيرة وارتياب:

- من أين تعرف والدي ؟ هل أجريت بحثا عني؟
- أنا ووالدك .. صمت قليلا ثم واصل قائلا: لنقل أننا كنا نعرف بعضنا لمدة.
- ما الذي تريده مني؟

نفث دخان السيجارة تلك و أطرف :

- أظنك تحتاج لسيجارة، حتى تُهَدأ من عصبيتك هذه قليلا، ألا تظن؟
- تكلم بشكل واضح، أو اِرحل.

أطفأ سيجارته أخيرا ثم أطرف:

- بالضبط، سوف أرحل، لكن لن أرحل من دونك.

قلت بنبرة يشوبها التشويش:

- ماذا يعني ذلك؟
- اسمع يا أمجد، كان والدك شخصا جيدا، رجل ذو خير، وله فضل كبير علي، أخبرته أنني سأرد له الجميل يوما ما، و أظن أن ذلك الوقت قد حان .
- من أين تعرف أنني بالسجن؟
- أخبرتني أختك علياء.

اِنتفض جسدي لكلماته، سألته مباشرة :

- علياء؟ كيف حالها ؟ كيف حال أمي ؟ هل رأيتهما؟

- اِهدأ يا أسد، عائلتك بخير، حين علمت أنك مسجون لم أجعلهما يعوزان شيئا، كنت أعتني بهما، لا تقلق، فأولاد محمد مثل أولادي تماما .

- حسنا إذن، هل تعلم أمي أنني بالسجن؟ وكيف عرفت علياء بذلك؟

بدا وكأنه على وشك سرد حكاية لي، أطرف بهدوء:

- حين أتيت إلى هنا كنت شابا يافعا، لم يكن لدي أي شيء، خرجت من الميتم إلى العالم لوحدي، بقلب يائس، لا أملك شيئا سوى القليل من النقود كانت تكفيني لشراء رغيف خبز، حينها صادفت والدك، كنت قد أخذت رغيف خبز وأردت بعضا من الأكل لكن لم تكفي نقودي لذلك، وكان البائع يصيح في وجهي أن أدفع و إلا أعيد ما أخذته من المتجر، أعدت له ما أخذته وخرجت من المتجر وكلي حزن و يأس، جلست على أحد المقاعد وأنا أفكر كيف سأعيش، وأين سأبيت ما الذي أستطيع فعله دون نقود بجيبي. فجأة أتى والدك ووضع أمامي كيسا مليئا برغيف الخبز وبعض الأكل. نظرت إليه في ريبة، ابتسم لي ثم قال:

- هلا قبلت مني هذا ؟

حركت رأسي في نفي تام، وقلتُ بحزم :

- لا أريد، شكرا لك.

أخذ يردد في إصرار:

- أرجوك خذ هذا الأكل، لا تعتبرها صدقة، حين يكون معك سترددها يوما ما .

قلت بنبرة جدية:

- سأتدبر أمري، شكرا.

جلس الى جانبي وأطرف بهدوء:

- لدى كل شخص فينا ظروف صعبة يمر بها، لكن أتعرف ما يهون تلك الظروف؟

نظرت إليه حتى يواصل حديثه،

- المؤاخاة، التعاون بين الناس، حين نكون سببا في سعادة الآخرين نصبح نحن سعداء، حين نقوم بشيء جيد تجاه بعضنا، حين نقدم المساعدة، نشعر براحة عظيمة، والله سبحانه ورسوله قد أوصانا بالتعاون و

المؤاخاة و التآزر وتقديم المساعدة عند الحاجة، هل سترفض أنت وصية الله ورسوله ؟ اسمح لي بتقديم المساعدة، دعني أكن سببا في سعادتك لمرة على الأقل ليس من اجل شيء وإنما لأجل الله .

تجمع الدمع بعيني حين استمعت له يتحدث عن والدي، كان قد رأى ذلك فأكمل رفقة ابتسامة حانية:

- حين أخذت ما قدمه لي، شكرته ثم أخبرته عن وضعي، اخبرني حينها انه سمسار عقارات، ولم يتردد حين عرض علي الذهاب والمبيت بمنزله إلى حين إيجاده لي بيتا ثم عملا، كنت قد رفضت ذلك لكنه أصر وانتهى الأمر بقبولي عرضه، مكثت ببيتكم إلى أن عثرنا على منزل، كنت لا تزال صغيرا حينها، لا أظن أنك تستطيع التذكر، فقد كان ذلك منذ وقت طويل. لم يكتفي بعثوره لي على منزل فحسب بل حاول أن يجد لي عملا بمركز الأمن ، بذل جهده في ذلك لست أدري كيف استطاع تحقيق ذلك لكنني الآن شرطي بسببه . لم يرتح له بالا إلا حين استلمت العمل كشرطي، وحينها وعدته بأنني سأرد له دينه، وسأكون حوله متى ما احتاجني، كان ذلك قبل بدء الحرب الأهلية اللعينة هذه . اضطررت للعمل بمدن مختلفة، هكذا تطلبت الظروف إلى أن استقريت بدمشق . علمت بوفاة والدك لكنني لم أستطع القدوم، فقد كانت لدي مناوبة، شعرت بألم كبير لأنني لم أتمكن حضور جنازته، لكنني منذ مدة قررت أن أزور بيتكم، كنت سأرى إن كنتم تحتاجون أي مساعدة، كنت سأتعرف عليك و أخبرك كل الحكاية في غير هذه الظروف لكن شاءت الأقدار أن تعرف قصتي مع والدك هنا بالزنزانة.

سألته :

- هل أنت مثلهم؟ أقصد هل أنت مع النظام؟

تنهد بحسرة وقال:

- حين تحتم علي أن أكون مثلهم، قدمت اِستقالتي.
- لكنك ترتدي الزي الخاص بالشرطة.

- وكيف أردتني أن آتي إذن، هل تظن أن القدوم إلى هنا أمر سهل، صمت لوهلة ثم واصل، حين زرت بيتكم كانت علياء من فتح الباب، أقنعتها بصعوبة، لم تفتح لي حتى أخبرتها بالحكاية كاملة وتأكدت من القصة بعد ذلك من والدتها وحين سألتها عنك، قالت أنه قد تم اعتقالك .

- ومن أين علمت بالأمر؟

- قالت أن أخ صديق لك يدعى سامي أخبرها بذلك، قالت أنه قد تم اعتقال كلاكما .

سألته بنبرة خوف:

- هل بدت أنها تكرهني حين قالت ذلك؟

- بدت حزينة يا أمجد ومنكسرة الخاطر، قالت أن أخ سامي يحاول كل ما بوسعه حتى يتم إطلاق سراحكما.

- وماذا عن أمي ؟ هل علمت هي الأخرى؟

- لم تخبرها أختك، أخبرتها أنك برحلة عمل خارج المدينة .

تنفست الصعداء وأطرفت :

- حمدًا لله أنها لم تخبرها بالحقيقة.

- تطلب مني ذلك وقتا حتى أجدك، وجهدا كبيرا.

- ما الذي ستفعله؟ قلت أنك لن ترحل بدوني، كيف ستفعل ذلك؟

- كل ما علي فعله هو إلقاء عظمة لهم وسيطلقون سراحك،

- هل ستمنحهم رشوة لفعل ذلك؟

- وماذا تظن؟ هل سيتركونك بهذه السهولة، هل تعلم التهمة التي عليك المقالات التي كتبتها، أظنك تتذكر جيدا أخر مقال كتبته، لقد تدخلت بما لا يعنيك بشكل كبير.

قلت بغضب:

- بل يعنيني وبشدة، هل لأنني كشفت حقيقة أحد زعمائهم، أنا مجبور على أن أكون هنا ؟، هل لأنني تفوهت بالحق لا غير.؟

أجاب بنبرة حازمة:

- أيها الساذج، هل تعرف ما نهاية كل هذا، سيعدمونك، ستكون محاكمتك بعد وقت وجيز وينتهي أمرك، هل تظن أنك وحدك من تهتم لوطنك؟ الشجاعة وحدها لا تكفيك لتحرير وطن كامل، اِندفاعك هذا وعنادك سيأخذان بك إلى الموت . زادت حدة صوته:

- كن ذكيا، ذكيا يا أمجد.

صمتُ لوهلة، كان علي الاعتراف أنه محق، نظرت بهدوء وقلت:

- حسنا إذن، ما الذي علينا فعله ؟

- و الآن لنأتي للاتفاق المهم، رمقته بنظرات حتى يواصل حديثه :

- سأمنحهم رشوة، ستكون مبلغا وجيزا من المال، معلوم أنهم مجرد خونة سيوافقون على الفور، هذا البند الأول، أما عن البند الثاني سيكون عليك الرحيل من سوريا أنت وعائلتك، ستغير هويتك، فكونك أمجد الخطيب لا يمنحك ذلك حصانة هنا .

- وكيف سأفعل كل ذلك ؟

- سأتدبر كل شيء، الهوية الجديدة، والرحيل من سوريا .. سأمنحك حياة جديدة بشرط واحد فقط.

- ما هو؟

- سيكون عليك التخلي عن كل شيء متعلق بالسياسة، لن تتدخل بما لا يعنيك مجددا، لن تعاند، ستهتم بعائلتك وتهتم ببناء حياة هادئة لك.

المعجزة التي كنت أظن أنها لن تأتي، أتت حاملة لي خيرا كبيرا، لن أعيد نفس الخطأ، سأفي بوعدي هذه المرة، لن أنكث به. أجبته:

- موافق، لكن لي طلب واحد . هل يمكن لسامي أن يصبح حرا مثلي.

أشعل سيجارة أخرى، يبدو أن حديثنا قد أتلف أعصابه قليلا، أجاب بعد أن نفث دخانه مجددا:

- ليكن ذلك، سيتم إطلاق سراحه هو الأخر، لكن لن يكون علي تغيير هويته، فتهمته ليست ذو عيار ثقيل مثل خاصتك.

- لكن إلى أين سيتوجب علي الرحيل رفقة عائلتي؟

نفث الدخان من سيجارته ثم قال :

- إلى الأردن، مكان هادئ بعيد عن الحرب تماما .

خطرت ياسمين على بالي، هي أيضا موجودة هناك الآن، ربما فعلا لم يكن آخر لقاء لنا ذلك اليوم. ابتسمت له قائلا:

- شكرا جزيلا لمساعدتك، أقدر ذلك كثيرا، لا أعلم كيف أرد لك ذلك يوما.

- والدك كان رجلا صالحا، أنت مثله لكنك عنيد، لن يكون العناد دوما مفيدا لك، أخذ نفسا آخر من سيجارته ثم نفثه وواصل قائلا:

- أما بشأن كيف ترد لي هذا المعروف فكل ما عليك فعله هو أن تنفذ شرطنا فحسب، لن تخلف بوعدك .

قلت :

- أعدك، سأبني لي حياة جديدة و بعيدة عن كل ما يخص السياسة. أعدك بذلك .

ابتسم قائلا وهو يهم بالقيام:

- إذن سأبدأ بالإجراءات اللازمة.

"ولو أن العناد لا ينتهي أبدا، فحين ينتهي الأمل يأتي العناد وحين يغيب العناد يكون الأمل حاضرا، لكن المعجزة تأتي، في الأخير ستأتي لتُنْهِي مُرًا كابَدْتُهُ روح مثقلة بكل يأس، لكن بمكان ما داخل تلك الروح، بالأعماق، هناك دوما نور أمل خفيف، يهمس لنا كل يوم، أن الفرج آتٍ لا محالة ."

ياسمين

الأيام على حالها،كل شيء طبيعي لاشيء تغير سوى أن أمجد لم يراسلني وأنا توقفت عن مراسلته،لم أعد أكتب له،لم أعد أعلم ما إن كان ذلك فعلا ما كنت أخشاه أو ربما حدث مكروه له، كان الاحتمال الأول أقل ضررا بالنسبة لي.. ليكن بخير حتى وإن نسيني..

كنت من حين لآخر أنظر للمغلف الجميل الذي أحضره لي،أنظر بشرود،وكأنني أختلي به فقط كي أعيد بذاكرتي لقاءا عشته معه..كان يوما هادئا،كنت أجلس كأول مرة تصادفنا بها،جاء وجلس قبالتي،إبتسم وهو يسألني عن سبب جلوسي بمفردي هكذا،ثم أضاف مازحا:

- أظنك تستفقدين أيام الملك الحزين..

إبتسمتُ لمزاحه ولم أقل شيئا،ثم بعدها أخرج ذلك المغلف من حقيبته وهو يقول:

- لدي شيء لك..

نظرت إليه بحيرة متسائلة عما يقصده لكنه وضع المغلف أمامي على الطاولة وقال مبتسما و هو يحرك به إلى عندي:

- خذي، هدية بسيطة مني إليك..

كأنني تفاجأت من فعله وأظنه تفاجأ أكثر من ردة فعلي فقد قال وهو يضحك:

- ماذا..! ألا يستطيع الأصدقاء فعل شيء كهذا..! ثم سأل:

- ألم تعجبك الهدية...!

قلت في تلعثم وأنا أبتسم:

- لا، على الإطلاق، إنها جميلة،شكرا لك..

كان ذلك لطيفا نوعا ما،شراؤه لهدية لي،نظراته تلك، قررت فيما بعد أن يكون أول ما أرسم عليه قبل الإستمرار فعلا، أن يحظى بشيء يدعى المرة الأولى.. إنه

الشيء الوحيد الذي أشعر بروحي معه تقفز فرحا، كأن أحظى بفرصة عيش شيء يدعى الذكريات مثلا، شيء جميل، ما كان علي سوى أن أحبه..

داهمت زهرة الغرفة وهي تنادي:

- ياسمين..! العشاء جاهز..هيا تعالي..

إلتفتت إليها وقد أرجعت المغلف لمكانه من أغراضها. جلست وهي تتحدث مجددا:

- لدينا عزيمة غدا..

أطرفت ياسمين في تساؤل:

- أي عزيمة هذه..!

- يريد أبي أن يعزم صديقه الذي ساعدنا بالولوج إلى هنا غدا على العشاء رفقة عائلته طبعا..

قالت:

- بمثابة شكر ها..!

هزّت برأسها :

- شيء كهذا..

إبتسمت ملامحها ثم قالت :

- لا بأس بذلك..ثم صمتت لهنيهة وقالت:

- لقد تأخرنا..لنذهب..

لم يكن ذلك بالغ الأهمية بالنسبة لها،مجرد عزيمة، مجرد أناس ستلتقي بهم فكرت أنه ليس من الأجدر أن تكون هادئة للحد الذي تجعلهم ينتبهون لتلك السمة بها، ويتساءلون عن طبيعة علاقاتها مع مختلف الأشخاص كما إعتادت سابقا..لربما عليها هذه المرة أن تكسر ذلك الحاجز الذي يمنعها من أن تكون شخصا اجتماعيا كبقية أفراد عائلتها..

"حين يتعلق الأمر بالمشاعر أشعر وكأنني أضيع،ربما أضيع فعلا، لست أدري بعد، كم أملك من الوقت حتى أتصالح مع قلبي، ونتفق على كلام واحد، إنه يصر في كل مرة على أنه حب وليس صداقة لكنني مصرة دوما على أنها مجرد صداقة جميلة، فقط صداقة من الدرجة الثانية، إنها مشاعر فحسب..لكنني أحيانا ما أشعر أنني على وشك موافقة قلبي، أقترب كثيرا، وكل الإشارات توحي بذلك، لكنني

فجأة أجد نفسي أدفع بتلك الأفكار بعيدا، و أدعي الصمود، بعد التفكير بكل ما يمنع حصول ذلك..لكن يبدو أنه كذلك فعلا فقد مر وقت طويل منذ آخر مرة راسلني فيها، لم يجب على ما كتبته له، وتوقفت عن ذلك، لكنني لازلت أنتظر منه جوابا، جواب واحد هو كل ما أحتاجه، للغائب دوما أعذار تبرر غيابه، لكن في كثير من الأحيان تكون صادمة حين يطول الغياب، آمل أن لا يحدث ذلك معنا".

"الحب يا قلبي لم يكن يوما خيارك بل ما بت أعرف إن كان ذلك حبا أم مجرد موجة مشاعر، إن كان ذلك مجرد سذاجة أم إحساسا صادقا، ما عدت أعرف أيهما أصدق الآن، هل روحي التي باتت تلتهم ذكراك كل ليلة أم أنه عقلي الذي يحدثني بهجر بحر القلب هذا لأنه ابتلاء وكذا ابتلاءات لا يحمد عقباها.."

حلَّ المساء وطُرق الباب وجاء ضيوف عائلة الحمداوي أخيرا، حضر الرفيق فؤاد عز الدين وأيا زوجته باسمة رفقة ابنهما البكر والوحيد كريم، جرى الإستقبال بحفاوة، و تم الترحيب بهم بسرور كبير، وفي جو من الإبتسام المتبادل أطرف السيد أحمد:

- إذن.. أقدم لك عائلتي..

أشار إلى زوجته وهو يقول:

- زوجتي سندس. إبتسمت لهم في سرور.

ثم أشار إلى مراد وقال :

- وهذا ولدي البكر مراد.. أنت تعرفه طبعا يعمل معنا..

وأشار إلى كِلا إبنتيه وهو يقول مبتسما:

- وهاتان إبنتاي، ياسمين أولا وأخذ يشير إليها، ثم بعدها صغيرة البيت زهرة..

إبتسم السيد فؤاد وقد إستطرد:

- تشرفت بلقاءكم جميعا، وأشار إلى زوجته و إبنه وهو يقول:

- زوجتي باسمة، إبني كريم..

أطرف الإبن بملامح مبتسمة:

- سررت بالتعرف إليكم.

أطرق السيد أحمد :

- الشرف لنا يا ولدي..

بعدما حدثت رسميات التعارف فيما بينهما جلسوا أخيرا يتبادلون أي حديث عابر في خضم الإبتسامات والسرور المتبادل.. أطرق السيد فؤاد:

- إذن يا أحمد، هل إعتدتم على المكان هنا..!

أجاب السيد أحمد وهو ينظر تجاهه:

- المكان جيد، ثم ألقى بنظرات خاطفة حول عائلته وأضاف:

- أظننا نعتاد عليه رويدا رويدا، أليس كذلك..!

أطرف مراد مبتسما:

- بلى، إن المكان رائع هنا..

ثم قالت السيدة سندس :

- وما للمرء سوى أن يعتاد، لا بأس بذلك ..

أطرفت السيدة باسمة:

- ربما تجدون ذلك صعبا قليلا في البداية لكن فيما بعد سيصبح الأمر مألوفا لديكم..

إبتسمت السيدة سندس وقالت:

- لابد من أنكم مررتم بنفس المرحلة ثم تساءلت:

- منذ متى وأنتم تعيشون هنا..!

أجابت:

- منذ خمس سنوات...

قالت بنبرة إندهاش:

- ذلك وقت طويل فعلا...

أجابت بإبتسامة :

- فعلا، لقد مر وقت طويل..

أخذت العائلتان تتبادلان أطراف الحديث في إرتياح، كان مساءا مكتظا على عكس غيره من الأمسيات السابقة التي اتسمت بالهدوء، مساءا ظريفا بوجود أشخاص لطيفين، كان من الجيد لقاءهما ذلك،فقد أهدى البيت ضوضاءا لطيفة..

استطرد السيد فؤاد متسائلا:

- إذن مراد يعمل معنا، وكريم يعمل بالشركة أيضا، ماذا عن ياسمين وزهرة..! ثم أخذ ينظر ناحيتهما..

أجاب السيد أحمد:

- ياسمين أنهت جامعتها، تخرجت، كانت طالبة تاريخ، أما زهرة فهي في عامها الأخير من الثانوية..

صمت لهنيهة ثم أضاف بعد أن نظر مبتسما إلى ياسمين :

- قريبا جدا سيكون لدى ياسمين معرضا خاصا بها،ثم وجه بنظراته إلى الطرف الآخر مواصلا حديثه :

- معرضا لرسوماتها..

إتسعت حدقتا عيناها في تفاجأ مما تسمعه فهو لم يخبرها بشيء عن ذلك..كانت ستسأله عن الأمر لولا أن السيد فؤاد قد قاطعها في تساؤل:

- إذن، أنت تهوين الرسم..!

أجابت مبتسمة:

- إنه أكثر من مجرد هواية بالنسبة إلي..

قال باسما :

- من الجيد أن يكون المرء شغوفا بشيء هكذا..أُهنئك..

هزت برأسها مبتسمة :

- شكرا لك..

أضاف كريم مستطردا:

- كم رسمتِ من لوحة..!

نظرت إليه وقالت :

- أظنني تجاوزت الثلاثين..

أطرف وقد لوى شفتيه في إندهاش :

- ذلك مثير للإعجاب..!

هزت برأسها مبتسمة إليه ثم قالت وهي تقوم من مكانها :

- عن إذنكم، ثم أشارت لزهرة حتى تأتي معها..

توجهت للمطبخ ثم ما هي إلا لحظات حتى لحقت بها زهرة لتجدها في أوج فرحتها..أطرفت في حماس:

- هل سمعت ما قاله والدي..! سأحظى بمعرض أخيرا..لا أصدق ذلك..

إبتسمت زهرة وقالت :

- أنا مسرورة لأجلك، سيكون الأمر رائعا..

قالت والفرحة لا تسع نفسها :

- أنا متحمسة جدا، ثم صمتت لوهلة وقالت :

- لنجهز طاولة العشاء، هيا بنا..

وافقتها زهرة على الفور وراحتا تحضران ما يلزم، ثم لحظات وقد دعت الجميع حتى يأتوا للعشاء..

"أحيانا تحدث أشياء تجعلنا ننسى ما عانينا منه، لكن لا ننسى أبدا ما نحن عليه، قد تهدينا كينونة الراحة، لكنها لا تدنس أرواحنا، بل فقط تهدينا ما نحتاجه فعلا ولا نعلم ما نحتاج إليه إلا عندما نُمْنَحُ ذلك.."

بعد أربعة أسابيع.

قام صديق والده بإنقاذه فعلا من تلك المصيبة، أخذ منه ذلك بعض الوقت لكنه فعلها، لم يكن على يقين من أنه يستطيع إخراجه، لم يضع أملا كبيرا بكلماته تلك، لكنه يحمد الله أنه صار و سامي أخيرا خارج هذا الأمر، تطلب منهم ذلك بعض الإجراءات لأجل موضوع سفره هو وعائلته، لاسيما موضوع الهوية الجديدة الخاصة به . لكن في الأخير كان كل شيء قد أصبح جاهزا، لم يكن يدري بكذا معجزة لكنه دعا كثيرا داخله حتى يمنحه الله فرصة جديدة، حين عاد لمنزلهم عانقته أخته وكأنها تخشى ضياعه مرة أخرى، غلبتها دموعها تلك، ثم راح يتأسف لها لأنه أخلف بوعده لكنه أخذ على نفسه عهدا هذه المرة، سيتوب توبة نصوحة من هذا العمل، سيغسل روحه وعقله من كل تلك الأفكار التي يمكن أن تحيل به يوما إلى فعل كهذا، لم يتمكن من أخبار أمه كل الحكاية لكنه أخبرها أن موضوع رحيلهم شيء لازم، حتى يتسنى لهم حياة أكثر هدوءا دون رعب أو قلق، لم توافق في بادئ الأمر لكن علياء وأمجد تمكنا من إقناعها لاحقا، لابد لخوفها على حياة أمجد من كل تلك الأمور أن ينتهي، لذا قررت الامتثال لطلبهم أخيرا. استقبلت العائلة صديق الأب الوفي، وشكره الجميع على معروفه بعد أن أعطى أمجد هويته الجديدة، كان قد دبر منزلا لهم هناك و عملا صغيرا لأمجد بأحد الصحف الأردنية، كان قد طلب من أمجد أن يريه مقالاته وتكفل هو نفسه بموضوع مقابلة العمل، بعد أن بشره بأنه يستطيع أن يجري المقابلة حالما يصل للأردن، فعلا للضيق مخرج رغم كل شيء، سيخلق الله معجزة لن تكون في الحسبان أبدا، علينا أن نؤمن فقط بأن الله لا يخذل أبدا عبادا التجأت إليه . حين يمهلك الله فرصة أخرى، لا يمكنك أن تعلم ما إن كانت آخر طوق نجاة لك لذا وجب عليك أن لا تضيعها .

وقف أمجد رفقة صديق والده حتى يودعه، أطرف السيد عماد الفارس في هدوء مبتسما:

- أظنه الوداع إذن، أيها العنيد . اقترب إلى هنا. وفتح يديه حتى يعانقه .

أطرف أمجد :

- لا أعرف كيف أشكرك بعد كل هذا، لقد فعلت لأجلنا الكثير .

- رغم أنك كنت عنيدا، لكنني أخيرا استطعت أن أسدد الدين الذي علي. ليس عليك أن تفعل أي شيء، فقط اعتني بعائلتك و إبتعد عن كل ما يؤذيكم .

- أعدك، سأعتني بهم . أعدك بذلك .

تنهد عاليا ثم أطرف:

- إذن، سيكون عليكم الرحيل غدا صباحا، أعطاه ورقة كان يحملها بجيبه ثم واصل حديثه:

- حين تصل للأردن فقط اتبع ما كتبته لك في هذه الورقة، تحتوي على كل العناوين، عنوان بيتكم الجديد وعنوان الصحيفة التي ينبغي عليك إجراء المقابلة بها. أخرج من حقيبته ظرفا و أعطاه له.

- ما هذا؟

- نقود تكفيك إلى أن تتحسن أمورك.

أصر قائلا:

- لا، لا يمكنني أن اخذ ذلك، لقد فعلت الكثير مسبقا، لا يمكنني أن اخذ هذا.

ابتسم قائلا:

- لا أريد أن أعيد لك نفس الكلام الذي أخبرني به والدك، أنت تعرف ذلك مسبقا، لحظة من الصمت سادت المكان حتى قطعه السيد عماد قائلا:

- يا بني، هذا ديني وأنا أسدده الآن، دعني أنام مرتاحا أرجوك. خذ، ثم دس الظرف بين يديه وهو ينظر إليه في توسل قائلا:

- لأجل والدك.

لم يكن عليه سوى القبول وأخذ تلك النقود، عليه أن يشكر الله أولا ثم والده الذي كان سببا في وجوده حيا الآن، كان يعلم أن ذلك الحلم الذي رآه تلك المرة لم يأتي عبثا، وهذه المرة لن يهمل أمانة والده مرة أخرى.

" إني أذهب إليك كلما أردتُ العزلة، و أتحدث إليك عندما أودُ الصمت وأحبك عندما لا أُطيق الآخرين"

إليف شافاق

"العزلة هي أجمل وقت تحظى به، ليس بالضرورة أن تكون معهم دوما،من الجميل أحيانا أن تأخذ بنفسك بعيدا عن ذاك الضجيج،ضجيج العالم،أن تستمع لأغنية لوحدك،أن تناظر الكل وأنت بعيد،أن تتأمل في حياتك جيدا بعيدا عن الجميع، أن تبكي لوحدك،أن تكتئب لوحد،.والأجمل من كل هذا أن تكتب كل ما تمليه عليك نفسك . من الجميل جدا أن تأخذ حقك من الراحة أحيانا."

***

يوم مشمسٌ بنكهة ربيع سوريا، سماء بزرقة البحر، صوت الهدوء خارجا يستهويني، أردت أن أكون بمفردي لبعض الوقت، أردت التوقف عن التفكير أردت التأمل فحسب، دون شرود الفكر ذاك..فخرجت، إبتعدت بخطوات عديدة عن المنزل وكأنني أريد الهروب، تسللت روحي خارجا قبل قدماي، لم يخطر ببالي أي مكان لذا مشيت فحسب ولن أضيع فرصة وجود مكان هادىء مناسب لما تتعطش إليه روحي..الهدوء، السكينة، أقصى رغبات الروح والقلب، لن يهم أين المهم ما يجعلك تشعر به، ما يهم فعلا هو تلك السكينة التي تحتل داخلك وذلك الهدوء الذي يعم روحك، أما عن قلبك فيسوده إحساس غريب، لم تألفه من قبل، لكنه ناعم وجميل، يشبه الأحلام، يشبه أزهار الكرز البيضاء..

لم أعد أهاب التجول بالمنطقة، بداية كان الأمر برمته جديد علي، لم أظن أنني سأعتاد على ذلك، لكن الآن بدا من الجيد فعلا أن آخذ نفسي بنزهة قصيرة لمحت من بعيد وجود بعض المقاعد، نظرت جيدا وإذا بالمكان يشبه الحديقة أطفال يلعبون وأناس يجلسون على تلك المقاعد، كما يوجد أشجار زينت المكان بطلتها و أرجوحتين وبعض الألعاب، أظنه مكان للترفيه، لترفيه الأطفال عن أنفسهم وكذلك عائلاتهم، منهم من يجلس ويراقب صغاره وآخرون يقفون على مقربة منهم وهم يبتسمون، بينما أنا جلست بإحدى المقاعد أيضا أراقب كل ذلك كان المكان دافئا بشكل لطيف، هل هي الشمس بأشعتها الخفيفة أم أن ظرافة

المكان غلبت الجو ونثرت دفئا من نوع خاص..يبدو الجميع مسرورا، الكل يبتسم بدا الجميع بخير لكن ماذا عن قلوبهم يا ترى، كيف هي..! هل تبدو كمظاهرهم من الخارج، أم أنهم يخفون شيئا، بل أشياءا عديدة، هموم ربما، لا أحد يعلم، لكل شخص عباءة خاصة، تخفي كل داخله، تجعلك تبدو برتابة أكثر، فوضى أقل تشويشا أقل، أقل حزنا، ترتب مظهرك بكل الأحوال حتى تبدو على أحسن ما يرام.. لوهلة تذكرت أيام كنت ألتقي بأمجد، كان مكانا مشابها لهذا المكان غير أنه لم يكن هناك أي ألعاب أطفال بل مجرد أشجار و مقاعد، أشخاص يجلسون بالمكان وكذلك محل صغير صاحبه شيخ كبير،لم يكن طاعنا بالسن لكن ملامحه تعطيه شكلا أكبر من عمره، غزا الشيب رأسه، شخص طيب ترتسم البسمة على ملامحه دوما، يحب الحديث مع كل عابر يشتري من عنده، هكذا هو إنسان بشوش حسن الخلق. يبيع أشياءا قد يحتاجها أي عابر، في الواقع كان أشبه بكشك إلا أنه أكبر قليلا بنافذة صغيرة يباع و يشترى من خلالها، إضافة إلى تلك الأشياء التي يبيعها كان هناك مشغل أسطوانات يضعه أقرب إلى تلك النافذة وفي كل مرة يضع أغنية ما، يزيد من الصوت حتى يتسنى لكل الموجودين الإستماع لإيقاع تلك الأغاني، كانت أغاني جميلة، معظمها لفيروز بل لم أتذكر يوما أنني سمعته يشغل أغاني أخرى غير موسيقى فيروز..

"في إحدى اللقاءات الحلوة التي جمعتني أنا و أمجد، حينها كانت أغنية "نسم علينا الهواء" تملأ المكان، إبتسم أمجد لي وأخذ يردد وراء الأغنية، ثم بعدها رحت أردد معه أيضا وأنا أنظر بعينيه، حتى غلبنا الضحك من منظرنا ذلك، ثم إلتفت إلى ذلك الكشك وصاح باسما :

- يا عم..! إلى متى سيظل عشقك لفيروز خالدا هكذا..!

أجابه بصوت مسموع بعدما نظر إليه و أخرج رأسه من تلك النافذة :

- فيروز ستظل موسيقاها خالدة عبر السنين يا ولدي..

إبتسمت أنا و أمجد ثم رد عليه :

- ومن لا يعرفها فهو عديم ذوق لا يفهم بالموسيقى..

هز العجوز برأسه وأطلق تنهيدة كمن يتحسر على شيء ما ثم قال :

- في أغانيها شيء من الشوق للوطن وحنين إلى رائحة القهوة المنبعثة من شرفات دمشق، لوعة للحبيب، ولهفة اللقاء، فيها من جمال الصدف بحياتنا كلها حب وحنين..حتى نظرات العاشقين فإن فيروز تترجمها في أغانيها..

هز أمجد برأسه باسما وهو يقول :

- الله على كلماتك يا عم..

ثم صمت ساد المكان لوهلة، إلتفت فيه العم إلى عمله وأشاح أمجد بنظره إلي بينما ظللت أنا شاردة بكلماته.. سألني باسما :

- معه حق أليس كذلك..!

أجبته باسمة :

- فعلا، إنه محق فيما قاله..

أطرف قائلا :

- ما أجمل كلماتها، موسيقاها العذبة، تأخذ الشخص من زمن لآخر.."

ذلك صحيح، فعلا كلماتها الجميلة و موسيقاها الحلوة تأخذ الشخص من زمن لآخر، تهديك حق التفرد بذكرى عابرة كما لو أنها تحييها من جديد وكأنها تحدث لأول مرة."

بمجرد أن جلست تراقب المكان والموجودين به هبت إليها إحدى نسائم لقاءاتهما وأخذت تسترجع بذلك وقتا كان بالنسبة لها ثمينا، أحيانا تفكر بأنها تبالغ أو ربما ساذجة، لكنه القلب، تحاول تجاهل أنه أكثر مما هما عليه لكنه ذلك الصوت المنبعث من أعماق قلبها يهمس لها بتلك الكلمة، لكن إن كان ذلك الصوت مخطئا، ماذا عن تلك المشاعر والأحاسيس التي تراودها، باتت ساكنة بروحها، تسأل نفسها، هل هو فعلا حب..! ماذا لو أنها مجرد سحابة عابرة، ماذا لو أنها نزوة عابرة..! ماذا لو أنها فعلا تهذي وأن قلبها ساذج فعلا..! لكنه لم يحدثها منذ مدة، باتت تخشى الآن من مراسلته، لا تريد أن تكون عبئا ثقيلا، ستدع الأمر للوقت، هكذا، لن تعقد أمور قلبها أكثر.

بينما هو في استراحة من العمل أراد أن يستنشق بعض الهواء فخرج من مكان عمله وراح يتمشى ليرى أين ستأخذ به قدماه، حياته مستقرة منذ مدة حتى تراءى له أن ذلك أصبح مملا بعض الشيء، أحيانا كثيرة يظن أنه قد وهب نفسه للعمل بالشركة مع والده، لا يمقت ذلك لكنه ملّ ذلك الروتين القاتل، لا يدري إن

كانت حياته كلها أعمال ولا يجد وقتا لنفسه أو أن حياته فارغة ويحاول تغطية ذلك الفراغ بتكريس نفسه لأعماله..!في كل الأحوال، لم ولن يضره ذلك،أمه توقفت عن الإلحاح عليه بأن يتزوج، ففي كل مرة يقابل طلبها ذلك بالرفض بحجة أنه ليس متفرغا سوى لعمله، وأن فكرة الزواج ليست في باله من الأساس ولأنه الولد الوحيد لعائلته تريد عائلته أن ترى أحفادها..

" أنت بؤبؤ عيني الوحيد، وأنا أريد أن أفرح بك، أين الخطب في ذلك..!" هكذا تعاتبه أمه في كل مرة يُفتح فيها موضوع زواجه لكنه لا يلقي بالا لأيٍّ من ذلك فقط يتجاهل الموضوع، كأن الفكرة غير مهمة بالنسبة له..

وفي خضم نزهته لمحها تجلس هناك بالحديقة، ترتدي فستانا بلون الأزهار شعرها منسدل على كتفيها،عرفها مباشرة ولم يستغرق تذكره لها وقتا طويلا إبتسم وقال في سره :

- الرسامة..

توجه مباشرة نحوها، ثم توقف إلى جانبها وأطرف :

- مرحبا..

كانت تلك الكلمة الوحيدة المناسبة لهكذا وضع، كونه ذلك لقاءه الثاني بها..

إلتفتت إليه وهي تنظر بدهشة، عرفته على الفور، أطرفت متفاجئة :

- مرحبا..

قال متسائلا:

- هل بإمكاني الجلوس ؟

ردّت بإبتسامة لطيفة :

- تفضل..

ثم أزاحت قليلا حتى بجلس بجانبها..

أطرف مبتسما :

- لقد تذكرتني.. أليس كذلك..!

ردّت باسمة :

- أجل.. كريم.. ثم ضحكت وواصلت :

- لو لم أعرفك لما سمحت لك بالجلوس ..

أطرف ضاحكا :

- ذلك تماما ما خمنته..

أضاف متسائلا :

- كيف الحال..! وكيف حال عائلتك...!

أجابت وهي تزيح بشعرها من على عيونها :

- بخير، نحمد الله، وأنتم..!

أجاب :

- بخير حمدا لله..

أطرف متسائلا وهو ينظر إلى الملأ أمامه :

- إذن، ما الذي أتى بكِ إلى هنا..!

قالت :

- أردت أن أتنزه قليلا..ثم أضافت متسائلة:

- ماذا عنك..!

قال :

- نفس السبب الذي أتى بك إلى هنا..الأعمال كثيرة هذه الفترة وقد شعرت بالملل قليلا..

صمت ساد بعدها، أخذا يتأمَّلَان المكان أمامهما فحسب، حتى كسره هو وأطرف :

- هل تعودتِ على المكان..!

أجابت :

- عادي، أظنني تعودت..

سأل :

- لكنك تشتاقين إلى الوطن، أليس كذلك..!

ردّت :

- طبعا، ألا تشتاق إليه أيضا..!

قال :

- بالتأكيد أشتاق إليه..

قالت متنهدة :

- الوطن هو الحب الوحيد الخالي من الشوائب، حب سوريا مزروع في قلوبنا ولم يُصْنَع..

قال وقد أسند ظهره إلى الخلف وضمّ بذراعيه إلى بعضهما :

- فعلا، صدقتِ..

صمت لوهلة قبل أن يُطرف مجددا وهو ينظر بثبات أمامه :

- "وَلِي وَطَنٌ آلَيْتُ أَلاَّ أَبِيعَهُ

وَ أَلاَّ أَرَى غَيْرِي لَهُ الدَّهْرَ مَالِكا

- عَهِدتُ به شرخَ الشبابِ ونعمةً

كنِعْمَةِ قومٍ أصبحوا في ظِلالكا..

توقف للحظة و إلتفت إليها بعد أن استرعى إنتباهها ليجد نفسه يحدق بعينيها بدا وكأنه شرد قليلا، استغرق ذلك ثواني ثم قطع صمته و تنحنح، إستطرد بتلك الأبيات :

- فقد ألِفَتْهُ النفسُ حتَّى كأنه

لها جسدٌ إنْ بانَ غودِرَتُ هالكا.."

أشاحت بوجهها بعيدا في خجل لم تكن تدري سببه ثم أطرفت متلعثمة :

- قصيدة جميلة، من المؤسف أنني لا أعرف من كتب مثل هذه الحروف الجميلة..

قال باسما بعدما أشاح بنظره عنها :

- إنه إبن الرّومي..

قالت :

- لستُ من المولعين بالشعر..

قال ساخرا :

- ذلك واضح.. صمت لوهلة ثم واصل :

- لكنك مولعة بالرسم ..

قالت باسمة :

- ذلك صحيح.. كما أنك من محبي الشعر، أليس كذلك..!

ردّ قائلا :

- نوعا ما..واصل متسائلا:

- إذن متى سيكون معرض رسوماتك..!

أجابت :

- لنقل موعده بعد شهر على الأقل..

أطرف :

- إن شاء الله، لا أفهم بالرسم لكن هل سيكون هناك أي لوحات عن الوطن..! تمثله ربما أو تصفه..

قالت :

- بلى، إن قصة الوطن موجودة بين لوحاتي..

أطرف :

- ذلك جيد.. إنتبه إلى الوقت بساعة يده فأراد أن يستأذن ويعود إلى عمله

قال باسما وهو ينهض :

- استأذنك الآن، يجب علي الذهاب..

نظرت إليه باسمة ثم قالت :

- حسنا، لا بأس بذلك..

قال وهو ينظر إليها مبتسما:

- أرغب حقا برؤية رسوماتك، إن كان لا مانع لديك طبعا..!

إبتسمت قائلة :

- لا مانع لدي، أتمنى أن تعجب بذلك..

قال باسما :

- حسنا إذن، ربما نقوم بنزهة كهذه مرة أخرى وتريني فيها لوحاتك..

أطرفت باسمة :

- إن شاء الله..

ثم ودعها وذهب في سبيله، بدا له حديثهما لطيفا فعلا، كما أنه أراد أن يتحدث إليها أكثر، لكنه ملتزم بعمله، لكن بدت فكرة اللقاء مرة أخرى جيدة.. إبتسمت ملامحه ثم قال في سره :

- لما لا..! لنرى ما ستجلبه الحياة إلينا..

أما بالنسبة لها فلم يكن شيئا غلب تفكيرها، لم تمهله أحقية التفكير ولو للحظة..

"دوما ما ينتهي الأمر بالعودة إلى البداية ومحاولة إصلاح ما يليها بعد ذلك، لكن ما إن تتوفر الفرصة وتعود كل الأمور لمجاريها، ينقلب كل شيء رأسا على عقب ويحدث ما لا يحمد عقباه"

***

واقفة أمام مرآتها بالغرفة تحدق بنفسها بشكل غريب قالت بعد أن أطلقت تنهيدة :

- أنا أقف هنا دون أن أحرك ساكنا، أضافت متسائلة :

- ألا تظنين أن ذلك غريبا بعض الشيء..!

أطلقت زهرة ضحكة ساخرة وقد نظرت إليها تتفقد ما تقصده :

- أية غرابة..! ما الذي تتحدثين عنه!

صمتت لوهلة ثم واصلت وهي تعدل من أساور كانت تضعها بيدها :

- إبتهجي، اليوم يومك، ستنالين ما عملت لأجله، لم يضع شغفك سدًى، وأخيرا حظت لوحاتك بما حلمتِ به..

قالت ولا زالت عيناها متسمرة على نفسها بالمرآة :

- لم أستطع النوم البارحة من الحماس، أنا متحمسة جدا الآن، لست أدري كيف سيكون الأمر..

ردّت باسمة بشكل مُشجع :

- سيكون رائعا..

شردت بنظراتها إلى المرآة وغمغمت بصوت يكاد يكون مسموعا :

- آخر مرّة وقفت بشكل مطول هكذا أمام نفسي، كنت سألتقي به، ثم واصلت بصوت عال قصد تسميع أختها :

- كان ذلك ليكون رائعا لو أن أمجد سيكون هنا، إبتسمت ثم إستطردت :

- سيكون من الجميل وجوده معي..

نظرت زهرة بإستياء وسألت :

- ألستما تتحدثان..!

أجابت متنهدة وهي تحدق بالمرآة بعينين واسعتين :

- لم نتحدث منذ مدة طويلة..

نظرت وقد بدت مشوشة بعض الشيء، لم تعرف ما عليها قوله، كأنها توقعت حدوث ذلك قبلا لكنها فقط لم تكن متأكدة من ذلك..تقدمت نحوها و أطرفت بإبتسامة حانية :

- ياسمين..! ألم نتفق على أن كل شيء سيكون بخير، هل نسيتِ ما أخبرتُكِ به..!

إلتفتت إليها تبتسم بمرارة، قالت :

- لم أفعل، أعلم ذلك، سيكون كل شيء على ما يرام..

إنتهى ذلك الحديث بعناق دافيء كما في كل مرة، تفوح منه رائحة الأخوة والسند.. قبل أن يأتي الصباح، وهي مستلقية تفكر بكل ما يخطر ببالها، أرادت كثيرا أن تراسله وتخبره بما هو على وشك الحدوث غدا، أن تخبره بما يجعلها ذلك تشعر، وكيف أن الأحاسيس تجمعت بداخلها بشكل فوضوي، وأنها لا تدري ما تقوله من فرط السعادة، أرادت أن يعيشا معا يومياتهما بكل التفاصيل المملة، لكنها نثرت بتلك الأفكار بعيدا وحاولت النوم، فذلك بات يرهقها فعلا.

خرجت من الغرفة لتجد عائلتها بإنتظارها في الصالة، بدا ذلك لطيفا، نظراتهم لها وكأنها إنجاز عظيم، شيء من الفخر، إبتسامات معلقة بحبل من الأمل، وكأن الجميع يهنئها، لم يقل أحدهم يوما أنها لن تحقق، أو أنها لن تصل، كان الزمن فقط يطيل عليها فترة الإنتظار، لكن ستصدق فعلا أنها وصلت بعدما ينتهي اليوم، بعدما تسمع حديث الإعجاب عما رسمته، جهزت نفسها كي تتقبل كل وارد، ربما تكون جيدة وربما تكون سيئة، قد تكون الأفضل وقد تكون الأسوأ لكنها تؤمن بنفسها، كما آمنت بها عائلتها وأكثر.لم يهمها معرفة كيف ومتى دبّر والدها الأمر، كل ما يهمها ما ستراه بعد دقائق، كيف سيكون المكان، ماذا عن لوحاتها، كيف ستنظر إليها، إعتادت رؤيتها فقط في مكانها الذي تضعها به بعد ما تنتهي، لكن الآن هي بمكان غير ذلك، مكان تمنت كثيرا أن تراها به.

وقفت تتأمل بعينين واسعتين من حولها، متفاجئة من المكان الذي هي به للحظة تذكرت يوم زارت إحدى المعارض الفنية، كيف كانت اللوحات معلقة على الجدران بشكل مرتب و كيف أنه كُتِب تحت كل واحدة منها عنوان خاص بها كانت بضع كلمات تزين بعضا منها في الأسفل، "لمسة الرسام"، هكذا تسميها،كان يفصل بين كل لوحة فراغ صغير، حتى لا يختلط الأمر على الناس، كأن تحظى كل

رسمة بفضاءها الخاص، كل شيء يشبه ما رأته تلك المرة سوى أن المعرض هي صاحبته هذه المرّة وليس أحدا آخر، لاحظت كتابة إسمها بخط عريض عند المدخل بعد كلمات الترحيب، كما أقيم المعرض بنفس المكان الذي زارته آخر مرة حين حظت بنقاش خفيف مع صاحب اللوحات، زادها ذلك حماسا أكثر، راحت تدور بالمكان وهي تحدق بكل لوحاتها المعلقة، إنها تتذكر كل واحدة فيها، كيف رسمتها، ولماذا رسمتها، حتى وصلت إلى لوحة كتب أسفلها "ربيعٌ عاصِف" وقفت أمامها ثم تقدمت بخطوات قليلة نحوها، فجأة تذكرت ذلك اليوم الذي عزمت على إنهائها به، فتح قلبها دفتر اللقاءات مجددا وتذكرت ذلك الحديث اللطيف الذي دار بينهما حول هذه اللوحة، إنه اللقاء الأول، واللقاء الوحيد الذي لن تنساه، ستتذكره دوما بكل تفاصيله، إبتسمت ملامحها وقالت بسرّها :

" لو كان هنا، لَكُنَّا حظينا بنفس اللحظات، وحينها سنظل لساعات ونحن نحاول إثبات وجهات نظرنا بحجج مختلفة طبعا "

تمنت بكل دقيقة لو كان معها، تمنت لو أنها تتمكن من وضع نهاية للأمر داخل قلبها، لكنه مُصِّر إلا ويبقيها هكذا معلقة، معلقة بشيء من التمني، بشيء من الأمل، وربما بشيء من المعجزة..ستنسحب من الحلبة قبل أن يهوي بها قلبها إلى ما إعتاد عليه، إبتعدت فورا عن تلك اللوحة واقتربت من واحدة أخرى، فجأة قطع من تفكيرها صوت بدا لها مألوفا بعض الشيء :

- هل تشردين هكذا بكل لوحة تقتربين منها..!

إلتفتت على الفور وقد إبتسمت بعدما رأته، قالت مرحبة :

- أهلا بك، يسرني حضورك..

قال باسما :

- إنه لمن دواعي سروري..ثم واصل قائلا :

- آسف، لم أتمكن من تدبير لقاء آخر لنا بعد تلك المرة..

إبتسمت قائلة :

- لا بأس، لقد أتيت الآن..

قال :

- أترغبين بأخذي في جولة حول لوحاتك إذن..!

ردت في شيء من الإبتهاج :

- من دواعي سروري.. ثم إنتبهت من حولها وقالت متفاجئة :

- يوجد هنا أناس بالفعل، لم أنتبه لذلك..

ردّ عليها ضاحكا :

- هذا لأنك كنت منغمسة بلوحاتك..

صمت لهنيهة ثم واصل بينما راحا يمشيان وسط ضجيج اللوحات تلك :

- تأملتهم قليلا قبل أن آتي إليكِ، بالرغم من أنني لا أفهم بالرسم، لكن راقت لي رسوماتك فعلا..

تساءلت وهي تبتسم لكل من يمر بجانبها مُحَيّيا إياها :

- حقا..! أي واحدة راقت لك أكثر..!

نظر من حوله وهو يحاول إختيار واحدة من بينهم جميعا ثم أطرف مشيرا بيده إلى واحدة أخيرا :

- تلك، رأيتها فور ما دخلت المكان، وكتب أسفلها؛ " المشاعر كلمات تُتْقِنها العيون "

حدقت لبرهة بها ثم أطرفت :

- لوحة العيون، إستطردت أكثر:

- بإمكان العيون أن تسرد لنا الحكاية بحذافيرها..

قال متسائلا :

- فعلا..ثم توقف عن المشي وإلتفت إليها وواصل قائلا :

- فلتنظري إلى عيناي الآن وأخبريني ماذا رأيتِ..

قالت ضاحكة :

- يا إلهي إنك تسخر مني بشكل سخيف..

رد نافيا وقد ضحك لكلماتها :

- أبدا، لا أسمح لك بقول ذلك، أريد أن أعرف ما تخبر به عيوني للناس فقط.. لا تأخذي الأمر على محمل السخرية أرجوك..

قالت باسمة وقد توقفت قبالته :

- حسنا إذن، لنرى..

ثم راحت تحدق بعينيه بينما يحدق هو الآخر بعيونها، نظرت بعمق، وكأنها تريد أن تنسج له كلمات من داخل عيونه، للحظة راحت تصفه في سرها، أسمر وطويل

بشعر أسود كثيف، من الواضح أنه ليس من المعجبين بتلك التسريحات التي يفعلها معظم الشباب، لحية خفيفة محددة بشكل دقيق، شارب خفيف أعلى شفتيه، أما عن عيونه فهي بنية، لم تكن غامقة كثيرا ولا فاتحة أكثر بل فقط بنية، يرتدي بذلة بلون أزرق غامق، فكرت :

- لِما عليه أن يكون رسميا هكذا..

ففي المرات الماضية كان يرتدي بذلة أيضا، بالمرة الأولى ظنت لأنه لقاء تعارف ما بين العائلة وربما كان عليه ارتداء شيء رسمي كهذا، أما بالمرة الثانية فقد ظنت أنه كان باجتماع مهم بعمله وكان عليه أن يرتدي هكذا، لكن الآن لا يوجد أي رسميات بالموضوع.. لوهلة نست نفسها واستطردت بصوت مسموع :

- لما عليك أن ترتدي ذلك الآن..!

أطرف متسائلا :

- المعذرة..!؟

إنتبهت بأنه سمعها فقالت متفاجئة في تلعثم :

- أقصد بذلتك.. إنها جميلة..

قال ضاحكا :

- تعودت على ارتداء ذلك، غير أنني أكون مرتاحا هكذا.. صمت لثانية ثم واصل متسائلا :

- هل هذا ما استطعتِ أن تعلميه من عيوني، فعلا..!

إبتسمت محرجة ثم قالت :

- لستَ سعيدا ولستَ حزينا، كيف لي أن أعرف ما تخبرني به عيونك إن كنت بحال عادية..

أطرف باسما :

- بلى، أنا سعيد لوجودي هنا..

قالت :

- ليس لدرجة أن تُظهر عينيك ذلك..

قال ضاحكا :

ربما.. معك حق..

قالت :

- لنكمل جولتنا إذن..

ثم عادا للتمشي مجددا وسط زحام المساء بمعرض رسوماتها، كانت تتحدث بكل مرة عن إحدى اللوحات، تشرحها ربما أو تقدم له سببا لإختيار عنوانها، كان تارة يوافقها الرأي وتارة يختلف معها وفي بعض المرات يكتفي بالصمت فحسب، كانت مسرورة للغاية وهي تنظر هكذا بإبتهاج إلى ما رسمته يداها وتراقب نظرات الناس إلى لوحاتها في هدوء وتمعن، لم تكن تريد شيئا آخر غير وجوده معها فتكتمل الصورة التي لطالما رسمتها بخيالها..

لم تكن إلا لحظات وجاءت إليها امرأة في مقتبل العمر، بدت أنيقة بملابسها الفخمة تلك، ولطيفة في الآن ذاته، حيّتها ياسمين بعدما رحّبت بوجودها ثم أطرفت باسمة :

- حضرتك صاحبة المعرض أليس كذلك..!

ردّت ياسمين في إبتهاج :

- أجل إنها أنا، كيف لي أن أساعدكِ..!

قالت :

- أرغب بشراء إحدى اللوحات لو سمحتِ..

إتسعت عيونها في دهشة، وإبتسمت في حماس ثم قالت :

- طبعا..طبعا.. تعالي معي وأخبريني أي لوحة تريدين شراءها وسنهتم بالموضوع..

وافقتها السيدة على الفور، وذهبت بها ياسمين إلى عند والدها حتى يهتما بالأمر.. كان ذلك مفاجئا لها ومحمسا في نفس الوقت، لم تتوقع حدوث ذلك، لم ترفع سقف آمالها كثيرا..

انقضى اليوم وانتهى المعرض وغادر الناس ولم يبقى سواها رفقة عائلتها، الجميع مبتهج ويتحدث بحماس عن الأمر، لم تدري ما إن كان حلما أو حقيقة، هل فعلا حدث ذلك، هل فعلا حظت بما حلمت به طوال تلك السنين، توقفت عن التفكير وأطرفت تقول لعائلتها :

- أرغب بقول كلمة..

صمت الجميع وراحوا ينظرون إليها في ترقب، إستطردت :

- شكرا لكم جميعا على كلِّ شيء، أنا حقا مسرورة وممتنة لوجودكم معي ولأنكم لم تتوقفوا يوما عن الإيمان بي، ثم وجهت بنظراتها إلى والدها وواصلت قائلة :

- لولاك يا أبي لما كنتُ هنا اليوم، شكرا جزيلا لأنك حققت مرادي، ولأنك وقفت إلى جانبي، ولأنك دعمتني، أحبكم جميعا يا أحلى عائلة، ثم ضحكت وقالت:

- عناق جماعي، هيا جميعا..

كانت لحظات غامرة بالسعادة وبالدفء، لحظات كهذه لا يمكن إستبدالها بالمرة.

"بعد يوم حافل يكون البيت الملاذ الوحيد الذي نهرب إليه، كملجأ ربما كمظلة نحتمي تحتها من مطر الشتاء ونراقب البقية من أسفلها غير آبهين بما يحدث فعلا خارج ملاذنا."

عاد الجميع إلى البيت ماعدا ياسمين وأخوها مراد، عرض عليها شيئا يستحال أن ترفضه كما أنها لم تخفي مدى رغبتها بالأمر، أراد أن يتجولا قليلا بمفردهما، فالجو لطيف لنزهة على القدمين وكذلك هي الآن نجمة الأمسية، وافقت على الفور ولأنها تحب فعل أشياء مشابهة فذلك بمثابة توطيد العلاقة بينهما وجعلها متينة أكثر.

نسيم خفيف يداعب المارين، برودة لطيفة تخيم بالأجواء، هدوء الليل، يشبه نغمة السكينة، أضواء زينت الطريق حتى لا يغلب الظلام المكان ويفسد روح الليل بسواده ذلك . راحا يتمشيان بين كل ذلك بشكل هادىء، أطرف مراد مبتسما :

- إذن أيتها الياسمينة، لقد فعلتها وأخيرا، لقد كنتِ قيد حضور أول معرض لكِ يا آنستي الصغيرة..

ضحكت ثم ردّدت مستغربة :

- الياسمينة..! إستطردت بالحديث :

- لأول مرة تناديني هكذا، هل هو إسم دلع جديد أم ماذا..!

أجاب ضاحكا :

- نوعا ما، كما أنه بدا مناسبا، أليس كذلك...!

أجابت وقد إبتسم ثغرها :

- إنه جميل، لقد أعجبني..

ضحك ثم أطرف مازحا :

- أظنه أفضل من الطفلة الباكية، ها.. ما رأيك..!

على وشك أن تلكمه بشكل ظريف على ذراعه ثم قالت ضاحكة :

- أفضل بكثير..

قال باسما في محاولة منه لتفادي لكمتها لكنه فشل :

- أ تذكرين..! لقد إعتدتِ البكاء كثيرا وأنتِ صغيرة، ثم واصل ضاحكا :

- وكان ذلك لأتفه الأسباب..

قالت بعدما قطبت حاجبيها في إستياء :

- كنت طفلة حينها..وأنت ستظل تدعوني بالطفلة الباكية للأزل ثم واصلت قائلة :

- كأنك لم تكن تبكي أبدا..

أطرف باسما :

- بالطبع فعلت، لكن لم يكن يوجد مَنْ يُوَثّق كل ذلك حينها..

إبتسمت وقالت :

- يكفيني أنك إعترفت فقط..

قال :

- لكنّكِ ظَلَلْتِ كذلك، حتى بعدما كبرتِ لم تتغيري، لازلت تلك الطفلة الباكية، حساسة جدا، ثم نظر إليها محاولا إغاظتها وواصل :

- حين سقطت زهرة من على الدرج، يا إلهي كم أذرفتِ دموعا حينها..

ردّت في محاولةٍ منها لِقَلْب الحوار لصالحها :

- ظننتُ أنها ستموت..

قال وقد رفع من حاجبيه في تعجب :

- فعلا..! لقد نزفت من رجلها فحسب.. هل ستموت لأنها نزفت من رجلها..!

قالت مستسلمة :

- حسنا معك حق، لكن حين رأيتها تسقط بتلك الطريقة، إرتجف داخلي ولُمْتُ نفسي لأنني كنت متخاصمة معها، وفكرت حينها أنني سأكون السبب في تعاسة نفسي والجميع لو حدث أي مكروه لها..

أطرف مبتسما :

- إنك عاطفية أكثر من اللزوم، أتعلمين..!

قالت نافية :

- لا، أظن أن ذلك طبيعي جدا، إنها طبيعة الأنثى..

ضحك لكلماتها ثم لاحظ مكانا يبيع المثلجات على بعد خطوات منهم، إستطرد :

- حسنا أيتها الطفلة الباكية، هل تريدين تناول المثلجات..

أطرفت بإبتهاج :

- لن أرفض ذلك طبعا..

قال :

- ذلك جيد إذن، لنذهب..

كان كشكًا صغيرا يبيع به شابان بمقتبل العمر، وكان هناك طاولات قليلة حتى يتسنى للمارين الجلوس عليها وأكل المثلجات، ذهب مراد حتى يشتري ما تشتهيه نفسيهما بينما جلست هي تنتظره على أحد تلك الطاولات، أغمضت عينيها وقد إستنشقت الهواء وكأن روحها تتلذذ بذلك، عاد أخوها بإثنين آيس كريم، بنكهة الفراولة والفانيليا، جلس قبالتها بعدما أعطاها حصتها بنكهة الفراولة وترك لنفسه الآيس كريم الآخر، إستطرد :

- ما رأيك بالمكان، جميل أليس كذلك..!

أجابت مبتسمة :

- إنه جميل جدا، ثم واصلت بإبتهاج أكثر:

- الطقس جميل والهواء منعش، ثم رفعت نظرها إلى السماء وواصلت :

- والسماء جميلة أيضا، بلون داكن جميل ونجوم أجمل..

إستطرد وقد غادرت البسمة ملامحه :

- وبذلك المكان، كانت السماء هكذا، جميلة بلون داكن، لون المساء، نجوم تلمع ببريقها الحلو، بدت صافية بكل ذلك، خالية من أيّة شائبة، بينما المكان هناك مليء بالشوائب، أسود بشكل سيء، خبايا صدورهم الكاذبة تفوح رائحتها بشكل سيء كذلك، كأن السماء تلوثت بوجودهم، بوجود ذلك المكان .

كانت تنظر بعمق إليه وكأنها تريد أن تقتحم داخله وتَنْتَزِعَ تلك الذكريات عنه، قالت :

- حمدًا للّه أنّك نجوت..

أطرف :

- لِحُسْنِ الحظّ..

كانت الأفكار تأخذ به دوما إلى ذلك المكان، كأن نفسه تعاتبه لأنه ذهب إلى هناك، لم يعد يدري ما إن كان عليه إعتباره مجرد قرار طائش أم عليه أن يعترف فقط بخطئه ويتجاوز الموضوع..

أطرفت بإبتسامة حانية وهي تنظر بعينيه :

- لِحُسْنِ الحظّ أنك عدت إلينا، فلم نعد نعرف طعما للإبتسام منذ أن غادرتنا..

قال :

- صدقيني، لم أبتسم منذ أن غادرتكم..

قالت باسمة بشكل طفولي :

- المهم أنك هنا الآن تأكل المثلجات رفقة الطفلة الباكية . ثم ضحكت ..

أطرف ضاحكا :

- أجل، ذلك أجمل شيء..

مضت تلك الجلسة اللطيفة بين الأخوين وحان وقت العودة إلى البيت الآن على مقربة من المنزل بخطوات قليلة رُفقة ظرافة كلٍّ منهما وأحاديث حلوة بطريقة عفوية، توقفا عند باب البيت قبل أن تطرف ياسمين مبتهجة وهي تقف قبالة مراد :

- كم أنا ممتنة لك لأجل هذه الجولة الجميلة..

إبتسم لذلك ثم إستطرد :

- يسرني أنها أعجبتك، بالمرة القادمة سنأخذ زهرة معنا..

قالت باسمة :

- أجل، سيكون ذلك رائعا، التجول بالليل يكون أجمل، بعيدا عن حرارة الطقس وشمس السماء، كما أن النسيم البارد جميل جدا..

قال وقد كان على وشك أن يستدير لفتح قفل الباب :

- فعلا، ذلك صحيح..

على حين غَرّة، ظهرت سيارة سوداء من مكان مجهول، وعلى وتر بطيء من السرعة مرّت بالقرب من ياسمين ومراد حيث طلّ أحد الرجال الراكبين من النافذة وهو ملثم ثم صاح بصوت عالٍ :

- أيها الخائن..

إلتفتا كلاهما بحركة مضطربة إلى المنادي ليسدد بذلك ثلاث رصاصات من مسدسه نحو مراد مباشرة وهو يقول :

- هذا ثمن خيانتك لنا.. ثم صوت إحتكاك قوي عند الضغط على الفرامل في حين إنطلقت السيارة بشكل سريع..

إلتفتت ياسمين في ذعر دون أن تستوعب ما الذي قد حدث للتو لتجد مراد يهوي أرضا وقد ظهر بعض الدم على قميصه، صرخت بإسمه مذعورة ثم إنحنت وجلست على ركبتيها تهز جسده بيديها لكنه لا يتحرك، لم تكن تدري إن كان غائبا عن الوعي فحسب أم أنه شيء آخر، بداخلها ظلّت تؤمن بتلك الفكرة، نادت بأعلى صوتها عليه لكنه لا يزال يستلقي بجمود في مكانه.

"هل علينا التأقلم مع كل شيء يا ترى..! هل يجدر بنا أن نتوقع الأسوأ حتى يتسنى لنا العيش براحة أكثر..! أ علينا التظاهر بأن كل شيء بخير بينما داخلنا يحترق..! هل علينا أن نكون بهذه الشجاعة حتى نتخطى كل شيء..! ما العيب في أن تكون ضعيفا.. هل هو جرم أم ذنب لا نستطيع التوبة عنه..! بالكاد نتنفس تحت كل تلك الأفكار المتداخلة..! بالكاد نستطيع الصمود أمام داخلنا، خوفا من أن نتداعى أرضا.. باتت أرواحنا متعبة، ثقيلة، بالكاد نتحمل أنفسنا.. نحن من أردنا ذلك، نحن من رضخنا للفكرة بذاتها، نحن جبناء أمام أنفسنا، علينا أن نعترف بذلك فحسب."

***

المكان معتم، صوت ضحكات مجهولة، تتضح الرؤية شيئا فشيئا، مراد يقف بالقرب منها، تظهر سيارة ما، تصرخ وتحاول دفعه بعيدا، لكنه يسقط نازفا صدى كلمات ؛ "هذا ثمن خيانتك.، أيها الخائن.."، تلتفت لذلك الصوت، معالم غير واضحة، طول فارع، كل ما تستطيع رؤيته أسنان بارزة، إبتسامة حقيرة يوجّه مسدسا نحوها ثم صوت يقول ؛ " ودعي أخاكِ " فتنطلق رصاصة من ذلك المسدس، تنظر بجانبها لترى مراد يسقط مجددا، ينزف بشدة، تنظر ليديها، قد تلطختا بالدم، تنظر مجددا بإتجاه ذلك الشخص، يعدل من مسدسه، يوجهه نحوها ثم طلقة رصاص ثانية..

إستيقظت في فزع شديد وهي تصرخ،تسارعت دقات قلبها في اِنفعال، جسدها يرتجف خوفا، دسّت برأسها بين كفيها مغمضة العينين، ثم راحت تردد كلمات :

" لا.. أرجوك." بشكل هستيري، بينما هي هكذا دلفت الممرضة على صوت صراخها المفاجئ، حاولت تهدئتها وجعلها تستلقي مجددا لكنها تكورت على نفسها وأحاطت ركبتيها بذراعيها وحشرت رأسها بينهما وهي تتحرك إلى الأمام و الخلف. هرعت الممرضة خارجا حتى تُحضر الطبيبة المسؤولة عنها، حين أتت كانت ياسمين لا تزال على تلك الحالة، أشارت للممرضة حتى تعطيها حقنة ودون أن تنتبه ياسمين لما يجري من حولها، غرزت الطبيبة تلك الحقنة بذراعها ثم سرعان ما إستسلمت لهما و إستطاعوا جعلها تنام مجددا . إستطردت الطبيبة وهي تمسح على شعر ياسمين بدفء :

- هذا من أجل تهدئتك يا عزيزتي، ستكونين بخير..

ثم إلتفتت إلى الممرضة وقالت :

- علينا أن نخبر عائلتها أنها إستيقظت، ناديهم بسرعة..

هزّت الممرضة رأسها موافقة ثم خرجت لتنفذ ما قيل لها..

مستلقية بالسرير على ظهرها، فتحت عينيها ببطء ونظرت من حولها في ريبة تتفقد أين هي، رأت البياض من كل جانب . سقف أبيض، جدران بيضاء، ستائر بيضاء ولحاف أبيض، حتى الأرضية تلونت بالرمادي، المكان الذي يمقته الجميع من المفترض أن اللون الأبيض يبعث بالسلام والطمأنينة في نفوس الآخرين لكنه هنا لا ينفك يزيدهم إرهاقا و كآبة ناهيك عن الأدوية التي تُعْطَى لهم هناك وتلك الأجهزة السريرية و أنبوب السائل المغذي الملتصق بالذراع طوال فترة مكوثهم هناك، كل شيء يثير غثيان الجسم بشكل ما..بدأت شيئا فشيئا تستعيد إحساسها بجسدها. عرفت على الفور أنها ممددة على سرير غير سريرها، في غرفة غير غرفتها . هل لا تزال داخل الكابوس ؟ لم تستيقظ بعد بشكل كامل، كأنها عالقة بين عالمين، عالم الأحلام وعالم اليقظة، تشعر بتثاقل أعضائها جميعا، لا تزال تحس أن رأسها يُعْتَصَرُ من الألم وكأن أصابعًا تخترق بقسوةٍ جلد رأسها وتضغط عليه بقوة حتى يستقر الألم خلف عينيها، تناهى إلى مسامعها صوت خافت لم تستوعبه في بداية الأمر:

- وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ (41) وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ (42) وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ (43) ۞أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ (44) وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ (45) ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ (46)

حولت بصرها بإتجاه ذلك الصوت عن يسارها، فرأت شبحا أبيض، ملامح ضبابية، رؤيتها مشوشة بعض الشيء، كل شيء غارق في البياض، أشكال عشوائية تطفو في الفراغ .

- يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ (47) وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ (48) وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ

سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ (49) وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ (50) وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ (51) ثُمَّ عَفَوۡنَا عَنكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ(52)

عادت لتسدل جفنيها في هدوء، وتستجمع تركيزها على حاسة السمع، الحاسة المتبقية لها في تلك اللحظة.. حاولت الإصغاء بكل جوارحها، والتركيز على ذلك الصوت السلس الذي لامس ثنايا روحها، كان الصوت يعلو ويزداد وضوحا، وكأنه يدرك أن روحها متعطشة لهكذا سكينة..

- وَإِذۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡفُرۡقَانَ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ (53) وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ (54) وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ (55) ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ (56) وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ (57) وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ فَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ رَغَدٗا وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ(58)

لكن لحظات السكينة تلك لم تدم سوى بضع دقائق معدودة، فسرعان ما غاصت من جديد في طيّات كابوسها، وكان ذلك الصوت الجميل يبتعد عن سمعها حتى سكت وعادت روحها تكابد ثقلها من جديد.

هبّ السيد أحمد من مقعده فجأة واقترب من سرير ياسمين دون أن يتوقف عن الترتيل، رأته زهرة ينحني إلى جانبها ويرفع صوته بالقراءة، حدقت فيه للحظات ثم أطرفت متسائلة :

- هل تحركت...؟

لم يجب عن سؤال اِبنته، تجاهل كلماتها فحسب فهو الآن منشغل بإنقاذ القطعة الأخرى من روحه، عليه أن يحرص على عدم فقدانها..كان صوته يرتعش طوال التلاوة وكانت تقاطعه شهقات بكاء، وفي كل مرة كان يتوقف لوهلة يتنهد قليلا ثم يكمل قراءة القرآن..ثم في آخر مرة لم يستطع منع بكائه وراح يردد بذلك الصوت المتحشرج الذي اِختلط بالبكاء :

- "اللهم حصن لي ابنتي، اللهم اِشفي لي ابنتي اللهم إِحفظها لنا "

ذلك الصوت المرتعش كان من خوفه على فقدانها وشهقات البكاء تلك التي ما لبث يمنعها كل مرة كانت ذعرا من حالتها تلك وحزنا على ما عاشه بتلك الأيام .كان بود زهرة أن تهم بعناقه و أن توقف دموعه لكن أحيانا لا تستطيع أن تمحي الألم داخلا بمجرد فعل ذلك، تركت العبرات تسيل من على خدها، وحولت نظرها إلى أمها التي لم يكن حالها يختلف كثيرا عن حال والدها، فعادت لصمتها المثقل مسندة رأسها نحو الخلف على الجدار في حزن تناجي الله داخلها..

كانت ياسمين على تلك الحال منذ ما يُقارب أسبوعين، في تلك الحادثة، حين حدث كل شيء وأسرعت عائلتها وبعض الجيران للخروج فور سماعهم لطلقات الرصاص وصراخها المتوالي، كانت شاردة عن تلك للتفاصيل بينما جلّ إنتباهها يركز على مراد و إيقاظه، فزع الجميع بما رأوا وإنهالت التكبيرات من كل طرف بعد أن اتصل أحدهم بالإسعاف.. حامت بنظراتها من حولها ووجهها غارق بالبكاء ثم صرخت في حنق وغضب :

- أُصمتوا، أُصمتوا جميعا..

وعادت بعدها لمحاولاتها اليائسة في إيقاظه رفقة والدتها وأختها، بينما الأب يقف دون حراك وهو يحملق مصدوما بما يراه. لكن سوء الصدمة وقع على عاتق ياسمين، كان الجميع في حالة يرثى لها لكن حالة ياسمين كانت أسوأ بقليل.. فقدت وعيها حين كان الإسعاف يحاول نقل مراد إلى المستشفى بعدما تفحص أحد المسعفين نبضه وحالته مرارا، ثم نظر في خيبة إلى زملاءه وأشار لهم لجلب تلك..... أدخلوا مراد بها ثم أغلقوا عليه وسط صدمة الجميع بما فيهم ياسمين حين هرولت وصرخت بشكل متواصل :

- هل هو حي..! إنه حي.. أُتركوه..

ثم بعدها، أحست بالمكان يدور من حولها، أصبحت ساقاها ثقيلتين، نبضات قلبها تتسارع بقوة حتى تراءى لها أنها تستطيع سماعها، بدت أصوات من حولها مجرد صدى يخترق أذنيها دون أن تفهم فعلا ما مفاده، حاولت المشي لكن خطواتها كانت أثقل وبدا لها سطح الأرض يتحرك، فركت عينيها تأمل شيئا من الثبات لكن سرعان ما داهم ظلام حالك رؤيتها وسقطت مغشيا عليها، كان ذلك إشارة لبداية غيبوبتها..

إنتهى عمل الشرطة في أخذ إفادة الجميع، وانتهى التحقيق بتلك الجريمة بشكل يائس فلم يتم العثور على القاتل، والشخص الوحيد الذي رآه ينام بالمستشفى، لم يكن أحد يعلم أنه كان ملثما، حتى وإن سألوها عنه لن تفيدهم بأي شيء، لا توجد أدلة كافية حتى بالرغم من أن السيد أحمد أشار أصابع الإتهام إلى أولئك الأشخاص الذين كان مراد معهم بذلك المكان، وعدت الشرطة بأنها ستبحث بالموضوع أكثر، فمن الواضح أن الأمر أكثر من كونه مجرد جريمة قتل عادية وإلى غاية ذلك ستسلم جثة مراد إلى عائلته حتى يتسنى لهم دفنه.. بعد كل ذلك، ذهب الجميع إلى المستشفى لأجل رعاية ياسمين والسهر إلى جانبها، علّها تستيقظ في وقت ما..

سواد قاتم يحيط بها من كل جهة، تجري بسرعة دون أن تنظر خلفها، كل خطوة تأخذها تغرق في السواد أكثر، في كل مرة تظن أنها على وشك الوصول إلى الضوء، يزداد المكان ظلاما من حولها، وكأنها في صلبه، يتناهى لسمعها صوت أحد يناديها

- ياسمين.. تتوقف وهي تلهث بشدة، ثم تلتفت خلفها، يُنار المكان فجأة ويظهر مراد وهو يبتسم لها قائلا :

- أيتها الطفلة الباكية...

تنفرج أساريرها ثم تتقدم إليه وهي تغمغم في دهشة :

- مراد.. تزيد من سرعة خطواتها وهي تبتسم له ثم لحظات قليلة وتنطلق إحدى الرصاصات لتصيبه على مستوى صدره من اليمين فترديه أرضا، ينطفىء ذلك الضوء ليحل محله ليل أسود، تصرخ فزعا وهي تغمض عيناها بيديها، ثم تسمع ذلك الصوت مجددا، تلتفت بسرعة أمامها وتهرع بالركض وهذه المرة دون أن تدع تلك الأصوات تشوش عليها، يعلو الصوت أكثر فأكثر، تضع يديها على أذنيها حتى تُخْرِسَه، تتابع الركض، بدا لها وكأنها تدور في حلقة، تعثرت وإنكفأت على وجهها، تأوهت من الألم حين إرتطمت ركبتاها بالأرض، لكنها إستندت على يديها محاولة الوقوف، وإستأنفت ركضها، عصفت الكلمات بتفكيرها

- أيها الخائن..

لتتداخل مع كلمات مراد

- أيتها الطفلة الباكية.. آنستي الصغيرة..

ثم صوت طلقات الرصاص وبعدها أصوات تردد

- الله أكبر..الله أكبر...

صوت الإسعاف..عاد صوت مراد مرة أخرى

- صدقيني، لم أبتسم منذ أن غادرتكم..

صوت ضحكاته مجددا.. ثم عاد ذلك الصوت المشؤوم

- هذا ثمن خيانتك لنا..صرخت بقوة :

- أُصمت..

أصبحت ترتعد و أنفاسها تتردد بصعوبة بصوت كالحشرجة، نبضاتها تتسارع وصرختها محبوسة بحلقها،تراءى لها أن ظلالا قاتمة تتراقص أمام عينيها، كلمة واحدة تتردد في عقلها وقلبها، خرجت بمثابة صرخة من شفتيها في مرارة :

- مراد...

إنتابت الرجفة كامل جسدها على حين غرة وفتحت عينيها مجددا وهي تشعر بصداع حاد، نفس المكان الأبيض، فلحت في تحريك أطرافها هذه المرة، رفعت رأسها، كانت رؤيتها أفضل أيضا، تستطيع تمييز الأشياء المحيطة بها، رأت ثلاث أشخاص بالغرفة، كان والدها ووالدتها يجلسان قبالة سريرها على كرسيين متجاورين ويقرآن بالمصحف في هدوء بينما زهرة تجلس على الطرف الآخر من جانبها الأيمن، ترتل القرآن والدموع تسيل على وجهها في خشوع هادئ، نادت بصوت واهن :

- أبي..

إنتبه الجميع إليها و هبوا إليها و إحتضنوها في حنان وهم لا يكادون يصدقون أعينهم، و ألسنتهم تلهج بعبارات الحمد والشكر. أطرفت والدتها وهي تمسح على وجهها الشاحب بكفها :

- كيف تشعرين يا صغيرتي ؟

أجابت بصوت واهن :

- متعبة.. وصداع..

إنتبهت إلى أنبوب السائل المغذي الموصول بذراعها فهتفت وإحساسها بالضياع لا يفارقها :

- ما الذي حصل ؟

تنهد والدها وهو يجلس إلى جوارها على جانب السرير، وقال في حزن :

- أنت في المستشفى يا بنيتي، حمدا لله على سلامتك..

تساءلت :

- منذ متى ؟

قال :

- منذ أسبوعين على الأقل ..

تمتمت غير مستوعبة :

- أسبوعين..!

ثم راحت تسترجع ما حدث قبل ذلك، لاح صوت الرصاص بذاكرتها وقفزت صورة مراد وهو على الأرض إلى عقلها، تساءلت بنبرة خوف والدموع قد تجمعت بعينيها :

- مراد..!

تبادل الكل نظرات حائرة، ثم إسترد الجميع نظراتهم المحملة بالأسى، سألت بصوت متحشرج :

- لقد توفي أليس كذلك ؟

همّت زهرة لمعانقتها وقد إنفجرت باكية، وكأن ذلك أغناها عن سماع الإجابة كاملة، فجأة إنتابها بكاء هستيري يقطع القلوب، حاول الجميع تهدئتها بشتى الطرق، لكنها إستمرت في النحيب حتى دلفت الممرضة. عاينتها بوجه حزين، ثم أعطتها حقنة مهدئة جعلتها تسترخي بعض الشيء، أطرفت تخاطب عائلتها :

- إنها منهارة.. لكن الأعضاء الحيوية في حال مستقرة، فقط يجب أن ترتاح لبعض الوقت قبل أن تسترد عافيتها. ثم غادرت الغرفة بعد أن جعلت ياسمين تستلقي على السرير في إستكانة و ضعف، كانت تنظر إلى الفراغ وملامح وجهها توحي بحزن عميق.

إنحنى والدها إليها، وقد جلس إلى جانبها و همس بحنان :

- أصغي إلي يا بنيتي، مراد الآن بأمان، هو بأياد خالقه، حمدا لله أنه رجع إلينا بعد طول غياب، على الأقل نعرف أين هو الآن، حين أراد الله أن يرجعه إلينا، فعل، لكنه الآن أخذه إليه، ولا إعتراض فيما قدره الله حتى لو أن قلوبنا تحترق لرحيله، لكن لا شيء لنفعله، علينا أن نصبر، أن نصبر لموته وندعو له بالرحمة،

أعرف أننا لن ننساه ما حيينا ولن نتجاوز ألمنا هذا بسرعة لكن الله سيزرع سكينة بقلوبنا حتى نتمكن من ذلك، والوقت كفيل بشفاء الجروح، لم يشأ أي منا أن يرحل مراد عنّا، لكن من نحن لنعترض قدر الله، لو بلغ الألم أوجه، لن نعترض، سنبكي، ونحزن لكننا سنحاول أن نصبر، هذا كل ما بأيدينا، رحمه الله وأسكنه فسيح جنانه، وألهمنا الصبر والسلوان على فراقه.

سكت لهنيهة وقد غلبته الدموع ثم تنحنح وواصل :

- إن داخلي يحترق لموته، لكن ما لن أستطيع تحمله هو فقدان قطعتين من قلبي، ما يزيدني حزنا هو رؤيتك هكذا، سبق وفقدت مراد، هل سأفقدك أنت أيضا..! لا تفعلي هذا بنفسك أرجوك وتجعلينا نحترق لذلك، فوالله لن نستطيع التحمل.

سكنت شفتاها عن الحركة والعبرات تسيل على وجنتيها في صمت ثم أطرفت بصوت متحشرج :

- لم أكن أعرف أنها ستكون آخر مرة أراه بها، قاطعتها شهقات بكاء لكنها واصلت :

- إنه صعب، صعب جدا يا أبي.

هبّ إلى احتضانها محاطا إياها بذراعيه ثم قال بصوت حان بللته الدموع التي لم يستطع مقاومتها :

- أعرف ذلك يا بنيتي، لكنه سيمر، سيمر إن شاء الله..

سمحت لنفسها بالبكاء بحضن أبيها، بكت بكل ألم وحسرة، في حين زهرة تحتضن والدتها وتحدقان بهما وهما تبكيان بحرقة. تهاوت الدموع على وجوه الجميع في حزن شديد، وما بيدهم أن يفعلوا غير ذلك، هذه المرة لم يكن رجوعه احتمالا أو أملا، هذه المرة رحل إلى الأبد، ظلت الذكريات وحدها تحوم بالأفق ذكريات سيصعب نسيانها.

" حين فشلت في التخلص منك، حين عجزت عن ذلك، هرعت للكتابة، لأجلك، كي أُشفى منك، حتى يشفى قلبي الضرير".

***

تنهد بغضب، ها هو ذا يشطب ما كتب و يلقي بالورقة بعيدا للمرة الرابعة على التوالي، تشوشت أفكاره أو بالأحرى تلعثمت كلماته، كان العنوان على شاكلة رسمتها، أول لقاء بها لكن ما سيكون بعد ذلك، يعجز عن كتابته يفلح جيدا في رسمه بخياله لكنه عاجز عن تجسيده بكلمات من تأليفه، سارع بالكتابة مجددا :

" أما آن لقلبي ان يتوب عن حبك أما كان القلب ليغفر ذنب حبي لك، لكنه يعاقبني ببعدي عنك، أترين ؟ تلك الأنغام التي يعزفها بكل مرة أرى عينيك سمفونية حلوة تماما كإبتسامتك.. والآن أين أنتِ ! و أين حبك ! اشتقت لعيونك لملامحك، اشتقت لك .. قلبي يحدثني بألم فقدانك، فهلا عدتي .."

توقف لوهلة، تأمل ما خطه قلمه لكنه عبس وقام من مكانه، ذهب خارجا،لعل استنشاق بعضٍ من الهواء ينفعه، أراد الكتابة، أراد البوح بمكنوناته لتلك الأوراق، لكنه يهرب، صوت ما يهمس داخله، لقد رحلت ولن تعود، أراد إنكار ذلك، لم يرد تصديقه، لكنه حقيقة، واقع بالنسبة له، حقيقة يأبى تصديقها شيء من الأمل لازال يطوف حوله، لازال ينتظرها، فهل ستعود يوما ؟ كان الجو معتما بالخارج، الساعة الحادية عشر ليلا، هدوء يسود المكان،أخذ يقلب بهاتفه لا شيء جديد، بكل مرة يفتح بها هاتفه يأمل وصول رسالة ما، دائما ينتظر تلك الرسالة الوحيدة، الرسالة التي تغير نبض قلبه بمجرد التفكير بها، لكنها لم تصله أبدا، ربما هي رسالة من الممكن أن تصل له، فلو وصلت لكان ذلك معجزة ثانية بالنسبة له، أشعل سيجارة له وأخذ يدخن بحنق، جالسا أمام بيتهم الجديد. أخذ يفكر فيما مر عليه و ما هو عليه الآن، لقد استقر فعلا رفقة عائلته، كل شيء تغير، حتى هواتفهم كانوا قد غيروها. هو الآن يملك وظيفة جيدة، ينمي بها مهاراته الخاصة بالكتابة، بتلك الصحيفة التي يعمل بها، مقالاته التي يكتبها لا تتضمن حديثا شيقا عن السياسة أو الحرب، أو تهدف إلى كشف حقائق عميقة، بل فقط مجرد مقالات يفلح جيدا في كتابتها، يبدو أنه يستطيع الكتابة بمجالات غير مجال السياسة، هذا ما قاله له رئيس عمله حين مدحه ذات مرة، توعده بترقية إن لاقت مقالته التالية نجاحا في الأسواق و أعجب بها مديره. يعمل على ذلك جيدا

فهو يرغب كثيرا بأن يكون محررا، لا مجرد كاتب مقالات بالصحيفة، هو فعلا يهوى الكتابة وإنما الوقت الذي كان يقضيه خلف أمور السياسة كان يمنع عنه ذلك، لكنه الآن حر طليق، سيكتب حول أي شيء ترغب به روحه. فالكلمات موجودة داخله مسبقا، يحتاج فقط أن يرتبها . ربما سيرتاح قلبه إن كتب عنها إن ألقى بتلك الكلمات داخله التي يحملها قلبه لأجلها على تلك الأوراق، لن يكون منصفا بحقه ولا بحق قلبه، لكنه يرغب كثيرا في تخليدها بروايته، و إن لم يعثر عليها أبدا فانه سيقرأ كتابه في كل مرة يهمس له قلبه بالشوق والحنين إليها. لن يكون كافيا، يعلم ذلك، لكن سيفي بالغرض. علا رنين هاتفه فجأة لتتلاشى أفكاره، نظر ليرى من المتصل، فكانت علياء رد عليها مسرعا، فأتاه صوتها ناعسا ومترددا :

- أخي؟ أين أنت ؟ لما لست بالبيت، قمت حتى أتفقدك لكنني لم أجدك،

ابتسمت ملامحه وأطرف:

- لا تقلقي، أنا بخير، فقط أجلس خارجا أمام المنزل، سأدخل بعد قليل.

جاءه صوتها وكأنها اطمأنت :

- حسنا إذن، لا تبقى مطولا. ثم أغلقت الهاتف.

إنها تفعل ذلك كل ليلة، تتفقد غرفة والدتها ثم غرفته، هو يعلم ذلك، لأنها كثيرا ما تجده مستيقظا يحاول الكتابة. لكنه حين ينتهي من الكتابة يتفقد هو الآخر كل من والدته وأخته. فأحيانا كثيرة لا يستطيع النوم، فيلجأ لحروف وكلمات يخطها على أوراقه، اعتاد فعل ذلك كل ليلة، فالكتابة باتت تريح روحه أكثر من ذي قبل، انه يستمد ثبات قلبه منها. يتذكر بأحد المرات حين وجدته ياسمين جالسا يكتب بعض الكلمات، سألته حينها عما يكتبه و ما معنى ذاك الذي يكتبه لأنه رفض أن يريها ما يخطه قلمه حينها، كان شيئا متعلقا بمشاعره نحوها أجابها وقتها :

إن سألتني الآن ما معنى هذا الذي تكتبه لن أجيبك، طبعا لأنني لا أعرف الإجابة، وأنا مثلك جاهل لمعنى كتاباتي. ماهيتها وما خلفها وما هدفها،لا أعلم،لكن إن سألتني لما تكتب، فحينها أستطيع إجابتك اكتب لأحيا،اكتب لأن أبجدية هذه الهواية شغفي،اكتب حين أتنفس هواءا خانقا حين يكون الأكسجين قد نفذ والغيوم قد تلبدت،حين يكون الفصل شتاءا والجو ممطرا ودرجة الحرارة تناسب

نفسيتي..حين كل شيء يصبح أضْيَقَ على قلبي...حين لا أجد سبيلا للهرب ..حين اغرق في بحر الدنيا..حين تتهاطل علي الأفكار أمطارا غزيرة..حين أرى حلما تحطم،أملا اختفى،.ودربا ضاع..أكتب لأعيش وليس لأنني أعيش،أكتب لأصبح سعيدا وليس لأنني سعيد..أكتب وأكتب جداريات قلبي وملامحه المشوشة..أجدد خلايا روحه بعشق جديد وحب أجمل ألا وهو شغفي."

ابتسمت لجوابه فحسب، فهي دوما ما تعلم أنه يخبئ الكثير داخله . تقتحمه ذكرياته معها بشكل عميق، كل ذلك يزيد الشوق درجات، سيبحث عنها، لن يتوقف، هذا ما يتحدث به مع نفسه في كل مرة، إنها سره الصغير، لم يخبر عنها أي أحد، يبعثر نفسه بأحاديث يخلقها قلبه ثم عقله، لا يعرف أين وكيف سيجدها، لا يعلم أي شيء عنها، مجرد سواد عاتم فقط.

"هل أكتبك أم أكتب قلبي الذي بات جريحا لأجل حبك؟ هل أبكي فراقك؟ لا أريد أن أفقد الأمل في العثور عليك، كيف أنت يا ترى؟ كيف حالك؟ هل لازلت أزور أفكارك؟ هل لازال قلبك يحدثك عني؟ أم أنه قد نسي ما كنا عليه قبلا ؟ حتى وإن أردت نسيانك لن أفعل، لكنك مفقودة ولست أدري أين أبحث عنك."

إنّنا لا نبكي على الميّت لذهابه عنّا..و إنّما لِبَقائنا دونَه" "

مصطفى صادق الرّافعي

***

لم تكن ياسمين ترغب في أن تفتح عينيها، قامت بمحاولة أولية فاِكتشفت أنه لا يزال بعد منتصف الليل، نظرت حولها لترى ما إن كانت زهرة نائمة، كانت الفتاة تنام بعمق، حولت بصرها إلى السقف، إنارة الأباجورة الصغيرة تكتسحه قليلا، تنهدت ثم باشرت بالإستغفار، تلك الكوابيس التي تراها تشكل حاجزا بينها وبين النوم، ليس ذنبها، هي تريد النوم لكن في كل مرة تغمض عينيها بعدما يغالبها النعاس يداهمها ما حدث بتلك الليلة و تقتحمها الكوابيس على حين غرة، تجلبها إلى الأعماق وتتركها هناك تصارع، تصارع لأجل أن تستيقظ، أحيانا كان يعتريها إحساس أنها تسقط، وأثناء كابوسها، تشعر أن جسدها يقوم بحركات عشوائية في محاولة يائسة ليوقف سقوطه. وحين تستيقظ تكون مذعورة دوما، يخفق قلبها بشدة، بات أي صوت مفاجئ ينبهها وكان ذهنها مرهقا من كل شيء. ثم يأتي الكابوس، كل ليلة، أفظع من الليالي التي سبقتها حتى أنها تضطر للإستيقاظ، ثم تنتظر أن يبزغ الفجر، وهي عازمة على إستبعاد النوم، من فرط خشيتها أن يعاودها ذلك الكابوس بمجرد أن تغمض عينيها. باتت تعلم الآن أنها تعيد نفسها في عالم الأحلام، لهذا حتى وهي وسط أحد كوابيسها تكافح لتسترد وعيها، لكن ليس قبل أن تمزق صرخة مكتومة حنجرتها حين تغرق في الظلمات، كانت تصدر صوتا عاجزا حين ينفجر ذعرها ويحررها، فتستيقظ متعرقة ولاهثة وهي لا تزال مرتعبة بينما الكابوس يتلاشى. إنها تخاف تلك الكوابيس كثيرا ففي كل مرة ترى كابوسا بها تعيشه بنفس الألم وأحيانا أكثر، وهذا ما زاد من إرهاقها، فهي

تستيقظ مثل الشبح بوجهها الشاحب المتعرق، وتلك الكوابيس تزيده شحوبة تظل مستيقظة تحوم بنظراتها حول المكان حتى تُرْهَقُ جفونها وتنغلق دون دراية منها، تشتاق لنوم هادئ ولو لساعة لواحدة، لمرة تريد أن تنام بعمق دون فزع تلك الكوابيس، ترغب براحة روحها بشدة.. أصبحت الحياة شبه منعدمة ببيتهم، مجرد أجساد خاوية من الفرح تعيش روتينها الطبيعي، تحاول وسط ذلك تقبل الحقيقة المرة، رحيل أحد أفراد العائلة، عادت الأيام لما كانت تشبهه حين رحل مراد لأول مرة، نفس الأحاسيس غير أنها قاتلة أكثر من تلك المرة، عاد ذلك الصمت المريب على طاولة الأكل، غرابة وحزن بتصرفات الجميع، كل شيء أعاد إحياء نفسه، إلا ذلك الأمل برجوعه، فهذه المرة باتوا يعرفون حق المعرفة أنه لن يعود أبدا..

شعرت برغبة في شرب القليل من الماء، فأخرجت ساقيها من السرير ووضعت قدميها المرتجفتين على الموكيت الرقيق الذي يغطي أرضية غرفة نومها . حين نهضت دارت الغرفة بها واِضطرت أن تضع يديها على الجدار لتتوازن، مشت مترنحة حتى الباب ثم في الْمَمَر، نزلت بخطوات ثقيلة عن الدرج، تشعر بساقيها ثقيلتين، إجتازت مترنحة الخطوات القليلة التي تفصلها عن المطبخ، وهناك صبت كأسا من الماء البارد و اِبتلعته، رجعت بعدها إلى غرفتها تحس بإعياء بجسمها ثم اِستلقت على سريرها و دثرت نفسها باللحاف. شعرت بألم في حلقها، وقلبها يخفق في صدرها، وكل جسدها يؤلمها، عرفت أنها مصابة بالحمى، أحست بالدموع تحرق عينيها، ثنت ركبتيها إلى صدرها و أغمضت عينيها آملة زيارة شيء من النعاس لها.

حين فتحت عينيها بكسل كان ضوء النهار يملأ الغرفة، شعرت بيدي أمها المواسيتان وهما تبعدان بحنان شعرها الرطب من التعرق عن وجهها، وتضعان فوطة مبللة على جبهتها.

سألتها والدتها في قلق:

-كيف تشعرين يا حبيبتي ؟

قالت بصوت واهن:

-جسمي يؤلمني.. أظنني مصابة بالحمى..

قالت والدتها:

-أجل إنك كذلك يا عزيزتي..

سألت:

-زهرة بالمدرسة!..

أجابت أمها:

-أجل ووالدك بالعمل، لا يوجد غيرنا بالمنزل. واصلت:

-سأحضر لك فنجان شاي ساخن وبعض الوجبات حتى تتحسني وأعود..

عارضتها:

-كلا، سآتي معك، سيكون ذلك أفضل من المكوث بالفراش..

إبتسمت والدتها وقالت:

-لا مانع لدي عزيزتي، لنذهب..

كانت تعلم أن مكوثها بالفراش سيزيد من شعورها الكريه فحسب، لا تريد أن تستسلم لكل هذا، لا يجب أن تظل هكذا، هي تكره ذلك، ذلك الشعور، خفقان قلبها السريع، وخوفها، تريد زوال كل ذلك.. تريد أن تنعم بسكينة روحها والتي تعلم جيدا أنها لن تحظى بذلك وحتى لو فعلت سيكون بعد فقدانها للرغبة بأكملها...

بالمطبخ جلست على الطاولة تنظر لوالدتها وهي تحضر ما يجب حتى تتحسن قليلا، كانت ستساعدها لكنها رفضت ذلك

-لا داعي لذلك يا حبيبتي، أنت اجلسي هنا وأنا سأقوم بذلك

أطرفت في إعتراض:

-لكنني أريد مساعدتك يا أمي..

إبتسمت بحنان:

-لا تكوني عنيدة يا ياسمين، رؤيتك هكذا أمامي تكفي..ثم إلتفتت لما كانت تفعله.

أطرفت بنبرة حزينة وقد أخذت رشفة من الحليب الساخن:

-كيف حالك يا أمي ؟ كيف حالك فعلا ؟

أطلقت تنهيدة وكأنها تتحسر، قالت:

-وكيف سأكون.. واصلت بمرارة:

-مراد مات، وأنتِ بحالة أسوأ منا جميعا.. والدك يحاول إبقاء نفسه مشغولا بالعمل، لكن في نومه يهلوس بأشياء كثيرة، كلها عن مراد..

سالت العبرات على وجنتيها وهي تستمع لوالدتها في هدوء :

زهرة تحاول التخفيف عن الجميع لكنها لا تستطيع فعل ذلك لنفسها..

ثم بسرعة تجمعت الدموع بمقلتيها وإحمرّ وجهها، تقدمت ياسمين إليها وأحاطتها بذراعيها من الخلف بحنان. أطرفت والدتها بنبرة باكية بعدما ربتت على يديها:

-آاه يا بنيتي.. ثم واصلت في حزن:

-سيكون ذلك صعبا جدا لكننا سنتجاوزه إن شاء الله.

طبعت قبلة صغيرة على وجنة أمها وأطرفت:

-إن شاء الله يا غاليتي..

هي لا تعلم ما إن كانوا سيتجاوزون ذلك فعلا أم لا، لكنها تؤمن بأن كل شيء سيكون على ما يرام، داخلها صوت يهمس بذلك وسط كل تلك الكوابيس، لابد من أن تتشبث بهذا الصوت وإلا ستغرق ولن نستطيع النجاة أبدا.

" لقد أصبحتُ عِبئا على نفسي، حتى روحي وكأنها غدت ثقيلة وكأنها أمست لا تطيق عمرها، ترغب بسكينة تشبه الجمود، دون نبضٍ يسري في الجسد، هل فاض بي الكأس هذه المرة!! شيء يشبه الهدوء، هدوء جميل، ما باتت الدموع تعالج كل ذلك الآن، مجرد مُسَكِّن مؤقت، وكأنه حين يفيض قلبك تضغط روحك زرّ الإنعاش، فتبكي عيونك حتى يتلاشى ذلك الوجع، وكأنه بناء فوضوي داخلك، والدموع تعيد بناءه، البكاء راحة لروحك، لكن ماذا إن جفّ ذلك البحر في لحظة ما، ماذا إن عجزتَ عن البكاء، تتعالى نبضات قلبك، يكاد يخرج من صدرك، تأخذ أنفاسك بصعوبة وكأن الأكسجين ينفذ لديك، تتساءل داخلك، لماذا!! لما كل هذا يحدث معي! هل من المفترض أن يحدث كل ذلك!! لما علي الشعور بكل هاته الأحاسيس الموجعة!! روحي تشتاق لذلك النوم الهنيء، تشتاق تلك السكينة.. قلبي يفتقد سكينته، راحته، بات مهترئا الآن، متى سيتوقف قلبي عن النبض! متى سأنعم بذلك السبات الأبدي!!، قد يئست روحي يا الله، أرجوك لا تتركني لنفسي."

تمّر الدقائق إلى ساعات والساعات إلى أيام والأيام إلى شهور، على وشك أن تمّر السنين الآن..

في إحدى الأيام العابرة التي كثيرا ما باتت تشبه بعضها، كان التلفاز الرفيق في أغلب تلك الأيام ، غير أن الصوت كان منخفضا فحسب، الساعة تشير إلى الثانية زوالا، كانت تحمل كتابا تتابع صفحاته في صمت، أرادت كثيرا أن تنتقل من عالمها هذا إلى ذاك حين تزور مابين طيات الكتب وتتحول السطور إلى أحداث تقفز في رأسها، أغلقت الكتاب متأففة ووضعته على المكتب في حنق، تشعر بصداع، لم يكن عقلها يستوعب أيا من تلك الكلمات، بات رأسها يؤلمها كثيرا في الآونة الأخيرة لم ترد المكوث بغرفتها، تملّكها البؤس ثم هي تعرف أنها لن تنام ولو حاولت فخرجت من غرفتها، نزلت الدرج، ستنضم إلى والدتها وزهرة بالصالة، على الأرجح زهرة تقوم بحل واجباتها، أما والدتها فعلى الأغلب تُقلِّب بين قنوات التلفاز في سأم، ذلك مؤكد، بخطوات أبعد قليلا عن التلفاز الموجود بالصالة حيث تجلس أمها قبالته على الكنبة بينما زهرة تدس رأسها بإحدى كتبها، رأت نشرة الأخبار وقد كتب أسفل الشاشة غارة جوية بمدينة " حلب" نظرت الأم بعيون واسعة وقد رفعت من صوت التلفاز حتى يتسنى لها سماع ما يقوله مذيع الأخبار على الشاشة فإنتشلت زهرة من كتابها وركزت نظرها و إنتباهها على التلفاز، بينما إنتصبت عيني ياسمين على الشاشة واتسعت حدقتا عينيها لرؤية إسم مدينتها السابقة إقتربت على عجل ووقفت خلف الكنبة وهي تتابع ما ينقله ذلك المذيع بنبرة حادة وملامح ثابتة:

"تتوالى مجازر النظام بمدينة حلب وهذه المرّة من حي المرجة،"

تسمرت عينيها على الشاشة حين سمعت بإسم الحي، غمغمت:

-الحي الذي يقطن به أمجد..

"مساء البارحة بتاريخ الثامن عشر من شهر مارس على الساعة الخامسة مساء، شهد حي المرجة مجزرة راح ضحيتها أربعين مدنيا على الأقل.

أحسّت بالدوار فجأة فإستندت بيديها على الكنبة لتتوازن، لاحظت زهرة ترنحها فنهضت بسرعة و أتت إلى جانبها حتى تمسك بذراعها، همست بقلق بصوت يكاد يكون مسموعا:

-هل أنتِ بخير؟

هزت رأسها في صمت وعينيها تحملقان بالشاشة.

"وفقا للمركز الإعلامي السوري، أغارت طائرة على الحيّ مستهدفة تجمعا سكنيا بستة صواريخ أدت لتهدم حوالي خمسة عشر منزلا، بحيث أن شارعا بأكمله قد سُوِّي بالأرض، وهو ما تعززه الصور التالية"

بمجرد أن بدأت النشرة الإخبارية بعرض صور الحادثة، تسمرت أعين الجميع على منظر البنايات المحطمة وأناس يحاولون إنقاذ بقية المصابين الموجودين أسفلها، كان هناك بعض الرجال يحملون صبيا بعمر الزهور، دماء تغطي كل جسده الذي باتت ملابسه ممزقة إثر السقوط. في حين كانت الدموع تشق طريقها على الخد في صمت وهي تشاهد مثل هذه المناظر الموجعة، تألم القلب لهكذا منظر، كيف للحرب أن تكون قاسية هكذا على أناس لا حول لهم ولا قوة. واصل المذيع بقوله:

"البحث عن ناجين لم يتوقف حتى منتصف الليل وسط ضعف في الوسائل والإمكانيات بحيث يقوم الأهالي بهذه المهمة بطرق بدائية و بآليات بسيطة، هذا الطفل نجا من هذه المجزرة فيما تم نقل عشرات الجرحى والشهداء إلى المستشفى" ثم أضاف بنفس الجدية:

حيّ المرجة هو من الأحياء الفقيرة الذي ثار بداية الحراك الثوري في " حلب " حيث واجه أبنائه الشبيحة الذين عاثوا فيه فسادا، الحي الذي لا يحتك مع قوات النظام على خطوط الجبهة. حي المرجة وغيره من أحياء حلب سجلت هذا الشهر والذي سبقه مجازرًا تجاوزت ضحاياها ألف شهيدا"..

سكت لهنيهة بينما أخذ نظرة خاطفة على أوراقه الموضوعة على مكتبه ثم عاد بنظره ليواجه مشاهديه وواصل قائلا:

"صرّح بعض الشهود أنه في نحو الخامسة مساءً قامت طائرة بهجمتين متتاليتين، فأسقطت قنبلتين ثم أربعة قنابل بعد ذلك، وكلها بالمظلات " فيما بعد زوّد المذيع مشاهديه بأسماء ضحايا هذه المجزرة الأليمة كما أنه ذكر العائلات التي تحطمت بيوتها بالكامل وذكر أسماء الناجين والجرحى. كانت ياسمين تنتظر بفارغ الصبر سماع إسم عائلته من بين الناجين لكنه كان من بين أصحاب البيوت المحطمة، أخذت تدعي داخلها حتى يكون من بين الناجين لكنه لم يكن بينهم شعرت ببرودة تقتحم جسدها، كان لابد من أنها ستسمع إسمه من بين الضحايا حين وصل المذيع لإسم عائلته، تجمد الدم بعروقها وراح قلبها يخفق بسرعة

تبادلت و أختها نظرات حائرة يغالبها الذعر، وكأنما تبادرت فكرة واحدة إلى بالهما ثم صعدت ياسمين بسرعة إلى غرفتها فلحقت بها أختها على عجل، حملت هاتفها وراحت تفتش على إسمه بحسابها ويداها ترتجفان، أرادت أن تراسله، أرادت أن تتأكد إن كان سيجيب عن رسالتها أم لا، بالرغم من أنه لم يجب على أي من رسائلها في الفترة الأخيرة، لكن هذه المرة كانت متأكدة أنه سيجيب، أرادت أن ترفض تلك الفكرة الفظيعة التي ما لبثت تعصف برأسها، أرسلت مباشرة

"أمجد، هل أنت بخير ؟"

لم تتمالك أعصابها فأرسلت مجددا

"أرجوك أجبني، هل الكل بخير هناك، لقد سمعتُ أن غارة جوية حدثت مساء البارحة، أخبرني على الأقل إن كنتَ بخير".

قالت زهرة وهي تحملق بها متسائلة:

-هل هناك أي خبر؟

ردّت بصوت مرتجف و كل أطرافها ترتعش:

-لا يجيب، هو حتى ليس موجودا... سكتت لهنيهة تتحقق من آخر مرة كان حاضرا بها ثم واصلت:

-منذ الأزل..

قالت زهرة مخففة عنها:

-هوني عليك..

حدقت بها وأطرفت في توتر وهي تروح ذهابا و إيابا:

-سأتصل به، راحت تردد:

-أجل، أجل، يجب علي أن أتصل به .

ثم بحثت عن إسمه بلائحة هاتفها و بمجرد أن ضغطت على زرّ الإتصال أتاها صوت المجيب الآلي:

-إن جهاز مراسلكم مغلق أو خارج نطاق التغطية، يرجى إعادة المحاولة لاحقا.

لم تكتفي بذلك فعادت لتتصل مجددا لكن لم تختلف النتيجة عن سابقتها صوت المجيب الآلي فحسب، أحست بخيبة كبيرة، وخارت قواها، جلست على سريرها و ملامح الحزن لا تفارق وجهها بعد أن رمت بالهاتف بعيدا . لاحظت زهرة

مدى إستيائها من الوضع، فتقدمت نحوها وجلست إلى جانبها، نظرت ياسمين إليها وقالت بنبرة حزينة:

-هل يعقل أنه مات؟

لم تجد شيئا لتقوله، كانت تنظر إليها بخيبة فحسب، واصلت:

-لقد كان إسم عائلته من بين أولئك الضحايا.

تجمّع الدمع بعينيها، غالبها البكاء لكنها لم ترغب بذلك، أرادت التشبث بذلك الأمل الضعيف، عانقتها زهرة وهي تربت بيديها على كتفها بحنان، عجزت عن مواساتها هذه المرة، لم تعلم ما الذي عليها قوله، هي على وشك أن يتضاعف جرحها، لازالت تتعافى من الأول، نجت بصعوبة منه، فكيف ستتغلب على الثاني. إبتعدت عنها وهمت بمغادرة الغرفة، أطرفت زهرة متسائلة:

-إلى أين؟

أجابت:

-أريد أن أتنزه قليلا..

قامت من مكانها على الفور:

-إذن سآتي معك..

قالت في اِمتعاض:

-لا، أرجوك، أريد أن أكون بمفردي.

إعترضت:

-لا، لن أتركك لوحدِك .

فقالت بنظرات متوسلة:

-أحتاج بعض الوقت بمفردي.

قالت:

-مستحيل، سأذهب معك.

قالت بصوت تخنقه الدموع:

-زهرة أرجوك، أنا حقا أختنق، داخلي يحترق، أحتاج للبقاء مع نفسي، سأجن إن بقيت هكذا، يجب أن أتنفس، نظرت تترجاها بعينيها، ثم واصلت:

-سأكون بخير، أعدك.

لم تقتنع بذلك لكنها ستلبي لها رغبتها، قالت:

-حسنا، لن آتي معك، لكن خذي هاتفك معك حتى لا نقلق عليك.

ردت :

-حسنا سآخذه معي.

كان داخلها خائفا عليها، لم ترد تركها بمفردها، لكن لربما هي محقة، ربما سيفيدها البقاء بعيدة عن الجميع. فأحيانا تزهر الروح حين تحظى بلحظات مع صاحبها .

لم تدري ما الذي عليها فعله، شعرت بضيق داخلها، وكأن البيت لن يسعها لتتنفس فأرادت أن تخرج، كان الطقس مغيما، ورياح خفيفة تداعب المارين بطريقها، مناسب تماما لنفسيتها، أخذت الأفكار تعصف برأسها وكل الأصوات داخلها تهتف بكلمة الموت، هل توفي فعلا؟، هل غادر هو أيضا وتركها؟هل خسرته هو أيضا؟ أخذت العبرات تسيل على خدها في حرقة، تريد أن تصرخ، وكأن شيئا يضغط بشدة وسط حلقها، نبضات قلبها تتسارع، جميع أطرافها ترتعش، قفزت إلى ذاكرتها كل الأوقات التي عاشتها معه، أحاديثهما، لقاءاتهما، كيف أنها كانت تبتسم لمجرد حديثها معه، غمغمت بصوت متحشرج باكي:

-أرجوك لا تمت..

إنتبهت إلى خطواتها فوجدت أنها تكاد تقترب من تلك الحديقة، التي جلست بها آخر مرة، عصفت الذكريات بها مجددا، وكأن كل شيء من حولها أصبح يذكرها به، تريد أن تؤمن بأنه حي، لكن ذلك الأمل ضعيف جدا، فكل الحقائق تشير إلى عكس ذلك، جربت الإتصال به مرة أخرى لكن هاتفه لازال مغلقا، خبأت هاتفها في إستياء، على وشك أن تمطر عيونها دموعا، لم تحاول ردعها، دعتها تنساب فحسب، رسمت ذاكرتها ملامحه التي لم تكن ولو لمرة قد غابت عن بالها، كل لحظة، كل لقاء، كل إبتسامة جمعتهما رغم مرارة الأوضاع، كان حزنها يختفي بمجرد أن تتحدث إليه، والآن لن يختفي أبدا، سيزداد فحسب.. صدع ضجيج حركة السير رأسها وأرادت أن تحمي أذنيها بيديها حتى لا تسمعه، جعلها اِجتياز الشارع تنضح عرقا باردا، وبدت كل سيارة أنها عازمة على دهسها، وأحدثت موجات من الذعر إرتعاشا في ساقيها حتى إنهما كادتا ترفضان التجاوب معها بينما هي تقف مترددة فوق الرصيف، تطلبت منها كل خطوة إرادة عاتية. أحست بكل شيء يدور من حولها، عجزت عن توقع حركة السيارات في الشارع، أرادت أن

تجتازه حتى تصل الى الحديقة، إلى مقعدها الآمن، لكنها مشوشة، بدا كل صوت مثير للإزعاج، على وشك أن تطأ قدمها على حافة الطريق، كانت هناك سيارة قادمة بإتجاهها، حملقت بها ببرودة، أحست بتثاقل أطراف جسمها، إنها تذبل مجددا، لم تقوى على الحراك، إقتربت السيارة منها وعلا ضجيج السيارات مما زاد من تشويشها، راحت تردد داخلها:

-لن تسقطي، لن يُغْمى عليك، ستكونين بخير..

فجأة أحست بيد تمسكها من ذراعها وتنتشلها بسرعة من الطريق لترجعها إلى الرصيف مجددا، تماسكت قليلا، بعد أن إلتفتت إلى جانبها، أطرف في قلق:

-هل أنتِ بخير!..

حدقت به لثوان، آخر مرة إلتقت به كانت بمعرضها، قبل حدوث كل شيء ..

أطرف مجددا:

-تعالي، لنجلس قليلا ..

ثم اِجتازا الشارع سويا إلى الحديقة وهو يمسك بذراعها خشية من أن تسقط أو ما شابه. أجلسها على أحد المقاعد الموجودة بالحديقة، وغادر لبضع دقائق ثم عاد، لم تنطق ببنس شفه، وكأنها مخدرة، تكافح بصعوبة حتى تعود لوعيها، جلس بجانبها، تنظر إلى ما جلبه، إنها قارورة ماء رفقة بعض ألواح الشكولاته، وبعض البسكويت، إستطرد مرة أخرى وهو يفتح قارورة المياه تلك:

-لنبلل وجهك بالماء الآن..

مدّت يديها إليه بينما صبّ بعض الماء فيهما حتى ترش به وجهها، كانت في كل مرة تفعل ذلك تشعر وكأنها تستيقظ من غفوتها، كل قطرة ماء كانت تعيدها إلى حالتها الطبيعية، بدت نبضات قلبها تتناقص قليلا، بدأ جسمها يعود لطبيعته شيئا فشيئا، حتى أن أطرافها توقفت عن الإرتعاش، و اِختفى ذلك التشويش من ذهنها. قال بعدما إنتهى من صب الماء لها:

-هاا..! كيف تشعرين الآن ؟

أجابت متعبة:

-أشعر أنني أفضل الآن، شكرا لك.

قال وقد تنفس الراحة:

-حمدا لله..

أضافت:

-لولا أنك لم تمسكني حينها، لا أعرف ما الذي كان سيحصل لي، شكرا لك..

قال:

-لا عليك الآن، هيا خذي قليلا من الشكولاته، سيفيدك الشيء الْمُسَكّر.

أخذت منه ذلك وفعلت ما طلب منها في صمت، أخذ صمتهما ذاك بعض الوقت قبل أن يكسره ويقول:

-أنا آسف لما حصل لمراد، رحمه الله و أسكنه فسيح جنانه.

قالت وقد تجمعت الدموع بعينيها مجددا:

-شكرا لك، إن شاء الله..

قال متسائلا:

-حين أتينا للجنازة لم تكوني موجودة، كنت بالمشفى، أخبرنا والدك بذلك .

نظرت إليه ليكمل حديثه:

-وحين جئنا للمستشفى لم تكوني قد أفَقْتِ بعد من غيبوبتك.. سكت لهنيهة ثم واصل:

-لابدّ من أنه صعب، التعايش مع كل ذلك.

هزت رأسها في حزن، ثم أطرفت متنهدة:

-صعبٌ جدا، لا يمكنك أن تتخيل مدى صعوبته ..

أطرف:

-كان الله في عونكم..

أضاف متسائلا:

-لما خرجتِ ؟ أقصد أنك لا تبدين بخير ؟

عصف إسمه بذاكرتها مرة أخرى و هتف ذلك الصوت مجددا بتلك الكلمة تذكرت ما رأته قبل قليل، تجاهلت كل ذلك وأجابت بهدوء:

-إختنقت وأنا بالبيت، أردت أن أستنشق بعض الهواء النقي.. واصلت بنبرة مستاءة:

-أنا متعبة جدا، داخلي مشوش، يحترق، لا أستطيع النوم، أبي، أمي، وزهرة حالهم لا يختلف عن حالي..

نظر بحزن إليها، واصلت:

-تنتابني رغبة الجلوس وحيدة، هكذا، دون أي شيء، فقط أتأمل بكل شيء غير داخلي، تعبت روحي، لا أريد أن أنظر إلى داخلي أبدا، فذلك موجع، موجع جدا..

أطرف متنهدا بنبرة حزينة:

-أدرك جيدا أن ذلك صعب عليك، وعلى عائلتك، لكن الله سيجعلكم تتجاوزون كل ذلك، نظر بعينيها وكأنه يخبرها أن كل شيء سيكون على ما يرام واصل:

-إياك وتسليم روحك لتلك الفوضى بداخلك، لا تدعها تقتلك ..

إبتسمت له في مرارة:

-إن شاء الله..

هو لا يدري ما سبب قلقه عليها، قضى أيامه يفكر بها منذ الحادثة، يدرك جيدا أنها حكاية مشاعر لا أكثر، لكن ما الذي سيحدث إن تطورت هذه الأحاسيس وعلى ما يبدو أنها تتغير فعلا إلى شيء أكبر من ذلك..

ساد سكون مفاجيء حديثهما، يجلسان هناك ويراقبان من حولهما، كانت تتنفس هواءا منعشا في كل لفظة شهيق وزفير وكأنها تغير الذي بداخلها وتنعش روحها. كان يسترق النظرات إليها من حين لآخر، قرأ ذلك الحزن بعينيها وملامحها الذابلة، رغب كثيرا بمواساتها، بتواجده معها حينها لكنه الآن بجانبها، لا يقول شيئا، فقط يدع للصمت حقه من هذا اللقاء.

"إذا أردت أن تشفى من جراحك فتوقف عن لمسها".

محمود درويش

تمدد على السرير و قد أغلق عينيه في حزن لاذع، تنهدت نفسه و كأنه يمسك بكل أوجاع العالم داخله، لا يدري بعد، أن كان عليه أن يتوقف عن البحث عنها أو ربما يجدر به التوقف عن التفكير بها، لكن كيف يقنع نفسه بذلك، كيف يجعل قلبه ثم عقله يتوقفان عن ذلك، تجلبها الرياح في كل مرة، إنها موجودة بروحه، تسكن هناك، يسمح لنفسه بالتعمق بها كل يوم، ثم يأتي الليل ويا ليته يستطيع طردها بعيدا عن يقظته قبل أحلامه، لكنه يفشل بكل مرة، هناك أمل، انه يشعر بذلك، لكن كيف ومتى سيحدث ذلك ؟ فذلك ما لا يعلمه، لا تعينه الأوراق على إيجاد حل، و لا تكفي الكلمات لإيصاله إليها، ثم أن الحروف مجرد وسيلة تترجم أحاسيسا يكتمها قلبه، في حين أنه يخسر نفسه ألف مرة وهو عاجز عن فعل شيء يفلح جيدا في كتابة ملحمة قلبه، اجل فالكلمات لا تخذله، ولن تفعل، إنها كل ألم عاشه، كل شعور خالج قلبه يوما، إنها تلك الدموع التي لا يستطيع ذرفها، الكلمات تكون تلك الدموع، تلك الأحاسيس، تلك الأفكار، إنها تجسده، تجسد روحه و قلبه ثم عقله و أحاسيسه، إنها تكتبه، يسمح لها بالانسياب فحسب، كوب قهوة و سيجارة واحدة يكفيانه لكتابة ملحمة حب كاملة، حين ينفث بدخان سيجارته، كأنه يحاول صياغة أسطر مما يحكيه داخله ثم ينتهي الأمر بأخذ رشفة أخيرة من قهوته حين تتوقف الأفكار عن الانسياب كلها دفعة واحدة. يقول في كتابه :

"دعني أروي ورقا طال بياضه لمدة من الزمن، في حين أراه كل يوم موجود أعلى ذلك الرف، كل يوم تكسوه حلة جديدة من الغبار، حتى يكاد يتعفن، هكذا هو قلبي في بعدك عنه أيتها الياسمينة، حين أناديك، هل ستسمعين صوتي يا ترى ؟ هل ستعرفينه يا ترى ؟ من يدري؟ ربما سوف تجلبك رياح القدر لي يوما، هذا بعد أن عجزت روحي عن إيجادك، دع عنك يا قلبي عزاءك، فانك والله لن تلقى من ذلك شيئا، لن يجلبها البؤس لك، و إنما الله . "

أصبح يدرك جيدا أن الكتابة وحدها من تلملم فُتات معاناة قلبه، ربما لأنه يستطرد كثيرا في شرح قلبه، بالبوح بمشاعر تأبى الرحيل، لا ينفع الندم في شيء فحتى لو باح بمكنونات قلبه إليها ذاك الزمن، ما كان القدر سيغير شيئا مما يعيشه الآن، سيبقى الفراق القدر الأول و الأخير لهما، ربما و ألف ربما تجول بخاطره كل يوم لكن حتى و إن طالت المعادلة سيكون حلها هو نفسه الذي كان مرسوما منذ البداية .يقول في كتابه:

"حتى إن فشلت كل يوم، سأحاول كل غد، سأحاول إلى أن أستطيع الوصول، إلى أن أقدر على النجاح . الخسارة مرة، مرارة حارقة تشوبها نار الألم، ثم ذلك الانكسار الذي يعلو أعماق القلوب، لكنه يرصد الروح جيدا، انه يقتلها، تلك الخسارة تقتل روحك ألما،و،إرهاقا، لا تكاد تشعر بنبضات قلبك حتى. هل الحقيقة التي نأبى تقبلها هي الواقع الوحيد الذي نحن بصدد الحياة به ؟ أجل نحن نخاف كل حقيقة تكون ألما لأرواحنا، نتجاهل ونتجاهل، نرمي يذلك للقاع بأسفل الأعماق، ظنا أن التجاهل سيخلق روحا مرتاحة وقلبا أكثر راحة، خطأ انه يزيد الطين بلة فحسب، انه يضيف ملحا على جراحنا فحسب، آاه أيها القلب المسكين، أيتها الروح المثقلة بكل حزن و ألم، متى نتعلم أن المواجهة تطفأ نيران الحرب داخلنا ؟ متى ندري أن النصر لا يأتي دون محاربة، لا يأتي بتجاهل كثيف وإنما بحرب قوية، قد تكون حربا طويلة المدى، قد تكون مجزرة بشعة حتى، لكن في الأخير ستنتهي، ستنتهي بالانتصار، قد يكون نصرا متأخرا، لكنه يظل نجاحا انتصارا لأرواحنا، لأنفسنا، لقلوب باتت تمقت أحاسيس النكران، أحاسيسا لا يمكن شرحها أو حتى وصفها، سيأتي ذلك اليوم، صدقني سيأتي، ولو بعد دهر كامل، سيأتي، وستكون بخير، هادئا، مثل بحر ساكنة أمواجه،وحين تسطع الشمس، يصدح لونه الأزرق جمالا، تلك روحك التي تصدح جمالا، سكينة وهدوءا، حينها فقط ستتذوق لذة الانتصار.."

كان لا بد للحياة أن تستمر، لابد له أن يلملم شتات نفسه، لابد له أن يمضي قدما، فأحيانا حتى لو أننا لا نريد ذلك إلا أنه يتوجب علينا أن نمضي قدما فالحياة لا تتوقف أبدا عند أي أحد، هكذا هو قانون الحياة، والقانون على الجميع، دون استثناء مع الأسف، مضى قدما في عمله، نال أخيرا ترقيته، لم يضع

جهده سُدًى، هنأه كل من بالمكتب، كل من يعمل معه، ومديره بالعمل بشكل خاص، حين قال له بعد أن ربت على كتفيه:

- أنتظر نجاحات أخرى يا سيد أدهم.

لم يكن قد تعود على اسمه الجديد في البداية لكنه اعتاد على ذلك مع الوقت، وغياب حبيبة قلبه أيضا لم يتعود عليه لكنه سيعتاد رويدا رويدا، وكأنه أصبح يكابر حتى لا يسلم نفسه لذكريات باتت من الماضي الآن، فكلما تذكر كلما أصبح الأمر أكثر سوءا لقلبه، ما باليد حيلة، لم يستطع النجاح بالعثور عليها ربما ترقيته تلك بدت له انطلاقة جديدة بحياته بعيدا عن الماضي . ها هو الآن جالس بمكتبه، يقوم بما عليه من عمل، و كأنه يحاول أن يملأ وقته بالعمل فقط حتى تَحل عنه تلك الذكريات . ربما قد حان الوقت فعلا حتى يمضي قدما بحياته بعيدا عن كل ماضيه.

***

"عزيزي يا صاحب العيون الخضراء، يا إلهي لست أدري حتى كيف أبدأ رسالتي هاته، لقد إعتادت أناملي على الكتابة إليك، بل أصبحت مدمنة على ذلك، يا ترى ماذا لو كنا نعيش بزمن سابق، حين كانت الرسائل تحظى بقيمتها فعلا، حين كانت ترش بعطر خاص يشبه الحب، حين كان البعيد ينتظر بشوق ولهفة وصول رسالة من محبوبه، حين كانت الكلمات تبدو وكأنها ذو قيمة أكثر، وكأن جل المشاعر والأحاسيس تجتمع بين السطور المكتوبة بخط اليد ذاك، وكأنك تسمع صوت ذلك الشخص الذي كتب إليك بينما تقرأ تلك الرسالة كلمة بكلمة، واثقة من أنه كان شعورا مميزا للغاية، ذو نكهة خاصة لاسيّما بين الأحباء، لكن الآن

كل شيء متاح، رسائلي تصلك بسرعة البرق لكنك لن تجيب على أي واحدة منها، أتدري ما الذي أفعله الآن بينما أُجَمّع كلماتي هاته، إنني أستمع إلى أغنية فيروزية، " بعدك على بالي"

"طلّ وسألني إذا نيسان دقّ الباب خبّيت وجّي وطار البيت فيّي وغاب
حبّيت إفتحلو وعالحب إشرحلو طلّيت ما لقيت غير الورد عند الباب
بعدك على بالي يا قمر الحلوين
يا سهر بتشرين يا دهب الغالي
بعدك على بالي يا حلو يا مغرور

يا حبق ومنتور على سطح العالي"

فعلا، تلامس ما بقلبي من كلمات، إن أردت يوما أن تفهم طبيعة مشاعري نحوك ما عليك سوى أن تستمع لفيروز .أتدري! هذه الرسائل منحتني راحة في الحديث بشكل كبير، أحيانا يتراءى لي أنها مبالغة أو ربما سذاجة،لست أفهم مشاعري ولا أفهم هذه الفوضى التي بداخلي، ربما كنتَ ستفهمها لو كنتَ هنا، لو كنتَ تقرأ ما أكتبه لك لربما كنتَ فهمتَ ما أقصده، ربما كنتَ منحتَ الموضوع احتمالات عدة. في الأخير كنا سنبتسم لكل ذلك.."

***

"نوبات الماضي تلك تقتحم ذاكرتي، مشاعري تؤرقني، كلمات باتت توخز قلبي، لست أعلم ما إن كان علي الإحساس بكل ذلك، أحيانا تغمرني تلك الأحاسيس هكذا فجأة، لقد صارت كابوسا لي، أخاف كثيرا أن أشعر بذلك لمدى حياتي، وكأنها تؤنبني إن ابتسمت، وكأنها غيظ كبير لسعادتي، كلما أحاول التخلص منها كلما أصبح ذلك أصعب بكل مرة."

***

"يقتادني صوت المطر إلى رسمك، إلى اللجوء لألواني حين يحن القلب إليك، ليست عيناك قبالتي لتكون ملجأ لي وإنما أبقيها بذاكرتي لا تكاد تغادرها أبدا، إنني أعد الليالي والأمسيات إلى حين عودتك، يبدو كل شيء كئيب في غيابك، وكأن له طعم مر، ربما، أجل إنه مر، غيابك هذا مر جدا يصيب قلبي بمراراة الأيام، فقط لأنك غير موجود".

بعد سنة..

"بالطبع الحياة تستمر بعد كل شيء فلاشيء سيعيد البداية مرة أخرى ولا سوف يسقينا حلاوتها من جديد.."

الكلُّ يبتسم، الكلُّ سَعِيد، الجميعُ يُوجِّه المدائح، الزغاريد تَعم البيت،وزهور الأقحوان تزين الطاولات، نور جميل يسطع من داخل البيت،اختفت تلك الوجوه الحزينة و رُسم بدلها ملامح سعيدة و مبتسمة، يكاد يكون اليوم الموعود الذي لطالما إنتظرته عائلتي، الكل منهمك بتحضيرات الحفل، بينما أنا قد طُلب مني الجلوس في غرفتي إلى حين موعد حفل خطوبتي، زيّنْتُ نفسي بفستان أزرق كلون السماء، وحلي بلون فضّي، تركت شعري منسدلا من على كتفي،أردت أن أكون جميلة بشكل بسيط، كان شعورا غريبا بعض الشيء وجميلا بنفس الوقت، ذلك الصباح بنكهة العيد،لم أنم الليل بطوله وأنا أفكر في ما ستكون عليه حياتي القادمة، سأصبح بذمة رجل آخر غير أبي وربما سأكون والدة أيضا، تبدو الحكاية جميلة لكن مخيفة بعض الشيء ؛ أن تستيقظ يوما ما على حياة غير التي اعتدت العيش بها، أن تجد نفسك بعالم آخر يختلف عن العالم الذي كنت به،ربما الأمر ليس بتلك الغرابة لكنه كذلك بالنسبة لي، مجرد مجهول، وأنا أخشى المجهول أخشاه بشدة،أخاف من التغيير، ليس لأنني لا أحبه لكنه فقط يخيفني بشكل غريب،يجعل مني شخصا متوترا، وتجتاحني السلبيات بشكل كبير حتى لو أنها منعدمة من الوجود، كنت أخلقها فقط تحسبا لأي شيء،رغم أن الجانب المشرق دوما ما يكون موجودا لكنني أصاب بفوبيا المجهول،هكذا أنا، إنسانة تفكر بالشيء ألف مرة قبل أن تخطو الخطوة الأولى، جعلت من ذلك قاعدة في حياتي،وفرت علي عناء الكثير، لكن هذه المرة لم أفكر بأمر زواجي كثيرا،صحيح أنه أخذ قسطا من نومي إلا أنني حاولت جاهدة تجاهل الأفكار السلبية، حاولت أن أجعل من الإيجابية والتفاؤل هذه المرة أسياد عقلي،لربما يكون لي حق في حياة دافئة وسعيدة...

رعشةٌ إنتابت كامِل جسدي، توتّرٌ شديدٌ كان رفيقي هذا اليوم،تأملت نفسي بالمرآة؛

-عروسة إذن، هذا ما أنتِ عليه اليوم،بعدها بفترة ستُزَفِّينَ للرجل الذي سيكون زوجا لك وأبا لأولادك، أنتِ على وشك أن تخطي أهم خطوة في حياتك يا ياسمين، فهل أنتِ جاهزة !

سأعمل على ذلك، سأكون جاهزة،سأكون بخير، سأكون سعيدة، سنعيش أياما جميلة، سأكون على يقين من ذلك.

-أيتها العروس..

إنتشلني صوت زهرة من داخلي، بعد أن دلفت الغرفة، أجبت بإبتسامة بعد أن إلتفتُ اليها :

-كيف أبدو!

-تبدين كالأميرات يا حلوتي ..تبدين جميلة جدا..

-أحقا!.. لم أرد أن أبالغ بشكلي..

إقتربت مني و أمسكت بكلتا يداي:

-أجل يا حبيبتي، تبدين حقا رائعة..

-أنا متوترة..

قالت ضاحكة:

-ولما ذلك! سيكون كل شيء جميلا، ستكونين بخير..

-كان ليكون كل شيء على ما يرام لو كان مراد معنا..

همست في حزن؛ يا ليت، لكان مسرورا لأجلك..

أضفتُ في عبث :

-لكان بالأسفل الآن يتشاجر مع أبي بشأن شيء ما كالعادة..

تجمعت الدموع بعيوننا للحديث عنه،

أضافت بنبرة حزينة:

-لربما كان سيكون عريسا أيضا..

لم أستطع التحمل، أجهشتُ بالبكاء و إحتضنتُها

همست لي :

-اششششش..! لا تبكي الآن، بل إدعي له، لو كان الآن هنا و رأى دموعك لقال عنك... قاطعتها وأنا أحاول كتم دموعي:

-الطفلة الباكية، أعلم، ثم ضحكت وقالت:

-بالضبط، يا طفلتي.. صمتت لوهلة ثم قالت ضاحكة :

-أنتِ أكبر مني، أنا من يجب أن أكون طفلتك،لا أنتِ..إبتعدت عنها وأنا أبتسم:

-أحب أن أكون ذلك..

-طبعا،ستبقين دوما كذلك يا عزيزتي، حسنا سأذهب الآن لربما تحتاج أمي بعض المساعدة في شيء، أنتِ اِبقي،ثم مسحت بكفّها على خدي وقالت بصوتها الجميل :

-سيكون كل شيء على ما يرام، لا تقلقي..ثم غادرت الغرفة..

في الواقع،كان المشهد ناقصا، ينقصه أخي، تخيلته مليون مرة بجانبي رفق ابتسامته الحانية تلك،كان أخا حنونا بقدر عصبيته تلك، لولا اِندفاعه الشديد ذاك لكان بيننا اليوم،لاِكتمَل المنظر...

تقدّمْتُ نحو الخزانة،أخرجت رسالة قد دسستها في عجل بين ملابسي،كنت قد كتبتها البارحة حين فاض بي الحنين لمراد، أردت قراءتها مرة أخرى، أردت الإحساس بوجوده،أردت أن أخالج ذكراه لمرة بعد..

"أخي حبيبي، غدا سيكون حفل خطوبتي،غريب أليس كذلك ! كان من المفترض أن يكون حفلك أنت بدلا مني،أو ربما كان يفترض بك أن تكون غدا إلى جانبي ببذلتك السوداء، تماما كتلك التي تخرّجْتَ بها! أتذكر ! كنت متحمسا جدا، كنت متشوقا لما بعد ذلك، آاه يا أخي، لو فقط اِستمعت إلينا، لو فقط تغاضيت عن كل شيء قليلا، لكان الحال اليوم مختلف... ظننا أنك عَزُفت عن الأمر برمَّتِه أوهمتنا بذلك أولا ثم غادرت، ثم بعدها عدت إلينا بعد أن إعترفت بأنك كنت مخطئا، وحين ظننا أن الأوضاع قد عادت لمجاريها، أخذوك منا،أخذوا روحك الجميلة، كل ما تركوه كان مجرّد ألم فاجع و ذكرى سوداء،أبي قد تغير كثيرا منذ تلك الليلة، أصبح بقلب بارد، حين رحلت أخذت روحه معك... لو تعلم كم بكى رحيلك، كم تألمت أمي، أنا، زهرة ...أنت تعرف أنني أخاف كل شيء، ما خفته كان فقدانك حينها... عجزت عن تجاوز الأمر كأي شخص آخر، ولم أكن أهرب للنوم،لأنه كان مجرد كوابيس لي، كانت تلك الحادثة تُعاد بذاكرتي في كل مرة أجرأ على النوم، خِفتُ، خِفتُ النوم كثيرا، كان الأمر مؤلما و مخيفا،كنتُ أبكي كل ليلة لازلتُ تلك الطفلة الباكية، دائما ما كنت تدعوني هكذا، كنت تقول أيضا بأنني حساسة جدا و بأنه ينبغي علي أن أكون قوية مهما تطلب الأمر، آسفة، لأنني لم

أستطع أن أكون هكذا، رحيلك زاد الطين بِلّة، لازلتُ أتأثر بكل شيء، لم أتغير ولا أشك في أنني سأفعل، أتعلم، لا تزال غرفتك مغلقة لحدّ الآن، لم يتجرأ أحد على دخولها، الهاجس الأكبر هو ذكراك، والأسوأ حقيقة رحيلك،لا زلت عاجزة عن تقبّل الأمر، لازال البكاء يغلبني في كل مرة يُذكر إسمك، لا يزال جرح رحيلك طازجا، لم يأبى الشفاء بعد، لكننا نحاول أو بالأحرى نتجاهل، نتغاضى ونتناسى فهذا أفضل دواء لذلك.

***

أخي الحبيب، ستبقى حيا بقلوبنا إلى لأبد.. "

أصبحت رسميا خطيبة السيد كريم، كنا نجلس بحديقة البيت أينما أقيم الحفل، نظر إلي بعيون مسرورة، وأخذ يتأملني ثم أطرف:

-أتعلمين! اليوم هو أسعد أيام حياتي..

قلت ضاحكة وأنا أنظر إليه:

-كأن لم يكن لك يوم سعيد قبلا، أقصد قبل هذا اليوم..

إبتسم وقال:

-بلى، لدرجة أنها أصبحت عادية بالنسبة لي، لكن اليوم هو غير كل تلك الأيام أكيد..

نظرت بعمق بعينيه وقلت:

-و كيف ذلك ؟

قال باسما والبسمة لا تفارق ملامحه:

-قبل كل شيء، تبدين جميلة جدا .

إبتسمتُ في خجل، واصل قائلا:

-منذ ثاني لقاء لنا، بالحديقة، هل تذكرين، وأنت لم تفارقي مخيلتي، حرصت على رؤيتك مجددا وفعلت، أحسست وكأنك الوحيدة التي أستطيع أن أمضي كل أيامي معها، الوقت الذي قضيته معك بعدها زاد من كلفة أحاسيسي، في بداية الأمر ظننت أنها مجرد أحاسيس ستختفي لأنك كنت الشيء الجديد بحياتي كلها لكنني وجدت نفسي معك، تبتهج روحي لرؤيتك، لعينيك، لإبتسامتك، صمت لهنيهة بينما ينظر داخل عيني ثم قال باسما:

-لا أظنني جيد بالتعبير عن مشاعري، وعن قلبي..

إبتسمت لكلماته ثم قلت:

-أظنك تبلي حسنا ..

قال باسما:

-ربما لأنني شردت بعينيك، فسرقتا كل الكلمات من جعبتي

إحمرّت وجنتاي خجلا وأشحت بنظري إلى الأسفل، فضحك من ذلك وقال:

-أعدك أننا سنكون سعداء، كوني على ثقة من ذلك.

قلت باسمة وقد نظرت إليه:

-إن شاء الله..

للحظة إنتابها إحساس بخيبة كبيرة وكأن الذي أمامها أرادته أن يكون أحدا آخر، لم تكن تعلم ما إن كان الذي تبدو عليه الآن حقيقيا أم مزيفا، تلك الإبتسامات، هل عيونها كانت فعلا تبرق سرورا، هل هي فعلا سعيدة بكل هذا ! خطر ببالها أمجد، تذكرت لقاءاتهما القليلة، حديثهما الجميل، يجعل قلبها يبتسم هل كانت الأمور لتكون مختلفة لو كان موجودا الآن ! عصفت الذكريات بعقلها فأخذت منها لحظاتها الحالية وعادت بها إلى حين كان قلبها أسعد من الآن، هذه الذكريات تغمرها كل يوم، كل ليلة، وكانت تستسلم لذلك في كل مرة، لكنها تدرك الآن أنه يجب عليها أن تدفع بها بعيدا، يجب أن لا تخضع لها وإلا سيكون ذلك موجعا لها..

إختفى كل شيء بمجرد أن إنتشلها صوته من غفوتها:

-فيما أنتِ شاردة هكذا ؟

بدت مشوشة وهي تنظر إليه ثم أطرفت باسمة:

-لاشيء..

تساءل:

-هل أنت متعبة ؟

قالت:

-أظنني أشعر بالنعاس.

قال ضاحكا:

-أيتها الناعسة..

إبتسمت وكأنها تدعي ذلك، هي تعلم جيدا أن ما أصابها الآن سيصيبها مرات عدة لاحقا، لكنها لا تعلم كيف ستتخلص من ذلك، وحتما يجب أن تغادر تلك الذكريات وهو من عقلها، لكن كيف تستطيع طرد كل ذلك من روحها، إنه هو الذي جعل لحياتها معنى آخر، ستتذكره في كل خطوة لها، وفي كل مرة تحاول محوه منها ستتألم، فأصعب ما في النسيان هو محاولة ذلك، لا ننسى بمجرد أننا حاولنا، سيتضاعف وجعنا فحسب، إن كانت ستتعايش مع ذلك ستضطر لمواجهة قلبها لا تجاهله ولا الإختباء منه، لن ترمي بذكرياتها في مكان تجهله بل ستواجهها حتى تمل من ذلك وتمسي مجرد ذكرى عابرة بالنسبة لها ..

لكن ماذا إن لم تصبح كذلك؟ ماذا لو ظلت تلك الذكريات حية بقلبها تأبى الزوال !

***

"عزيزي أمجد،ماذا لو كنت موجودا اليوم بدلا منه، هل كنت لأكون كما أنا الآن، هل كان قلبي ليبتسم من أعماقه أم أنه سيدعي ذلك فحسب، هل علي أن أتمادى في أفكاري أم أنه يجدر بي أن أخرس قلبي كما في كل مرة! لكن أتدري! في بعض الأحيان، في لحظة ما من وقت معين ينبغي علي أن أطلق العنان لقلبي لمشاعري أن تنساب، حتى أتخلص منك من داخلي، فوجودك بنفسي أصبح حملا ثقيلا على روحي لم أعد أقدر أن أتحمله لما يصعب علي نسيانك لست أفهم لما يصعب على قلبي أن يزهر من جديد هل إنتهى الحب مع رحيلك ما بال الكلمات كلها تجمعت لأجلك، إنها تملأ داخلي، يجب أن امنح تلك الذكريات حق الهجرة من روحي لكنني لا أملك القوة لذلك، كأنني أخاف فقدانك مرة أخرى، أخاف أن تغادر قلبي، فتلك الذكريات تواسيه، أتدري! الحب فعلا أناني، كينونة الحب الجميلة تلك تأتي غالبا بعواقبها، فدوما ما يوجد شخص مكسور بالحكاية كلها ؛"الطرف الآخر "، فلقد فقدتك و يا لعمق جرحي، والآن أخشى أن يفقدني كريم فيُكسر هو الآخر. لا يوجد كمال بالحب، دائما هناك قلب يُكسر، مشاعر تُجرح،نكران و فقدان، أليس من المفترض أن يكون الحب ربيعا! أن يكون ذو نكهة حلوة، ذو ألوان. هو كذلك فعلا في بدايته، أما عن نهايته فغالبا ما تكون باهتة ومؤلمة، هكذا هو الحب،

يغدر بك في عز ثقتك به."

"أحيانا، نجد أن الحب ليس للجميع و القدر لا يقف دوما في صفك، والصدفة أحيانا ما تؤلمك، و أما بالنسبة لمن حولك فهم يعاكسونك دوما . فلا تصدق من أخبرك أن الحياة حلوة فهي في بعض الأحيان تكون مُرَّة، أحيانا كثيرة. لكن لا تقلق، لأنك سوف تتأقلم مع كل ذلك، هذا أقصى ما يمكنك فعله."

***

"ماذا إن كان فراغا،مجرد فراغ يهمس للقلب بأشياء وهمية، فحين يحضر الفراغ تنتابنا نوبات الأفكار لاسيما المشوشة منها،ماذا عن الذكريات، هل ستداهمنا حينها،ربما أجل وربما لن تفعل،لأننا نختار، نملك أحقية اختيار الوجهة إلى أين سيقودنا ذلك الفراغ،الذكريات لن تأخذنا إلى مكان سوى الماضي، وذلك لا يجدي نفعا،وإن اخترنا الأفكار هذا يعني خلق تساؤلات معقدة وفرضيات أكثر تعقيدا، نفضل هاته عن تلك،لأنها مشوقة أكثر وأقل حزنا، لأنه حتى وإن كانت ذكرياتنا سعيدة سنحزن لأنها إنتهت ولن تعود، بينما الأخيرة تهدينا نوما عميقا وحلما لطيفا."

***

أتعلم، لقد اشتقت إليك كثيرا أتعلم ..الرسم في ذلك المغلف الذي أهديتني إياه أسوأ بكثير مما ظننت ناهيك عن لونه الأخضر الذي يذكرني بعينيك كلما لمحته انه حقا سيء.

"خذي، هدية بسيطة لكنها تعني الكثير ". هذه الكلمات الدافئة لا زالت عالقة بذهني لم تفارقني منذ أن فارقتني. هل أنا الحمقاء يا ترى؟ أتدري اعتدت المواجهة في كل شيء لم أهرب يوما لكن منذ أن عرفتك غدا الهرب سبيلي الوحيد أجل هربت منك هربت من عيونك تلك من أحاديثك التي لا تنتهي عن الحياة السياسة الأحلام والطموحات والسفر بعيدا. في الوقت الذي كنت أنت فيه ملاذي الوحيد أخذت اهرب منك أنت لم تفهم. لم أكن أهرب منك بل من حبي لك. لم أكن أعلم أني بهذا الضعف حين قابلتك.. أشتاقك جدا.. هل لي بلقائك!؟ اعلم تصبح رسوماتي جد مشوشة وغير مفهومة حين أتحدث عن الحب. هذا ما قلته لي ذات مرة حين أريتك شيئا كنت قد رسمته حين داعبت عصافير الحب قلبي على أمل أن تفهم أنك المقصود، لكنك صفعتني بكلماتك تلك

معك حق أتدري !فحقا يغدو القلب مشوش الفكر حين يحب وربما كنت ساذجة حين فعلت ذلك. الذكريات تحيط بي من كل جهة... أظنه نقطة ضعفي أو ربما أنت ...حقا لا أعلم أيا منهما يؤلم هل الحب أم أنك أنت من تؤلم قلبي أو ربما الأمرين معا لأن الحب لطالما كان جميلا ودواء للكثير لكنه يصبح مرا حين تحب شخصا لن يكون لك... شخصا ليس من المفترض أن تقابله لكنه فجأة أصبح أعز ما تملك من نظرة واحدة، من حديث على الساعة الثالثة صباحا أو ربما من موقف عابر، عدة مواقف.. لن تستطيع تعريف العلاقة ولأنك علقت في الوسط تفضل البقاء لأن الأمر لا يعنيك... لكن في الحقيقة هو يعني لك... يعنيك وبشدة وحين تواجه نفسك في المرآة ترى ذلك بوضوح لكنك تهرب منه وتتجاهله وتسخر من نفسك ضاحكا أن هذا من المستحيل أن يحدث لكنه حدث، حدث وانتهى.. لقد وقعت بالحب ..أجمل وأسوأ شيء بالكون ... لأنك تعلم أنه كذلك... جميل بطبعه ربيعي اللون ملامحه رقيقة جدا .. وسيء للغاية لأنك أحببت الشخص الخطأ ولأنك أحببت سترى أنه من الأحسن أن تبتعد ربما لبعض من الوقت أو ربما إلى الأبد كأنك تمهل الطرف الآخر مهلة لتقرر إن كان حقا يستحق العناء أم أنه مجرد سحابة عابرة لا غير... وفي الأخير تكتشف أنه فعلا مجرد سحابة عابرة... ذلك الحب الذي يملأ قلبك وتلك المشاعر التي تغمرك بشدة في كل مرة تصادف من تحب وذلك الشوق الذي يغني لك تهويده ما قبل النوم كل ليلة... وكل شيء من كل هذا هو مجرد سحابة عابرة... غيوم متلبدة على وشك أن تمطر لكنها لن تفعل... ليس لأن الجانب الآخر لا يبادلك الشعور لكن فقط لأن الحياة لا تريدكما معا... فقط لأنه ليس من المقدر أن تكونا مع بعض.. لان العالم مجرد مسرحية ونحن الممثلين.. في أي لحظة ينتهي دورنا وتكسر التمثيلية ونفترق للأبد ...ويا لها من نهاية تعيسة. نكسر بها قلوبنا ونسعد بها قلوب المتفرجين.

"أحيانا كثيرة أصف نفسي بالمعتوهة حين أفكر بك وتتخطى عطور الذكريات حاجز عقلي، أصبحت الآن في كل مرة أعبرك أتجاوزك وكأني أتخطى الجزء الأكبر من قلبي وأنا سعيدة لذلك."

بأحد المرات بينما هي تتجول داخل معرض للكتاب رفقة زوجها كريم و أختها جذب اِنتباهها كتابا على إحدى الطاولات، توقفت وقد اتسعت حدقتا عيونها أمعنت النظر جيدا، انه نفس العنوان، نفس عنوان إحدى رسوماتها، " ربيع عاصف"، حملت الكتاب بين يديها، للحظة عادت بها ذاكرتها إلى ذلك اليوم، إلى أول لقاء به، تذكرت تلك المرة التي أخبرها بها أنه يوما ما سيختار" ربيع عاصف" عنوانا لكتابه ، وستكون رسمتها هي غلاف الكتاب، بسرعة بحثت عن اسم المؤلف لكن سرعان ما غادر الحماس روحها حين وجدت أن اِسم الكاتب يدعى " أدهم المرادي". قلبت صفحات الكتاب دون تركيز وبسأم، ثم بعدها أخذت تقرأ ما كُتب على ظهر الغلاف للكتاب :

" لاشيء يمكنه أن يوقظ حبا قديما بك سوى ذكرياته، مجرد ذكرى عابرة تلوح في أفق خيالك، تجلب لك كل ماض كنتَ فيه مرةً، لم يعد قلبي يهتم بالحب لم يفعل أصلا، حين فعل كان ذلك خطأ تافها أكثر منه ساذجا، فحين تقع في حب إنسان يستحق كل ذلك الحب، كل تلك المشاعر، تجد نفسك تشعر بسذاجة كبيرة لأنه لم يكن من المقدر لك، ضاعت مشاعرك سُدًى فحسب ، لم يسرد قلبي منذ مدة، فقد سلم تلك المهمة لأحد غيره، إنها روحي، روحي الآن من تسرد، إنها الراوية، إنها صاحبة الكلمات التي تخطها أصابعي، أما بعد، وقد علمت كل شيء أحيان كثيرة تقتلني الأفكار، انه بمثابة انفصام للعقل، حين تتنفس هواءا خانقا يقع عليك الانفصام، بأفكارك، بروحك، بعقلك، انه موجود منذ مدة لكنه الآن يصبح أقوى، يتغلب عليك، فيقتلك. أحيانا يتراءى لي لو أنني أستسلم له، لذلك الانفصام الموجود داخلي، لو أنني فقط أفعل شيئا أخيرا ينهي عذاب روحي، ثم بعدها سأرتاح للأبد."

تنهدت وقد تذكرت كل شيء مضى، لكنها وضعت الكتاب بمكانه و مضت قدما إلى عند زوجها و زهرة.فالورود دوما تذبل، لكن حتما تُزهر غيرها، فننسى تلك التي ذبلت و نعتني بالتي قد أزهرت في قلوبنا.

بعد ثلاث سنوات....

تماما كما بدأت حياتي من جديد قبل ثلاث سنوات أعدت بناءها مرة أخرى بعدما فقدت كريم وكذلك الجنين الذي كان ببطني،أخذ مني ذلك وقتا طويلا لكن في الأخير علمت أن الواحد فينا إذا وقع يجب عليه النهوض للاستمرار حتى أن لم تكن المرة الأولى التي نقع بها،فالحياة تستمر رغم كل شيء...وجدت لي عملا في إحدى المعاهد كأستاذة رسم،وجدت راحتي بهذا العمل،يمنحني الهدوء والسكينة أشعر وكأني أولد من جديد في كل مرة أقوم بتعليم الرسم لأولئك الأولاد،رؤية الشغف بعيونهم ورغبتهم بالرسم تذكرني بنفسي حين كنت مثلهم، يمنحني ذلك حبا أكثر لعملي وطاقة أكثر لإستقبال الأيام..لازلت أرسم،لم أتوقف يوما عن فعل ذلك فلطالما وجدت دوائي في الرسم،سيبقى دوما بمثابة شفاءٍ لي ولقلبي..هكذا واجهتُ السنين الماضية وسأفعل نفس الشيء في السنوات القادمة،شيء وحيد أؤمن به وهو أنني سأكون بخير،سأكون على ما يرام، هذا ما اعتادت زهرة قوله لي.. أصبحنا ثلاث أشخاص بالبيت الآن بعدما كنا خمسة أفراد،مراد رحل أولا ثم بعدها رحلت أنا لكني في الأخير عدت لأكمل حياتي رفقة والداي ببيت واحد والآن زهرة طارت من العش،وجدت توأم روحها وتزوجت هي الأخرى، رحلت إلى مدينة تدعى..... هي بعيدة بعض الشيء لكننا على تواصل دوما، آخر مرة تحدثنا بها أخبرتنا بأنها سترزق قريبا بأول طفل لها، سررنا كثيرا بهذا الخبر، وهذا يعني أنني أخيرا سأصبح خالة وهذا شيء جميل نوعا ما..

مضى على عملي قرابة العام،وأولئك الأطفال يشعون بالبهجة والتفاؤل بشكل جميل جدا،لكن من بين الذين أدرسهم جميعا هناك طفلة مميزة،بدت لي كذلك، أرى في عينيها البنيتين تلك حبا كبيرا وشغفا أكبر للرسم، في كل مرة أجدها ترسم شيئا من إبداع خيالها وتأتيني به، كلما أنظر إليها أتذكر أنه كنت لأُصبح أمًا لولا ذلك الحادث، تبلغ من العمر ست سنين فقط لكنني أرى برسوماتها شيئا مميزا،ليست كاملة بالضبط لكن يروقني ما ترسمه فعلا،وحين أردت التأكد من أنه فعلا خيالها وليس نقلا عن بعض الرسومات،أبقيتها لساعة إضافية بعد انتهاء الدوام وأعطيتها ورقة وطلبت منها أن ترسم لي أي شيء تريده، فباشرت فعل ذلك بإبتسامة دافئة،راقبتها من على المكتب وهي ترسم بهدوء،بتركيز تام، بشكل طفولي للغاية تارة تستعمل قلم الرصاص وتارة أحد الأقلام الملونة، لم تهز رأسها من على

الرسمة إلى غاية انتهائها. أخذت تتفحص رسمتها بعيون مبتهجة ثم صرخت بطفولية حلوة:

- آنستي..لقد أنهيتها...

قمت من مكتبي وتقدمت نحوها وقلت مبتسمة:

- لنرى يا جنى ما الذي خطته يداك الصغيرة هذه المرة..

جلست بجانبها وأنا أرى معالم السعادة على وجهها،إنها حلوة جدا بشعرها الكستنائي المنسدل على كتفيها وغرتها التي تنسدل على وجهها بشكل حلو أيضا،أما عن عيونها فهي تمتلك عينان واسعتان بلون بني غامق، إنها حلوة فعلا وظريفة..

قالت تترجاني بشكل طفولي :

- هيا يا آنستي تفحصيها وأخبريني رأيك بها...

نظرت بعينيها وقلت ضاحكة وأنا أمسح بيدي على شعرها:

- حسنا أيتها الصغيرة، لا تكوني قليلة صبر هكذا..

أخذت أتمعن فيما رسمته بينما هي راحت تراقب نظراتي لرسمتها،نظرت إليها وقلت متسائلة:

- إنها باقة أزهار...!

قالت باسمة:

- أجل،هل أعجبتك..؟

عدت بنظري إلى الورقة التي عليها الرسمة؛باقة من الأزهار الملونة بلون أرجواني في مزهرية بدت متوسطة الحجم قامت بتحديد خطوطها بقلم اسود ولونتها باللون الأزرق ثم بعدها تأتي الأزهار الأرجوانية كأنها متفرعة من داخل المزهرية بشكل جميل،وسط كل زهرة دائرة صغيرة ملونة باللون الأصفر بشكل باهت قليلا،قامت بتحديد الأزهار بالقلم ببراعة، حتى أنها لونت سطح الورقة باللون الرمادي. تفاجأت حقا بكل ذلك،لقد رسمت بشكل جميل جدا، لازالت عيناي متسمرة على الرسمة وقلت بنبرة ذهول:

- إنها حقا جميلة يا جنى..أحسنتِ..

أطرفت بحماس و هي تنظر إلي بعيون واسعة:

- أ حقا أعجبتكِ..؟

نظرت إليها أخيرا وقلت:

- أجل لقد أحسنت فعلا..لو كانت واجبا لأعطيتكِ العلامة الكاملة..

قالت مبتهجة:

- أنا مسرورة لأنها أعجبتك.. سكتت لهنيهة ثم قالت وهي تنظر إلى ورقتها:

- إنها تشبه المزهرية الموجودة لدينا بالبيت،تضعها جدتي منتصف الطاولة في الصالون...

هزت بعيونها إلي وأطرفت:

- أتعرفين ما نوع هذه الأزهار يا آنستي..؟

هززت رأسي نافية وقلت ضاحكة:

- لا يا صغيرتي،هل أنتِ تعرفينها..؟

قالت:

- تدعى "الأزهار النجمية" أو أزهار "أستر"..

قلت في شيء من الدهشة:

- "أستر"..!وأنتِ يا حلوة من أخبرك بذلك..؟

قالت:

- أبي أخبرني بذلك، قال إنها تدعى الأزهار النجمية أو يمكننا مناداتها "أستر" وأخبرني أن إسمها هذا يعني الصبر و الإحتمال..

قلت في إندهاش:

- ذلك جيد،والدك يعرف الكثير إذن...

قالت وهي تنظر إلي ببراءة:

- أظن ذلك،فهو يخبرني الكثير،لاسيما عن والدتي..

قلت في ذهول:

- والدتك؟

قالت بعد أن أشاحت بنظرها إلى الرسمة:

- أجل،يقول بأنها ليست موجودة معنا لكنها فوق، في السماء،أينما الله سيعتني بها..

عرفتُ للتو أن والدتها متوفاة،وعلى الأرجح توفيت حين ولادة جنى،حزنت لأجلها،وحزنت لأنها ستربى بدون أم،هذا قاس جدا.

قلت باسمة وأنا أمسح بيدي على خدها برفق:

- لابد أنها فخورة بك،إن رأت ما ترسمينه حتما ستفخر بذلك يا صغيرتي،ستكون سعيدة جدا بك..

نظرت إلي بعيون يملاها الشوق وقالت:

- هناك نجمة جميلة بالسماء، أظنها ماما،في كل ليلة أنظر إلى بريقها الجميل وسط عتمة الليل وهي تلمع..أشعر وكأنها تراقبني من خارج النافذة حين أكون نائمة..

قلت مبتسمة وهممتُ باحتضانها:

- يا لك من حلوة...

عانقتني وقالت:

- أمي تملك نفس لون عيوني وكذلك شعري،أبي يقول أنني حين أكبر سأشبهها كثيرا..

قلت باسمة:

- إنه لشيء جميل أن تشبه الفتاة أمها..ثم أضفت:

- لابد من أنها كانت تحب الرسم مثلك أيضا...

قالت:

- لا،لم تكن من هواة الرسم على حسب ما أخبرني به أبي..

قلتُ:

- إذن،لابد من أن والدك يحب الرسم..ها..!

قالت:

- لا،أبي يكتب.. ثم بدت وكأنها تحاول تذكر شيء ما،قالت:

- لقد كتب كتابا لكنني لست أتذكر عنوانه...

وكأن ذكرى بعيدة المدى جالت خاطري لحظتها،إنتابني إحساس غريب لوهلة لكنني تجاهلت ذلك وتساءلت:

- إذن أنت تحبين الرسم هكذا فقط..؟

قالت وهي تنظر بشغف:

- أظنني كذلك، لا يوجد شيء أراه إلا وحاولت رسمه.

قلت باسمة:

- ذلك جميل..لابد من أن والدك إنتبه لرغبتك بالرسم وإلا لما سجلك هنا..لا تتوقفي عن الرسم أبدا،عديني بذلك..

قالت باسمة ببراءة:

- أعدك يا آنستي أنني سأظل أرسم إلى الأبد..

مسحت على شعرها برفق وقلت مبتسمة:

- إن شاء الله يا صغيرتي..

إنها ترسم بشكل أكبر من عمرها لم أظن أبدا أني سأجد هذا الكم من الإبداع يخرج من طفلة في السادسة من عمرها.. أظن أن هذه الفتاة معجزة..

الأيام تمر بشكل طبيعي جدا،كل يوم أتوجه إلى مكان عملي في إبتهاج وحماس وأيضا بكثير من الأمل،رؤية أولئك الصغار تجعلني كذلك دوما، كنا في منتصف السنة وكتشجيع صغير مني لأطفالي الشغوفين أردت إقامة معرض صغير لرسوماتهم اللطيفة في المعهد،كنت قد اقترحت الفكرة على المدير فأعجب بالأمر وقال إنه بمثابة أمل صغير للأطفال، وأيضا فرصة لتعرف الأهالي على معلمي أطفالهم،وافقني التفكير وقام بالتكفل بكل ما يخص هذا المعرض، بينما أنا أخبرت الأطفال مسبقا وطلبت منهم أن يرسموا رسومات أخرى،تحمسوا للموضوع وزاد اهتمامهم برسوماتهم أكثر حين علموا أن دعوة حضور المعرض ستشمل أهاليهم أيضا،لأنهم صغار ويحبون الشعور وكأنهم شيء مميز لدى عائلاتهم..

أمجد

رحلت مرام في الوقت الأكثر احتياجا لها،تركت لي ملاكا صغيرا يزين حياتي،أسميتها جنى،مثلما كانت تريد تسميتها،ذلك اليوم حين حصل كل شيء؛خرجت الطبيبة وأخيرا من عند مرام وهي تنظر بإستياء تقدمت نحوها في ذعر كي أسألها عن أحوال مرام وطفلتنا لكنها قالت مباشرة وهي تنظر بعيني:

- أنا آسفة لقد فقدنا المريضة جرّاء تعرضها لنزيف حاد..

صُدمتُ لما قالته،سألتها متلعثما وأنا أخشى مما ستجيبه:

- والطفلة...!

قالت :

- الطفلة بخير، وبصحة جيدة...

لم أشعر إلا بدموع تسلك طريقها من على خدي في حزن شديد،لم أفهم ما إن كان يجب علي أن أحزن على موت مرام أو افرح لأن طفلتنا بخير،قلت وأنا أمسحها بكف يدي:

- هل يمكنني أن أراها..؟

قالت:

- طبعا، ستأخذها بعد قليل...

هززت رأسي وابتسمت بمرارة ثم غادرتْ بعدها، لم أستوعب الأمر،لم أكن أتخيل أنني سأفقدها،شعرت بثقل شديد،لم أدري ما الذي سأفعله،لحسن الحظ أن أمي كانت موجودة معنا وإلا لكان الأمر صعبا للغاية، أمي كان لها فضل كبير في تربية جنى،ساعدتني معظم الأوقات، وأصبحت جنى هي المصباح المنير لبيتنا..انقضت الأيام وأنا أرى جنى تكبر أمام عيني،لم أرد لجنى أن تكبر دون أم لكن شاءت الأقدار أن يحصل ذلك،وبالطبع بذلت كل ما أستطيع حتى أثبّتَ لها في عقلها صورة جميلة عن والدتها،لم أغفل جانبا كهذا طبعا، كنت في كل مرة استغل الفرصة كي أحكي لها عنها وكيف أنها كانت سعيدة لأنها ستأتي بها لهذه الدنيا وحاولت جاهدا أنا وأمي أن نعوض ذلك النقص في حياتها،كنت أشتري لها القصص الملونة وكانت تكمل تلوينها ومرات تعيد رسمها،لاحظت تعلقها الشديد بالرسم،وكيف أنها تنظر بابتهاج حين ترى الأقلام الملونة التي أُحضرها إليها،لم أكن الوحيد الذي لاحظ ذلك،أمي أيضا لاحظت ذلك فهي تبقى معها أكثر مني،لذلك في

أحد الأيام طلبت مني أن أُسجّلها بأحد المعاهد المختصّة بأشياء كهذه حتى تتعلم أكثر عن الرسم وسيكون لديها الوقت لتدرس بالمدرسة وبالمعهد سويا، قالت "دعها تنشغل بشيء جيد سيكون ذلك مفيدا لها"،وافقت أمي على الفور فقد كانت محقة في كلامها،وحين قالت باسمة " ربما تصبح رسامة حين تكبر" أطرقت هذه الكلمة مسامعي وراحت تتردد بأفكاري،شعرتُ بغصة شديدة،إبتسمت بمرارة وقلت " إن شاء الله يا أمي".. حين أخبرت جنى فرحت كثيرا وراحت تعانقني في حماس وهي تقول "شكرا يا أبي"..سررت كثيرا من أجلها، سررت لأنها فرحت لذلك..مضت قرابة السنة الآن منذ دخولها المعهد وكانت كل مرة تزداد حماسا وتأتي إلي بما تعلمته وبما رسمته وكلها إبتهاج وسرور،أخبرتني أنها تحب معلمتها،وأنها مسرورة لأنها إحدى تلاميذها.. تقضي أوقات فراغها غالبا بالرسم،لم تكن تهتم بالألعاب ولا بالدمى، رغبتها بالرسم تكبر يوما بعد يوم..

بأحد الأيام،كنت جالسا بالحديقة الخلفية للبيت أحاول الكتابة،أردتُ أن أسرد شيئا ما لكنني لم أعرف ما هو،جنى في دوامها وأمي قالت أنها تريد الذهاب لجلبها بعد أن يتجولا قليلا،لم أعارض طبعا وحاولت إستغلال هدوء البيت ووحدتي في الكتابة.. ثم ما هي إلا لحظات حتى دق جرس البيت،قمت من مكاني وتوجهت نحو الباب وفور ما فتحته ارتمت جنى علي وهي تنادي بسرور "أبي" فعانقتها وحملتها وأنا أقول "أهلا يا مهجة قلبي" دلفت والدتي البيت وهي تبتسم من حالنا ثم توجهنا جميعا أينما كنت أختلي بأفكاري وجلسنا جميعا على الطاولة، وجنى لاتزال بحضني،أطرفت أمي:

- لقد اقتحمنا عزلتك وأنت تكتب..

قلت في هدوء:

- لا بأس، لم افلح في كتابة حرف واحد أصلا...

أطرفت جنى في حماس:

- سيقام معرض لرسوماتنا بالمعهد،والمعلمة طلبت منا أن نرسم رسومات أخرى حتى تكون جزءا من المعرض..

قلت مندهشا وسط إبتهاجها:

- ذلك رائع يا صغيرتي..

ثم أضافت:

- وقالت أن أهالينا سيكونون حاضرين أيضا،ثم إبتسمت وقالت:
- هذا يعني أنكم مدعوون للحضور أيضا...
قالت جدتها باسمة:
- وسنكون هناك بالتأكيد لأجلك يا حبيبتي.. أليس كذلك يا أمجد..
قلت:
- طبعا،وهل يعقل أن أرفض ذلك،ثم قبّلْت جنى على خدها...
قالت بنبرة متحمسة:
- وحينها يمكنك أن تقابل معلمتي...
قلت باسما:
- حسنا،لا مانع لدي يا صغيرتي...

***

انقضت الأيام كعادتها ووصل يوم المعرض،كل الأطفال حضروا رسوماتهم وأعطوها لمعلمتهم قبل ذلك بيوم، كانوا متلهفين لذلك اليوم بشدة، إنبهرت ياسمين بكل تلك الرسومات ولاسيما رسومات جنى، وسررت لأن هؤلاء الأطفال شغوفين بالرسم هكذا. بعدما تم الإهتمام بكل ترتيبات المعرض،تزينت ياسمين في حلة جميلة؛فستان فضفاض أزرق داكن يصل إلى أسفل رجليها،وتزين ربطة عنق سوداء بشكل فراشة أعلى الفستان الذي يصل إلى عنقها وعلى وسطه يوجد حزام خصر بنفس لون الفستان كانت قد وضعته، وأسدلت شعرها بشكل جميل من على كتفيها..وانطلقت في طريقها إلى المعهد، أرادت التواجد هناك قبل بدء المعرض حتى تتأكد من أن كل شيء جاهز وكذلك حتى ترحب بأطفالها و أهاليهم بحرارة...

تجهزت جنى بفستان بلون الزهور ومشطت لها جدتها شعرها على شكل ذيل حصان بحيث اكتملت ظرافتها وحلاوتها الطفولية تلك، وتجهز أمجد ببذلة رمادية اللون كعادته أيام العمل..خرجت العائلة الحلوة من البيت وركبوا السيارة وتوجهوا إلى المعهد وهتاف جنى وغناءها المتواصل المضحك يعلو السيارة..

إلتفتت الجدة إلى جنى وأطرفت ضاحكة:
- أتعلمين إلى أين سنذهب بعد إنتهاء المعرض يا جنى..!
نظرت بعيون واسعة وإبتسامة كبيرة وقالت:
- إلى أين..!

قالت باسمة:

- إلى حديقة الملاهي...

إبتهجت جنى لذلك وعلت هتافاتها،إبتسم والدها وجدتها من تصرفاتها تلك وقضوا الطريق مستمعين لغناءها المبهج..

وصلوا أخيرا،كان بعض الناس قد أتوا قبلا،لم تكن جنى ووالدها وجدتها أول الواصلين، نزلوا من السيارة، وأمسكت جنى يدا كل من والدها وجدتها في سرور وتقدموا إلى الداخل...

***

وصلت أولا قبل بدء المعرض،وكان هناك بعض المعلمين قد أتوا أيضا،ألقت التحية عليهم ثم راحت تتأكد من أن كل شيء تمام،تم تزيين القاعة بشكل جميل،الرسومات موجودة وكذلك يوجد البوفيه الذي عليه مختلف أصناف الحلويات والمشروبات، شعرت بغبطة شديدة وهي تتفحص رسومات الأطفال المعلقة على الحائط في شكل لوحات،فعلا منظر جميل،لم تتوقع رؤية كل هذا القدر من الجمال في تلك الرسومات،وكأنهم موهوبون بالفطرة رغم صغر سنهم،تم كتابة إسم صاحب الرسمة أسفل كل لوحة،هكذا حتى يشعر الأهالي بفخر ما يقوم به أولادهم من إبداع بسن صغيرة..حان الوقت وبدأ الناس يتوافدون،كانت ترغب في الترحيب بأهالي الأطفال الذين تُدرسهم كما أرادت رؤية جنى وعائلتها كذلك، كمية التشويق التي تشعر بها الآن لا توصف،اِنضمت إلى بقية المعلمين حتى نتحدث قليلا،راحوا يمدحون ما رأت أعينهم من رسومات، سررتُ لذلك وخاصة أن الذين قاموا بالرسم هم تلاميذها،كما أنهم أعجبوا بفكرة المعرض هذه،ظلتْ معهم تنظر في ترقب إلى المدعوين وهم يشاهدون تلك اللوحات رفقة الأطفال، كان المكان مبتهجا للغاية،لأول مرة بعد سنوات تشعر بكذا سعادة،إحساس حلو يتسلل داخلها..

دلفوا المكان أخيرا،جنى متحمسة للغاية، وهو سعيد لأنها مسرورة، لوحات معلقة على الجدار وأسفل كل لوحة يوجد إسم، المكان يعج بالناس رفقة أطفالهم،راح يتأمل تلك اللوحات هو ووالدته في تعجب،إنها حقا جميلة، خيال أطفال، براءة في الرسم ممزوجة ببعض الإبداع، فجأة صرخت جنى في حماس:

- إنها رسوماتي... إنها رسوماتي.

تقدم ثلاثتهم نحو رسومات جنى، لكي ينظروا عن كثب، لم يكن يدري أنها موهوبة هكذا، رسوماتها بدت حقا رائعة..تساءلتْ :

- هل أعجبتكما..؟

إبتسمت جدتها وقالت وهي تُقبل جنى:

- وكيف لها ألا تعجبنا يا حلوتي...لقد أحسنتِ..

ثم أطرفت أمجد:

- إنها جميلة جدا يا صغيرتي..

راحت جنى تبتسم في غرور بشكل طفولي، ثم قالت:

- سعيدة لذلك...

همست له والدته:

- والله لقد أحسنّا فعلا بتسجيلها بهذا المعهد..

قال:

- معك حق.. البنت موهوبة..

ثم واصلوا التجول من لوحة إلى أخرى هم يحدقون بتعجب وفاه فاغرة، فقد كان فعلا إبداعا بالنسبة لأطفال في ذلك السن الصغير، خطرت مرام بباله وتمنى لو أنها هنا معهم تشاهد سعادة جنى،لكانت فرحة جنى أكبر مما هي الآن. فجأة رنّ هاتفه فقام بإخراجه من جيبه ونظر فإذا به إتصال من أحد زملاء العمل،استأذن من والدته وجنى وابتعدت عن الناس وضجيجهم كي يجيب على المكالمة..

ياسمين

بينما أشاهد المكان،لمحت عيني جنى وكانت بجانبها امرأة كبيرة في السن، على الأغلب جدتها،تقدمت نحوهما في هدوء حتى لمحتني جنى فابتسمت لي ونادت بنبرة مبتهجة بحيث أخذت إنتباه جدتها:

- معلمتي..

إبتسمت لها بدوري،وحين وصلت إليهما أطرفت باسمة:

- أهلا أيتها الحلوة..ثم إلتفت بنظري إلى جدتها وقلت:

- مرحبا،أنا معلمة جنى...

قالت باسمة:

- أهلا بك يا إبنتي، أنا جدتها..

قلت باسمة:

- تشرفت بمعرفتك...

قالت:

- وأنا كذلك يا إبنتي تشرفت بلقائك...

سألتها:

- أرأيتِ رسومات جنى..!هل أعجبتك..!

قالت مبتسمة:

- لقد أعجبتني جدا،والدها أيضا أعجب برسوماتها، حتى أن كل الرسومات جميلة جدا...

قلت باسمة:

- مسرورة لأنها راقت لكم..إنهم أطفال موهوبين حقا...

أطرفت جنى متسائلة:

- لقد تأخر والدي...

بررت جدتها قائلة:

- سيأتي يا بنيتي.. لابد من أن حديثه على الهاتف سيطول قليلا..

هزت برأسها ثم نظرت ناحيتي وقالت في حماس:

- معلمتي..هل رأيتِ رسوماتي..! إنها معلقة على الجدار بشكل لوحات...

قلت ضاحكة:

- أجل يا صغيرتي،وتبدو جميلة جدا ...

أطرفت الجدة باسمة:

- إنها معجبة برسوماتها كثيرا...

قلت باسمة:

- معها حق،فهي ترسم بشكل جميل جدا...

قالت ضاحكة:

- لدينا كاتب وسيصبح لدينا رسامة أيضا...

إبتسمت وقلت:

- إن شاء الله، أرى أنها ستكون رسامة ناجحة إن واصلت شغفها طبعا..ثم نظرت إلى جنى وقلت في سرور:

- أليس كذلك يا جنى...!

قالت في حماس:

- سأفي بوعدي لك يا معلمتي..

قلت باسمة :

- إن شاء الله يا صغيرتي..

ثم بعدها استأذنت منهما فقد حان الوقت لإلقاء كلمة على مسمع المدعوين. أخذ المدير الميكروفون أولا وشرع يقول:

- صباح الخير جميعا..

جميع النظرات وجهت نحوه، واصل بكلامه:

- يشرفنا حضوركم جميعا، لقد لبيتم الدعوة واتيتم لتشاهدو إبداع أطفالكم..صمت لهنيهة ثم واصل: - معهدنا ينم عن تطوير هكذا مواهب، وأنه لشرف لنا ولبلدنا أن نحتوي مثل هذه المواهب عندنا، وأن يتم تطويرها هنا في هذا المعهد، فأطفالنا هم الغد، هم أمل المستقبل..وأطفالنا اليوم هم أساس هذه اللمة اللطيفة بالطبع تحت إشراف السيدة ياسمين حمداوي الذي كان لها دور كبير في هذا المعرض ..ثم نظر ناحيتي وأشار إلي كي آتي وأتكلم،تقدمت نحوه مبتسمة وسط تصفيق الجميع ونظراتهم،إستلمت الميكروفون منه وأطرفت:

- مرحبا بكم جميعا، آمل أنكم تستمعون بمشاهدة كل هاته اللوحات الموجودة هنا، تماما كما أستمتع أنا كل يوم برؤية إبداع هؤلاء الصغار، كل

يوم،أرى ذلك الشغف وتلك اللهفة بعيونهم وبنظراتهم، حماسهم و إبتهاجهم، رغبتهم بالرسم وبالتعلم أكثر،كل هذا يمنحني شعورا مميزا،يمنحني طاقة إيجابية،وحَدَثُ اليوم ما هو إلا خطوة صغيرة حتى نشجعهم بها على مواصلة شغفهم وتنميته،فأنا حقا آمل أن أراهم من كبار الرسامين غدا في المستقبل،والشكر للأهالي الذين يهتمون باكتشاف مواهب أطفالهم وتطويرها،أرجوكم لا تتوقفوا عن ذلك، بل شجعوهم وكونوا لهم عونا حتى يتقدموا للأحسن، ثم إبتسمت وقلت منهية خطابي:

- يشرفني حضوركم، شكرا.. ثم سلمت الميكروفون لصاحبه،علت التصفيقات وعبارات المديح، بينما أبتسم و أهز برأسي لهم في سرور.. أنا حقا مسرورة لذلك..إبتعدت بعدها في هدوء وذهبت إلى قاعة المعلمين،أردت المكوث بمفردي قليلا،أخذت أسترجع بذاكرتي اليوم الذي أقمت فيه أول معرض لرسوماتي، كنت سعيدة جدا حينها لأن كل مارسمته لم يضع سدًى، تذكرت كل شيء؛ذلك اليوم والأيام التي أتت بعد ذلك،موت مراد، موت أمجد، زواجي، الحادث.. أحسست بمغص شديد بقلبي، أخذت أتنفس بصعوبة، إغرورقت عيناي بالدموع، تسارعت نبضات قلبي،شعرت بشيء يشبه الغثيان، هرعت إلى الخارج وأنا أحاول أن أستجمع نفسي،ثم رويدا رويدا بدأت أهدأ، وأخذت أتنفس بعمق،شعرت بنبضات قلبي تعود إلى وضعها الطبيعي شيئا فشيئا، لم أعد أشعر بذلك الألم في قلبي،ورحت أتنفس بشكل طبيعي مرة أخرى.. جلست بإحدى المقاعد في الساحة،تحت نور الشمس،ونسمات الرياح تلك، أنظر إلى أولئك الناس في هدوء ثم فكرت:

- هل أنا شخص منحوس يا ترى..؟

لقد خسرت كل من أحببتهم يوما،لم يتبقى لي سوى والدايا وأختي، لن أتحمل فقدانهم، أفضل أن أموت على أن أفقدهم.. ربما هو القدر فحسب،مقدر أن يحدث لي كل هذا،لا إعتراض على أقدارنا طبعا لكنني فقط تعبت يا الله، تعبت من تلك الكوابيس،هي مجرد ذكريات تعيد نفسها في شكل كوابيس لكنها مفزعة وكأنني أعيشها للمرة الأولى،تعبت من تجاهل داخلي،تعبت وأنا أردد أن كل شيء سيكون على ما يرام ففي آخر مرة ظننت فيها ذلك فقدت زوجي وطفلي، أظنني أحتاج للنوم،أن أنام لمدة طويلة وأن لا أستيقظ أبدا.. قمت من مكاني لأرحل،

خرجت في عجل من المعهد وتوجهت إلى البيت في إستياء بعدما كنت بأوجّ سعادتي، أعلم، إنها إحدى النوبات التي أشعر بها في كل مرة،ستختفي بعد أن أنام،وسأمضي قدما كأن شيئا لم يكن...

***

أمجد

أنهيت مكالمتي التي أخذت وقتا طويلا بعض الشيء،وعدت إلى الداخل لأجد أمي وجنى ينتظرونني في ترقب،تقدمت نحوهما ثم أطرفت في عبث:

- هل فاتني شيء ما...!

تساءلت أمي:

- لماذا تأخرت..؟

قلت:

- مكالمة بشأن العمل وأخذنا نتناقش بشكل مطول قليلا...

أطرفت جنى:

- لقد أتت معلمتي ولم تقابلها،ثم ألقى المدير ومعلمتي خطابا قصيرا..

قلت مازحا:

- هل كل هذا فاتني..! ثم حملتها وقبلتها...

همست والدتي:

- كل شيء بخير يا ولدي،أليس كذلك..!

قلت :

- أجل يا أمي، لا داعي للقلق..

مكثنا لبعض الوقت هناك ثم بعدها خرجنا وذهبنا إلى حديقة الملاهي،تحمست جنى للأمر وأرادت أن تلعب بكثير من الألعاب، تركتها على راحتها اشتريت الفشار لنا، وجلست أنا وأمي بأحد المقاعد وسط الطبيعة الخضراء في جو الربيع الجميل،نراقب جنى في هدوء وهي تمرح حتى أطرفت أمي وهي تنظر إلى جنى:

-إنها سعيدة جدا..

قلت باسما:

- أجل، ليت مرام هنا لترى ذلك..

قالت بنبرة مواسية:

- ستكبر،وتصير مثلها،هي تشبهها كثيرا...سكتت لهنيهة ثم قالت:

- أنا أدري أنك حزين لوفاتها وأنا مثلك حزينة،فليشهد الله أنني لم أرى شرا منها،عاملتها كإبنتي تماما، لقد أحببتها وأحببت وجودها بحياتنا،لكنني أشعر بالأسى من أجل جنى، إنها تكبر دون أمها،وأنا أدري أنك لا تقصّر بشيء مع جنى وتقوم بالأبوة بشكل صحيح، وتحاول تعويض غياب والدتها عنها..

قاطعتها قائلا وأنا أنظر إليها:

- وأنت كذلك لا تقصرين بشيء معها يا أمي،أنت لك فضل كبير في تربية جنى لولاكِ لما عرفت ما الذي سأفعله...

قالت وقد نظرت بعيني:

- بالضبط، لقد ساعدتك، وبقيت مع جنى بأوقات عملك، اهتممت بكل ما يخصها، اهتممت بك أيضا،لكن سيأتي يوم وأرحل به يا ولدي..

قلت بعيون واسعة:

- لا تقولي هكذا، أطال الله عمرك وحفظك لنا..

قالت:

- الموت حق يا ولدي، لن أبقى بجانبكما إلى الأبد، و جنى لا تزال صغيرة،وحين ستكبر ستحس بغياب الأم أكثر، لن يكفيها احتوائك لها،سترغب بحنان الأم كأي فتاة أخرى..

علمت فورا أنها تلمح بذلك الكلام إلى زواجي مرة أخرى،قلت مبررا:

- سأحاول بقدر ما أستطيع تعويض ذلك النقص بحياتها،لن أجعلها تشعر بذلك النوع من الحرمان..

قالت:

- لن تقدر يا ولدي..

قاطعتها بنبرة غاضبة:

- أنا لن أتزوج يا أمي، انسي الموضوع..

قالت معاتبة:

- ولماذا..!

قلت:

- لا أريد ذلك..

قالت بجدية:

- أنت لن تتزوج لأجلك بل لأجل جنى يا بني، حتى تكبر وسط أب و أم، حتى لا تحس بالحرمان ..

قلت:

- أستطيع الإعتناء بنفسي و بإبنتي،لا تقلقي،ثم أضفت في حنق:

- وأيضا من قال لك أن زوجة الأب ستعامل إبنتي بطريقة جيدة يا أمي، أصلا من سترغب بالزواج من شخص لديه إبنة،وحتى إن وُجدتْ، لن تكون عادلة بين جنى وأولادها الذين هم منها، وستحس جنى بالنقص أكثر..

قالت:

- وربما تكون مخطئا وتعوض تلك الزوجة غياب والدة جنى حقا...

قلت :

- لن أغير رأيي..

نظرت بعيني بحنان وقالت:

- أنا أتكلم هكذا لأجل جنى ومن أجلك أنت،لأجل سعادتكما، أريد أن أطمئن عليكما قبل موعد رحيلي..

قلت بنبرة يشوبها الحزن وأنا أمسك بيدها برفق:

- أطال الله عمرك يا أحلى أم بالدنيا، لا تتحدثي عن الموت مرة أخرى أرجوكِ سنكون بخير، سأتدبّر أموري جيدا،سنكون على ما يرام،لا داعي للقلق ثم قبّلتُ يدها،إبتسمت بدفء وهزت رأسها وقالت:

- إن شاء الله يا ولدي،إن شاء الله..

ثم ماهي إلا لحظات حتى أتت جنى و إرتمت بحضني منهكة، ضحكت أنا وأمي لبراءتها ثم قمنا وغادرنا بالسيارة وعدنا إلى البيت أخيرا...

ياسمين..

لست أدري ما إن كنت قد شفيت أم أنني فقط تعودت،ففي التعود شفاء كأن لا تعبأ بقلبك بعد الآن،وأن تترك الأمور تسير في درب مجهول،كأنك تقبل الهزيمة،الأمر سيان عندك،لا فرق.. لكنك في وقت ما ستستفيق من غربة الروح تلك على ذكرى عبرت قلبك فجأة ودون دراية منك ستجد نفسك تسقط من أعلى قمة في السكون إلى تلك المشاعر القاتلة،ستحيا بشكل سيء داخلك،تؤلمك،تصيبك بالأرق،الأمر ليس بيدك،تريد أن تغفو مجددا لكنك لا تستطيع، تبقيك قسرا بسجنك، ستتمنى زوال الأمر، ستتمنى الهدوء والسكينة،تبكي بحرقة رغبة في السكينة من جديد،رغبة في ذلك البرود اللطيف،ستتعود على كل شيء،فقط هذا الشعور لن يهديك كينونة التأقلم عليه بالمرة..

لا تزال الأيام كعادتها،تمر في سأم محتوم،لا شيء يشعرني بالحياة سوى الرسم وأولئك الأطفال الشغوفين،كأن كل شيء يصبح جميلا فور دخولي ذلك المكان الحيوية التي به لا تنتهي،أزهار الأقحوان عند المدخل، مساحة خضراء،لونها يبهج القلب،أشجار مغروسة بشكل مرتب وأنيق،أقسام تمّ طلائها بألوان مبهجة ليست باهتة على الإطلاق بل تزرع في الروح شيئا من السعادة والراحة،حتى أناسه رائعين، إن هذا المكان بمثابة واحة من السكون والطمأنينة بالنسبة إلي...

مرّ وقت طويل منذ اليوم الذي أقيم به المعرض، شهور بعد ذلك مرّت بشكل لطيف وهادئ،واصلت عملي في سرور كل يوم،لكن لفت غياب جنى إنتباهي،لست أعلم لما أشعر أني أميل بشدة نحو تلك الطفلة،أنا أحب جميع أولئك الأطفال لكنها حصلت على جزء خاص من قلبي لها وحدها،مر أسبوع منذ آخر مرة أتت بها إلى المعهد، وبدأت أقلق عليها فعلا،فربما هي مريضة أو أنه حصل شيء لها،لست أدري ما الذي أفعله،أردت أن أعرف سبب غيابها كل هذه الفترة، لم أستطع الإنتظار إلى حين عودتها،فذهبت إلى المكان الذي يحتفظ به بملفات جميع التلاميذ،طلبت من المسؤول عن ذلك الأمر أن يجد لي ملف جنى، قلت له أنني أرغب بمكان سكنها هذا كل ما في الأمر،لم يعارض ولبى طلبي على الفور،إستغرقه ذلك بعض الوقت حتى يعثر عليه، ثم ما هي إلا لحظات حتى أعطاني العنوان،سجلته عندي، وتوجهت فور انتهائي من العمل إلى بيت جنى،أردت أن

أعرف سبب غيابها،أردت الاطمئنان عليها ولا أظن أن جدتها ستمانع زيارتي فقد بدت إنسانة لطيفة حين تعرفت عليها يوم المعرض.

وصلت أخيرا إلى منزلهم، يقع بإحدى الأحياء البعيدة عن ضجيج الطريق، في آخر الحي، حتى أنه يبعد بمسافة كبيرة عن بقية البيوت.. تقدمت نحو الباب،عدّلتُ من ملابسي في هدوء،بدا الأمر غريبا بعض الشيء فلم أرى معلما يزور تلاميذه من قبل.. طرقتُ على الجرس ورحتُ أنتظر أن يفتح أهل البيت الباب...

ما هي إلا ثوان حتى فتحت جدة جنى الباب ونظرت بعيون واسعة وأطرفت في تساءل:

- المعلمة ياسمين..!

نظرت ياسمين بارتباك و وهي تفكر في رد فعل الجدة،قالت:

- آسفة لزيارتي المفاجئة هذه، لكنني قلقت على جنى فأردت الاطمئنان عليها...

قالت الجدة في هدوء وهي تبتسم مرحبة بياسمين:

- لا تتأسفي يا ابنتي، لا مانع في ذلك، تفضلي أرجوكِ..

دلفت ياسمين البيت بعد أن دعتها الجدة للدخول في سرور، ثم توجهت نحو الصالون وياسمين تتبعها في هدوء..

إستطردت الجدة:

- تفضلي، اجلسي وسأجلب بعض القهوة وأعود..

أطرفت ياسمين:

- لا داعي لذلك حقا..

قاطعتها في إعتراض وهي تبتسم:

- أنت ضيفتي،أرجوك لا تخجليني..

ردّت ياسمين باسمة:

- شكرا لك..

وبعدها ذهبت الجدة إلى المطبخ لكي تحضّر القهوة،ثم ما هي إلا دقائق قليلة حتى عادت بفنجانين من القهوة رفقة بعض الحلويات إلى الصالون، وضعت بالصينية على الطاولة وجلست بجانب ياسمين وقد قدمت لها فنجان قهوة وعرضت عليها أكل تلك الحلويات..

أطرفت باسمة:

- أهلا بكِ،يشرفنا وجودك، وخاصة أنك معلمة جنى..

قالت باسمة:

- شكرا لك، قلقت على جنى،فقد مضى على غيابها أسبوعا، هل هي مريضة يا ترى..؟

أجابت الجدة :

- لقد أصيبت بالزكام، حساسية الربيع،هذا ما قاله الطبيب..

تساءلت في قلق :

- وكيف حالها الآن، هل حالتها سيئة..؟

أجابت :

- في بادئ الأمر بدأت تشعر بإعياء شديد و حرارتها مرتفعة، تسعل بشكل متواصل، مع الشعور بالدوار،لكن أخذناها إلى الطبيب ووصف لها بعض الأدوية، وقد بدأت في التحسن قليلا، فقط بعض الإعياء..

قالت :

- الحمد الله، هل هي نائمة الآن..؟

أجابت:

- أجل،إنها نائمة فوق، في غرفتها.

قالت :

- إن شاء الله تشفى وتصبح في أحسن حال.

ردّت:

- إن شاء الله يا إبنتي.. ثم سكتت لهنيهة وقالت باسمة

- جنى دائما تتحدث عنك،إنها تحبك، وستفرح كثيرا إن رأتك الآن..

قالت مبتسمة :

- وأنا أحبها كذلك، هي حقا بنت موهوبة..تحب الرسم كثيرا.

سألت باسمة:

- هل تريدين رؤيتها، هي نائمة لكنها حين تستيقظ وتراك ستفرح..

هزت رأسها وأجابت في إبتهاج:

- طبعا أريد ذلك..

قالت الجدة مبتسمة:

- حسنا إذن،لنذهب إلى غرفتها.

ثم صعدت كلتاهما الدرج متوجهتين نحو غرفة جنى،أشارت الجدة إلى الغرفة في سرور وقالت:

- تفضلي، إنها هنا، سأترككما بمفردكما قليلا.

قالت باسمة:

- حسنا،شكرا لك..

ثم دلفت الغرفة في هدوء خشية من أن توقظ جنى من نومها،الغرفة مطلية بلون زهري وقد عُلق عليها بعض الرسومات الظريفة،كان السرير في المنتصف بين الخزانة والنافذة التي تطل على الخارج،وبجانبه يوجد منضدة صغيرة، أما في الجهة المقابلة للسرير يوجد مكتب صغير رفقة كرسي،وكان عليه بعض الأوراق المليئة بالرسومات والخربشات،تقدمت نحو جنى،نظرت إليها بحنان وهي تراها نائمة بعمق هكذا،بدت ظريفة بخدودها المتوردتين وشعرها الذي ينسدل قليلا على عيونها المغمضة بشكل لطيف،ظلت ياسمين تنظر إليها مبتسمة بعد أن إنحنت لتمسح بيدها على خدها برفق وحنان قبل أن يلفت إنتباهها الصورة الموجودة على المنضدة بجانب المصباح الصغير، نظرت بعيون واسعة إلى الرجل الموجود بالصورة رفقة إمرأة، أخذت الصورة في عجل وراحت تتأمل بها وقد إتسعت حدقتا عيناها في دهشة، لم تستوعب ما تراه،هل هذا حقيقي أم أنه خيالها فقط،لازالت تنظر إلى الصورة مندهشة، غمغمت وقد إغرورقت عيناها بالدموع: - أيعقل هذا..! إنه يشبهه لحد كبير..

سكتت لوهلة وقد إنسابت دموعها من على خدها ثم قالت في سرّها:

- إنه يشبه أمجد...

انشغلت الجدة بتحضير طبق حلوى تحبه جنى،وتركت ياسمين رفقة حفيدتها جنى، أعجبها كيف أن ياسمين مهتمة بجنى هكذا وكيف أنها كانت قلقة عليها،غمغمت في هدوء:

- ستليق حتما كزوجة لأمجد و أمٍّ لجنى..

لكن كان يجب عليها أن تعرف ما إن كانت متزوجة أو لا، وماذا سيكون رأيها عن هكذا فكرة ثم بعدها أطلقت تنهيدة و لوت شفتيها في إستياء وتحدثت بسرِّها:

- لكنه عنيد،ولا يريد الزواج مرة أخرى..

قالت بصوت عال بعض الشيء:

- آه منك يا ولدي..

قطع تفكيرها صوت جرس البيت فهمّت بسرعة متوجهة نحو الباب،فتحته لتجد أمجد أمامها،نظرت باسمة وقالت:

- أهلا وسهلا

رد مبتسما وقد دلف البيت:

- أهلا بك يا أمي.. ثم سأل وهو ينزع عنه سترته :

- هل جنى نائمة..؟

أجابت في هدوء:

- أجل، إنها برفقة معلمتها..

ردّد مستغربا:

- معلمتها..؟ تساءل:

- وما الذي تفعله معلمة جنى هنا..؟

أجابت باسمة:

- لقد قلقت عليها حين غابت لأسبوع كامل..فأرادت المجيء والاطمئنان عليها..

قال في دهشة:

- ذلك لطف بالغ منها..

أضافت هامسة:

- أرى أنها مهتمة بجنى كثيرا و جنى كذلك تحبها،ألا ترى أن ذلك مناسب..!

تساءل :

- مناسب لماذا..!

أجابت مبتسمة:

- لزواجك منها..

قال متذمرا:

- أمي.. حبا بالله، ما هذا الذي تقولينه..! ألم نغلق هذا الموضوع..

ردّت بنبرة معاتبة:

- كلا،لن نغلقه.. لا تكن عنيدا هكذا..

قال مبتسما وهو يحاول التملّص من الحديث:

- لنتكلم في ذلك لاحقا يا أمي، والآن سأذهب لأرى جنى وألقي التحية على معلمتها..

قالت وقد انفرجت أساريرها:

- ذلك جيد.. هيا اذهب، ستعجبك، سترى..

تركها وهو يضحك على حالها تلك وصعد إلى غرفة جنى..حين وصل لمح ياسمين واقفة إلى جانب جنى وهي نائمة، لكنه لم يرى وجهها بعد، دلف الغرفة بخطوات هادئة ثم إستطرد بهدوء:

- مرحبا،أنا والد جنى..

جمدت في مكانها،وبدا لها صوته مألوفا جدا،لم تنطق بشيء. واصل قائلا:

- أخبرتني أمي أنك معلمة جنى وأنك أتيت للاطمئنان عليها، هذا حقا لطف منكِ..

لم تعلم ما الذي عليها فعله، حدّثت نفسها:

- حقا إن الله يخلق من الشبه أربعين إنه يشبهه وصوته مثل صوت أمجد،هل جننتُ يا ترى..!هل أنا أهلوس..!

وقف ينظر مستغربا من صمتها..لكنه أطرف متسائلا:

- عفوا..هل أنتِ بخير..!

إنتبهت لسؤاله،ففكرت:

- سألقي التحية وأغادر فورا، لا أريده أن يظن أنني غريبة الأطوار..إلتفتت إليه في هدوء محاولة تجنب النظر إليه، أطرفت مبتسمة بمرارة:

- أنا آسفة،لقد شردت قليلا بجنى..

تجمد الدم بعروقه، واتسعت حدقتا عيونه في دهشة، حدّق بوجهها ثم راح يتفحصها، لم يستغرق وقتا طويلا حتى يتعرف عليها،لم تتغير مطلقا غير أن شعرها قد طال قليلا فحسب،ذات العيون العسليتان،نفس النظرات، نفس الصوت،إنها هي..أطرف في دهشة

- ياسمين..!

أجابت في إرتباك:

- أجل، أدعى ياسمين الحمداوي، ولابد من أنك والد جنى..

تسمرت قدماه لوهلة وتساءل مستغربا:

- ألم تتذكرينني..!

نظرت إليه في إستغراب وقد تسارعت نبضات قلبها و إنتابت الرعشة أطراف جسدها، ثم إقترب منها في هدوء وقال وهو ينظر بعينها:

- هل نسيتني يا ذات العيون العسليتان...!

حدقت بعيون واسعة غير مستوعبة، تنظر إليه في استغراب، غمرتها الدموع ثم قالت بصوت تخنقه الدموع:

- هل أنت هو حقا ؟؟لقد ظننت أنك متّ..!

قال بعيون تبرق من الدموع :

- أنا أمامكِ حيٌّ أُرزق..

أحسّت بأن المكان يدور من حولها، فجأة شعرت برجفة بكامل جسدها، تتنفس بصعوبة وقد تشوشت الرؤية بعيونها، لم تحس بنفسها إلا وهي تميل تجاه الأرض. وقبل أن تسقط مغشيا عليها أمسكها أمجد وهو ينادي عليها في قلق،حملها بين ذراعيه إلى الغرفة المجاورة ووضعها على السرير ونزل بسرعة إلى عند والدته بالمطبخ، أخذ قارورة ماء وكأس بيده وعاد على عقبيه في عجل إلى الغرفة وسط ذهول أمه،لحقت به لترى ما الذي يحدث لكنها فوجئت برؤية ياسمين مستلقية على السرير وامجد يحاول إيقاظها برش قطرات الماء على وجهها في هدوء،سألت في دهشة:

- ما الذي حصل لها..!

ثم إقتربت منهما وسألت غاضبة:

- هل قلت شيئا للفتاة يا أمجد..!

أجاب وهو يمسح برفق على وجه ياسمين:

- لقد أغمي عليها..

سألت في حيرة:

- ولماذا..!

أجاب بإرتباك:

- لا أعلم، فجأة غابت عن الوعي..

بدأت تفتح عيونها ببطء،لا تدري ما الذي يحدث حولها،للحظة ظنّت أنها تحلم،بدأت الرؤية تتضح لها شيئا فشيئا لتجد أمجد جالسا بجانبها على السرير ووالدته واقفة قبالتها ينظران في حيرة إليها، أحست بصداع خفيف،نظرت إليهما في إرتباك وهي تحاول أن تعتدل بجلستها،أطرف أمجد في توتر:

- ارتاحي،لقد أغمي عليكِ،هل أنتِ بخير..!

ثم سألت والدته في قلق:

- هل أنتِ بخير يا إبنتي..! بماذا تشعرين..!

أجابت بتلعثم:

- أنا بخير، مجرد صداع خفيف..

ردّت الجدة:

- سأحضر لك شيئا ساخنا تشربينه،سيفيدك ذلك..

قالت وهي تبتسم بصعوبة:

- شكرا لكِ..

ثم بعدها تركتهما بسرعة وعادت إلى المطبخ..

أطرف أمجد وهو ينظر بعينيها:

- هل أنتِ بخير..!

أجابت وهي تنظر إليه غير مصدقة ما يحصل:

- أنا بخير،لست أدري ما الذي حدث لي فجأة..ثم إنسابت عبرات الدموع من على خدها وواصلت بنبرة باكية:

- حين رأيتك هكذا أمامي و حين ناديتني هكذا،لست أدري ما الذي أصابني..

فجأة إقترب أكثر منها وعانقها، لم تجد نفسها إلا وهي تبادله العناق في صمت، استمر ذلك للحظات ثم بعدها ابتعدا عن بعضهما في هدوء،كان الأمر غريبا بعض الشيء فلم تتوقع رد فعل هكذا منه ولم يخيل إليه أنه سيقوم يفعل كهذا..

أطرفت محاولة التخفيف من غرابة الأمر:

- لابد من أنني قد أيقظتُ جنى بالفوضى التي تسببتُ بها..

قال في إرتباك:

- أي فوضى، لا يوجد فوضى ولا شيء، وجنى نومها ثقيل، لا داعي للقلق، ثم واصل مازحا:

- لو حدث عرس هنا لا يوقظها..

قالت باسمة:

- أساسا هكذا الأطفال،ينامون بعمق، دون أي همّ، فقط ينامون بشكل حلو هكذا..

قال:

- معك حق،ثم سكت لهنيهة وواصل:

- الطفولة أجمل شيء بالعمر..

إبتسمت لكلماته لكن داخلها مشوش كثيرا، لاحظ أمجد شرودها فقال:

- لنذهب إلى الحديقة،سينفعك القليل من الهواء..

أجابت:

- حسنا.. ثم قامت من مكانها بهدوء،وأمسك أمجد ذراعها خشية من أن تسقط مرة أخرى ثم نزلا إلى الأسفل وخرجا إلى حديقة البيت الخلفية، أخذ أمجد كرسيين من على الطاولة ووضعهما بجانب بعضهما ثم طلب من ياسمين أن تجلس ريثما يعود..ذهب بسرعة إلى المطبخ وكانت والدته قادمة إليهما، حين رأته سألته :

- لقد حضرت هذا المشروب لها، سيفيدها..

قاطع أمه قائلا:

- أمي، نحن بالحديقة، هلا تركتنا بمفردنا قليلا..

قالت متسائلة:

- هل حدث شيء ما..!

أجاب في هدوء:

- لا، ليس هناك أي شيء،لا داعي للقلق، سأحكي لك كل شيء لاحقا..

هزت برأسها موافقة وقالت:

- حسنا يا ولدي، كما تريد لكن خذ معك المشروب،لا يزال ساخنا..

أطرف مبتسما:

- حسنا.. ثم أخذ منها المشروب وذهب إلى عند ياسمين..

أطرفت والدته بإبتهاج بعد مغادرة إبنها :

- ليحدث الشيء الذي ببالي يارب..

لمحته يأتي إلى عندها فإبتسمت وحدقت به بشرود غير مصدقة ما تراه عيناها، جلس إلى جانبها وقال:

- عليك بشرب هذا،قالت أمي أنه مفيد..

قالت باسمة :

- شكرا، أنا حقا محرجة مما حدث..

قاطعها قائلا:

- لا داعي لذلك، لا بأس..سكت لهنيهة ثم قال:

- هل نتحدث إذن..!

أجابت بعد أن أخذت رشفة من مشروبها الساخن واستوعبت حقيقة ما يحصل وأن هذا لم يكن حلما:

- لم تمت..!

أجاب ضاحكا:

- وماذا تظنين..!

قالت موضحة:

- لقد حدث إنفجار بالمنطقة التي كنت تقطن بها،ظننت أنك مت حينها، أرسلت لك عدة رسائل على حسابك لكنك لم تجب وأيضا حاولت الإتصال بك لكن هاتفك كان مغلقا، مما أكد لي موتك..

قال بعد تنهد:

- حكاية طويلة..

نظرت إليه بترقب وقد واصل حديثه قائلا:

- لقد تورطت هناك،ودخلت السجن بتهمة القتل..

قالت في دهشة:

- دخلت السجن..! واتهموك بالقتل أيضا..!

قال:

- كنت عضوا بالمنظمة المعارضة للنظام السوري وقد كنا نقوم بعدة نشاطات ومظاهر لإلحاق الضرر بالنظام لكن بشكل ما أحد أعضاء المنظمة قام بقتل شخص ذو شأن في النظام وبطريقة ما تورطت بالأمر وتم اتهامي بقتل ذلك الشخص، مكثت لأسبوعين هناك ثم بعدها أطلق سراحي،ساعدني شرطي،كان من الواضح أنه شخص لديه معارف وعلاقات بالنظام وأصحابه،قال بأنه سيسدي معروفا لي لأن والدي معرفة قديمة له وقد ساعده فيما مضى وأنه قد حان الوقت ليرد معروفه ذلك، وجد القاتل وساعدني بالخروج..

قاطعته قائلة وهي تنظر إليه بعيون واسعة:

- كل هذا..!

قال:

- أخبرني حينها أنهم يبحثون عني ويريدون قتلي،لم أتفاجأ بذلك طبعا،فقد تجاوزت الحدود قليلا فيما يخص المقالات التي كتبتها والنشاطات التي قمت بها وخاصة أنني ذكرت بعض أسماء الأشخاص الذين لهم يد بالنظام،وحينها عرض علي السفر إلى الأردن وبدء حياة جديدة،وقد أمّن لي بطاقة هوية جديدة لي وجواز سفر لي ولعائلتي وتكفل بموضوع سفرنا وكذلك حصولنا على بيت نمكث فيه..وكنت قد غادرت قبل الإنفجار بيومين وقتها..

قالت في ذهول غير مستوعبة:

- لست أدري ما الذي أقوله، سكتت لهنيهة وواصلت متسائلة

- وما الذي حدث بعد ذلك..!

قال:

- أتينا إلى هنا أنا و أمي وعلياء حاولنا بناء حياة جديدة هنا، وجدت عملا بإحدى الصحف، عملت لتسعة أشهر هناك،بحثت عنك كثيرا،تشبثتُ بأمل إيجادك لكن لم أجد لكِ أثرًا،لم أعرف أين يجب أن أبحث،كنت ضائعا، وجدت رسائلك،راسلتني حين كنت في أوج انشغالي وحين أردت مراسلتك وجدت أنك قد

أغلقت حسابك وغيرت رقم هاتفك،لم أجد أي شيء يساعدني على إيجادك،وحين يئست تماما تعرفت على مرام كانت زميلتي بالعمل، قال مرتبكا:

- زوجتي.. نظرت بإبتسامة حانية بينما واصل قائلا:

تزوجنا لكنها توفيت حين ولادتها لجنى..

أطرفت بنبرة مواسية:

- آسفة لذلك،رحمها الله..

إستطرد مواصلا حديثه:

- بعدها انتقلت إلى شركة أكبر للعمل كمحرر وها أنا ذا أتولى أنا وأمي تربية جنى..هذا كل شيء..

إبتسمت في صمت ثم أطرفت:

- ماذا عن علياء ؟ لم أرها بالبيت ؟؟

أجاب قائلا:

- علياء و سامي تزوجا

- أطرفت مستغربة :

- هل أتى سامي إلى هنا أيضا؟

- اجل، بعد مجيئنا كان قد أتى رفقة عائلته أيضا .

ابتسمت في صمت ولم تقل شيئا

سأل قائلا:

- وماذا عنكِ..! دورك الآن لتخبريني بما حدث معكِ..

قالت:

- سأختصر، لا رغبة لي في سرد التفاصيل..

قال ضاحكا:

- لا بأس بذلك..

قالت:

- توفي مراد بعد وصولنا هنا بأشهر، في الأخير وجدوه وأخذوه منّا..

نظر في حزن بينما واصلت قائلة:

- تزوجت بإبن صديق والدي،يدعى كريم

نظر إليها بعيون واسعة كأنه لم يتوقع ذلك..

واصلت:

- بعد مدة وجيزة،تعرضنا لحادث بالسيارة، مات كريم وطفلي الذي لم يكن قد رأى نور الحياة بعد وعشت أنا، قال الطبيب أنني نجوت بأعجوبة.. تنهدت ثم واصلت:

- تزوجت زهرة،أقمتُ معرضا لرسوماتي أخيرا، وها أنا الآن معلمة رسم وأعيش مع والداي..

أطرف:

- يبدو أن كلانا مرّ بظروف صعبة..

قالت:

- أظن ذلك..ثم نظرت بعينه وقالت باسمة:

- إذن أنت صاحب الكتاب؛ ربيع عاصف، أدهم المرادي..

قال مندهشا:

- هل قرأته:

- لا،رأيته بمعرض الكتب، جذب عنوانه إنتباهي، للحظة ظننت أنني سأرى إسمك على غلاف الكتاب لكنني حين لم أجد إسمك تركته...

قال وهو ينظر بشوق لها:

- لقد كتبته لأجلك...

نظرت بإرتباك وقالت في شيء من التلعثم:

- لأجلي..!

قال وهو ينظر بعينيها:

- هل سنظل نهرب هكذا..!

قالت بنبرة متوترة وهي تنظر بعينيه:

- ما الذي تقصده..!

قال:

- هل سنظل نهرب من مشاعرنا هكذا..! هل تظنين أن الحياة جمعتنا هكذا صدفة..!

قالت ساخرة :

- أ حقًا..! ألم يكن بمقدورها أن تجمعنا قبل كل هذا، أن تدعنا نكمل فقط من حيث بدأنا..!

قال :

- لا أعرف لماذا، لكن ما يهمني فعلا هو أنك هنا، بعد كل هذا الوقت أنت الآن إلى جانبي...

قالت نادمة :

- كان علي أن أخبرك ذلك اليوم،قبل ذهابي، حين إلتقينا لآخر مرة..

قال:

- وكان علي ألا أدعكِ تذهبين قبل أن أخبرك.. شرد بعينيها لوهلة ثم واصل:

- أنني أحبك، كان علي أن أخبرك بمشاعري نحوك، ياسمين، لم يكن الأمر سهلا بالنسبة إلي، أن أفقدك، لقد كتبت ذلك الكتاب فقط لأنني فقدتك،لأنني لم أستطع إيجادك، كتبته لأجلك فقط..

قالت بعيون واسعة ونبرة متلعثمة:

- وأنا مثلك، لم أرد فقدانك، بل كنت أخاف من ذلك كثيرا ..لكني في الأخير فقدتك..

قال:

لكننا وجدنا بعضنا بعد كل شيء،وأنا الآن إلى جانبك وأنت بجانبي،بقي شيء واحد علي فعله..

قالت متسائلة:

ما هو..!

إقترب منها أكثر قليلا ونظر بعينيها بحُب وقال باسما:

- هل تتزوجينني..!

"الحياة أقدار وصدف جميلة، ولا ندري بعد أي صدفة و أي قدر سيجعلنا مدينين للحياة إلى الأبد.. لم يكن القدر موجودا عبثا ولا أحد يرسم حياتنا بطريقة أفضل من خالقنا.."

"ربما هو شعور سيء أن تنعزل عن الآخرين، أن تكون وحيدا، في الواقع أنت لست وحيدا هذا ما يهيأ لك وحسب ..فلديك عائلة ومنزل وأصدقاء لكنك تشعر بها.. بالوحدة داخلك في أعماق قلبك أينما الضوء مفقود والأحلام مدفونة والأمل ضائع .. كأنك تغمر نفسك هناك عمدا..لا تفعل قف وعشها كما كُتِبت لك"

تمّت الحمد الله..